المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

370

إبداعات عالمية

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

رواية



ليلة التنبؤ

تـأليـف: بول أوستر

ترجمة وتقديم: محمد هاشم عبدالسلام

مـراجـعـة: د. محمود عضبان رزوقي

فبراير 2008



الفنانة: هنوف الفرحان

من كتالوج صيفي ٢٠٠٧

المعرض الصيفي التشكيلي الرابع

من مقتنيات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

ليلة التنبؤ

(روايـة)

تــــألـــــيـــــف: بـول أوسـتر

ترجمـة وتـقـديم: محمد هاشم عبدالسلام

مـــراجـــعـــة: د. محمـود عضبان رزوقي

العـدد 370 فبراير 2008

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
بدر سيد عبد الوهاب الرفاعي

هيئة التحرير:
سليمان داوود الحزامي/المستشار
د. زبيدة علي أشكناني
د. سعاد عبد الوهاب عبد الرحمن
د. سليمان خالد الرياح
د. سليمان علي الشطي
د. ليلى عثمان فضل
د. محمد المنصف الشنوفي

سكرتيرة التحرير
لمياء القبندي

التنضيد والإخراج والتنفيذ:
وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org
E.Mail:
ebdaat_alamia@yahoo.com

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:
السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٠٥٢
ردمك: ٩-٢٣١-٠-٩٩٩٠٦

• ليلة التنبؤ
(رواية)

العنوان الأصلي:

ORACLE NIGHT
by: Paul Auster
By Faber and Faber limited
2004

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2007م

إبداعات عالمية - العدد 370

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

تنويه

سوف يتم طباعة هذا العدد بطريقة برايل للمكفوفين، كمشروع ثقافي بالتعاون بين المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وجمعية المكفوفين الكويتية.

المقدمة

يصعب، وسط المتاهات السردية والاستطرادات الحكائية والتأملية، تحديد تيمة أساسية تتيح تأويل رواية «ليلة التنبؤ»، لكننا سنتوقف بعد قراءتها عند تيمات أساسية بعينها، تشكل شبكة متواشجة من التفاعلات التي تلامس الاستمرار في الحياة من خلال معنى ما، هشاشة العواطف، الخوف المتربص، السلطة التي تحمي وجودها بخلق «الأعداء»، المتعة العابرة لمواجهة القلق والوحدة، الحب خارج المنطق، مسؤولية الفرد عن صيرورته، العنف الملازم لتفاصيل الحياة، الانجذاب إلى اللامرئي. ولا شك في أن تعدد هذه التيمات على هذا النحو، لا يخلو من اختزال، لأن التيمات تأتي ضمن سياق وأحداث وشخصيات وألعاب وحيل سردية تكسبها قوتها. وأعتقد أن هذا البناء المتشابك، القائم على التشويق والسرد المحبوك، أتاح لأوستر أن يدس أفكارا وتلميحات تستجيب لرؤيته المتناثرة في روايات عدة. وفي طليعة تلك الأفكار، ما يتصل بالقدرة التنبئية للكتابة.

وقد استطاع بول أوستر في هذه الرواية أن ينسج بنية سردية مشوقة تعتمد الاستطراد والتناص، فتغدو، من ثم، بنية روائية «معادلة» لشبكة العلائق الاجتماعية المعقدة والمأخوذة في شرك يتعدى قدر الفرد وإرادته، ويجعله دوما تحت وطأة الخوف

والتوجس والتنبؤ بما سيسفر عنه المستقبل، وكأن السديم الذي يلف الفرد ويضيّع خطواته هو ما يدفعه إلى محاولة فهم مساره وشظايا هويته من خلال سديم الآخرين. وكأن كتابة الرواية هي وسيلة لمواجهة السديم باستحضار أحداث الماضي التي هي «استعادة» للمستقبل.

يوغل بنا الروائي الأمريكي بول أوستر في روايته «ليلة التنبؤ» في دروب السرد المتقاطعة والحكايات المضفرة بخيوط التشويق المستمد من بنية الرواية البوليسية، ويتميز هذا النص الجديد بمكون راجح على بقية المكونات، وهو عنصر الرواية داخل الرواية. ويستعمل الكاتب هذا التركيب الفني ليجعل القارئ يتابع من داخل النص وعبره، طريقة «صنع» الرواية التي يحاول كاتب مفترض أن يكتبها بعد تماثله للشفاء من مرض ألم به.

ونجد أن البناء الفني للرواية يعتمد على مكونات وعناصر تخدم هذا التشابك والتناهي المتناسل عبر لعبة الرواية داخل الرواية. نجد خصوصا: تركيب سرد على سرد، والاستطراد المتواتر الذي يبدو أحيانا منعدم الصلة بالسياق، والتناوب بين معاينة اليومي وتسجيل لفضاء حي بروكلين الذي يعيش فيه الكاتب، وبين ارتياد أعماق المشاعر واستبطان العلائق بالزمن والتاريخ. وهي مكونات حاضرة في شكل أو في آخر في بقية روايات بول أوستر، الحريص على أن يجعل

شخصياته تائهة باستمرار تبحث وسط الدوار المزلزل عما يمنحها نتفا من الهوية المتصدعة. وهي الفكرة التي أبرزها في روايات سابقة مثل، «في بلاد الأشياء الأخيرة»، و«قصر القمر»، و«السيد فيرتيجو».

ينطلق الكاتب سدني أور، بطل الرواية، في كتابته لروايته المزمعة من فكرة وردت في رواية بوليسية بعنوان «الصقر المالطي» للكاتب الأمريكي الشهير «داشيل هاميت» تتحدث عن بطل نجا من الموت بأعجوبة، فقرر أن يبدأ حياة جديدة لا علاقة لها بحياته السابقة. وفي النص الذي يكتبه سدني أور خطوة بخطوة تحت أعيننا، ينطلق من قرار اتخذه نيك بوين بأن يسافر بعيدا عن زوجته ومدينته فجأة بعد أن نجا من الموت إثر سقوط أحد المزاريب بالقرب منه، رحل فجأة ولم يحمل معه سوى مخطوط رواية «ليلة التنبؤ»، التي أرسلتها إليه روزا ليتمان حفيدة روائية معروفة كتبت تلك الرواية في العشرينيات من القرن الماضي.

أما «حاضر» النص، أو السرد الواقعي الذي تدور الأحداث في فلكه، فهو الذي يشكل البنية السردية الحاضنة للرواية. حيث يحكي سدني عن علاقته بزوجته جريس وبصديقهما الكاتب المشهور جون تروس، خلال مرحلة النقاهة.

يحاول سدني استئناف الكتابة ليواجه الديون المتراكمة ومساعدة زوجته على نفقات العيش. هو مغرم بزوجته وهي،

على رغم حبها له، تعيش لحظات توتر يحار سدني في فهمها. وعلاقتهما بالكاتب تروس تمنحهما بعض العون والدفء.

وفي خط مواز، ينقل إلينا سدني خلاصة الرواية التي يكتبها ومغامرة بطله بوين التي تؤول إلى مأزق عندما يجد نفسه حبيسا في غرفة مدرعة تحت الأرض محصنة ضد القنابل الذرية. عندئذ، يتوقف مشروع الرواية، التي يكتبها أور، ويستمر السرد المتصل بقصة الكاتب، ويسرد لنا مشروعا لعمل سيناريو لفيلم عن رواية «آلة الزمن» لويلز، وما آل إليه هذا المشروع في النهاية، وكذلك يوقفنا على خبايا علاقاته بزوجته جريس، والكاتب جون تروس وابنه جاكوب.

وفي «ليلة التنبؤ»، يضيف أوستر عناصر شكلية تسعفه على احتواء التشظيات والتفريعات السردية، فنجده يدرج ثلاثة عشر هامشا لتفصيل حادثة أو للتذكير بوقائع حدثت في تاريخ سابق عن «حاضر» الرواية. ونجد أن الحبكة البوليسية تتشخص، أساسا، من دون توقع من الكاتب المفترض الذي يبدو - طوال النص - متحكما في خيوط السرد. إن هذا التداخل في الأحداث والفضاءات السردية هو ما يجعل الكاتب المفترض يتدخل ليوضح لنا تصوره عن مشروع روايته «ليلة التنبؤ». لذلك لا يفتأ يردد أن ما يكتبه هو عبارة عن محكي داخل المحكي، وأنه سيعطيه شكل رواية فلسفية تتصل بالتنبؤ بالمستقبل وتحلل العلاقة بالزمن.

يبدو بول أوستر عبر قراءتنا لروايته الأخيرة هذه موغلا في مغامراته الحداثية من دون تخل عن إرث الحداثة ذاتها. إن تشابك جذور حكايته بمرجعيات متنوعة بل ومتناقضة، واستخدامه المتواصل لتقنيات سردية متجددة (أبرزها تثبيت الكثير من الهوامش المسهبة التي وإن بدت شكلا على هامش المتن، فإنها تركت انطباعا ثابتا بتوازن مستقر وانسجام متصل مع صلب المتن إياه)، ومثابرته الراسخة في مجمل أعماله على استبصار مرآة الفعل الكتابي عينه، والاسترسال في مكابدته قدرا ومصيرا بل وملاذا لكينونة هشة، كل هذا يسهم في إمكان اعتبار أوستر كاتبا متفردا في متاهة فريدة يضيء ليلَها نجمٌ يستضاء بنوره هو نجم الكتابة، بل وفعلها الفريد.

ورواية «ليلة التنبؤ» مملوءة بالدلالات والتساؤلات المعاصرة جدا والتي، من حيث الظاهر، يتقاسمها العديد من الكتاب اليوم، ومن بينها سؤال الكتابة، صعوبتها وسحرها في الوقت ذاته.

ولد بول أوستر في الثالث من فبراير عام ١٩٤٧، في نيوجيرسي بالولايات المتحدة الأمريكية. وتخرج في جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة، وعاش في مدينة نيويورك التي يعشقها جدا. وهو روائي وكاتب ومترجم وشاعر وكاتب مسرح وسيناريو تتميز أعماله بتعقيد شخصياتها وموضوعاتها الفلسفية التي تتناول البحث عن معنى الهوية والذات.

يعد بول أوستر أحد أهم وأبرز كتاب امريكا المعاصرين في مجال الرواية، وبخاصة الرواية البوليسية. أو رواية التحري. على الرغم من وصف الكثير من النقاد لعالم أوستر الروائي بأنه يتحدى محاولة الإحاطة والتصنيف لثرائه وتعدد أبعاده، وفرادة عالمه وزخم العبقرية التي أبدعته.

من أهم رواياته: «ثلاثية نيويورك» (مدينة الزجاج، الأشباح، الغرفة الموصدة) نقلها إلى العربية: كامل يوسف حسين، وصدرت عن دار الآداب البيروتية في ١٩٩٣، «في بلاد الأشياء الأخيرة» صدرت عن دار الآداب ١٩٩٣، ترجمة شارل شهوان، «قصر القمر»، «موسيقى الحظ»، «السيد فيرتيجو»، «زرقة في الوجه»، «دخان»، «لولو فوق الجسر»، «تمبكتو»، «كتاب الأوهام»، «ليلة التنبؤ»، وأخيرا روايته التي صدرت منذ أربعة أشهر «حماقات بروكلين».

فاز بجائزة إدجار لأحسن رواية عام ١٩٨٦، عن الجزء الأول «مدينة الزجاج»، من عمله «ثلاثية نيويورك».

والجدير ذكره أنه منذ أن صدرت له «ثلاثية نيويورك» (التي خلدت اسمه في عالم الأدب حتى يومنا هذا)، ورواية «في بلاد الأشياء الأخيرة» عام ١٩٩٣، لم تصدر بالعربية أي ترجمة لعمل من أعماله الروائية أو القصصية أو الشعرية على الإطلاق، والروايتان اللتان ترجمتا إلى العربية قد صدرتا من دون علم أو إذن منه.

أهميـة هذا العمـل لا تنبع فقط من عالمـه الجديد والفريد وشـخوصه المتنوعـة وتقنياته المبتكرة، بل أيضـا من كونه عملا يطالع فيه القارئ العادي آخر ما جادت به قريحة كاتب أمريكي شـهير ومعاصر والاسـتمتاع به، أما بالنسبة إلى القارئ المتابع فسـيقف علـى آخر ما وصل إليـه الكاتب في مشـواره الإبداعي والتقني منذ آخر لقاء له معه عام ١٩٩٣.

محمد هاشم عبدالسلام

كنت مريضا لفترة طويلة. عندما جاء يوم خروجي من المستشفى، بصعوبة شديدة عرفت كيف أسير من جديد، وبجهد شديد كان بوسعي أن أتذكر هوية الشخص الذي كان من المفترض أن أكونه. قال الطبيب، يجب عليك أن تبذل مجهودا، وفي غضون ثلاثة أو أربعة أشهر سوف تستعيد قدرتك على التحكم في الأشياء. لم أكن أصدقه، لكنني على أي حال اتبعت نصيحته. كانوا قد يئسوا من حالتي واعتبروني في عداد الأموات، والآن بعدما أربكت تنبؤاتهم وبلبلتها وأخفقت بشكل غامض في أن أكون بين الموتى، أي اختيار كان لديّ غير أن أعيش كما لو كانت هناك حياة مستقبلية تنتظرني؟

بدأت بعدة نزهات قصيرة، لا تتعدى مربعا سكنيا أو مربعين بعيدا عن شقتي ثم العودة إلى البيت مرة ثانية. كنت فقط في الرابعة والثلاثين من عمري، لكن المرض في حقيقة الأمر كان قد جعلني واحدا من هؤلاء المسنين ذوي المظهر الغريب، المصابين بالشلل الرعاش والذين يمشون بتثاقل وارتباك، ولا يمكنهم وضع قدم أمام الأخرى في أثناء سيرهم من دون أن ينظروا أولا إلى الأرض ليروا أي قدم ستكون أمام الأخرى. حتى عندما كنت أمشي بخطوات بطيئة، وهو الأمر الذي أصبح بمقدوري التحكم فيه حينها، كان المشي يثير عندي نوعا غريبا من الخفة غير العادية في رأسي، معترك إشارات ذهنية مختلطة ومسارات عقلية متقاطعة في ما بينها. يثب العالم ويسبح أمام عينيّ، ويمور مثل مجموعة انعكاسات في مرآة متموجة، وكلما حاولت أن أركز بصري على شيء واحد فقط، أن أتمكن من عزل شيء واحد بمفرده من زحام تدويم ألوان وشاح أزرق ملفوف حول رأس امرأة، مثلا، أو الضوء الأحمر لمصباح خلفي لعربة نقل مارة، فإنه يبدأ على الفور في الانحلال إلى أجزاء كل منها على حدة ويأخذ

في الذوبان، ثم الاختفاء مثل قطرة صبغة في كوب ماء. كان كل شيء يهتز ويرتعش متذبذبا، ويواصل انطلاقه بعيدا في اتجاهات مختلفة. وكانت لديّ صعوبة كبيرة في الأسابيع العديدة الأولى في التمييز بين المكان الذي يتوقف عنده امتداد جسدي، والمكان الذي تبدأ منه بقية العالم. كنت أباغت بالحوائط وصناديق القمامة، وكنت أتعثر في مقاود الكلاب وكتل النفايات الورقية الملقاة، ويتسبب أكثر الأرصفة نعومة في انزلاقي. لقد عشت حياتي كلها في نيويورك، لكنني لم أعد أستطيع استيعاب الشوارع أو الازدحامات على الإطلاق، وفي كل مرة خرجت فيها للقيام بإحدى نزهاتي القصيرة، كنت أشعر كأنني رجل ضل طريقه في مدينة أجنبية عنه.

جاء الصيف مبكرا في تلك السنة. في نهاية الأسبوع الأول من شهر يونيو، أصبح الجو راكدا، ومقبضا وكريه الرائحة بصورة لا تطاق، ويوما بعد يوم راحت السماوات الخاملة ذات اللون المائل للخضرة، والهواء المعبق بأدخنة القمامة والعادم، تبعث بالحرارة من كل حجر ولوح خرساني. ومع ذلك، واصلت القيام بنزهاتي القصيرة القسرية، مرغما نفسي على هبوط السلالم والخروج إلى الشوارع كل صباح، ولأن الأشياء المختلطة في رأسي أخذت في الوضوح وبدأت قوتي تعود إليّ ببطء، فقد صرت قادرا على أن أوسّع من مشاوير نزهاتي وأن أمضي إلى بعض المناطق النائية أو الأكثر ابتعادا في الجوار. الدقائق العشر أصبحت عشرين، والساعة ساعتين، والساعتان أصبحتا ثلاثا. رئتاي نهمتان للهواء، جلدي مغطى على الدوام وبشكل كثيف بالعرق، أنجرف إلى الأمام مثل متفرج في حلم شخص آخر، أراقب العالم وهو يتقدم بتؤدة في خطواته وأتعجب كيف كنت ذات يوم مثل هؤلاء الناس الذين حولي:

مســرعا على الــدوام، دائما في الطريق من هــذا المكان إلى ذاك، دائما متأخرا، دائما أندفع وأزاحم للقيام بالعديد من الأشــياء على آكمل وجه ممكن قبل غروب الشــمس. لم أعد مؤهلا لممارسة تلك اللعبــة من جديد. فأنا الآن مثل البضائــع المعيبة، كتلة من الأجزاء المعطلة والأعصاب المثيرة للمشاكل والحيرة، كما أن كل ذلك الهياج الشــديد المتملك مني والمتسبب في إنهاكي تركني باردا غير مكترث لشــيء. ولإكمال عنصر الفكاهة في كل هــذا، عدت مرة ثانية إلى التدخين وإلى تمضية فترات بعض الظهر في المقاهي المكيفة الهواء، أطلب الليمونادة وســاندويتش الجبن المطبوخ، بينما استرق السمع إلى المحادثات من حولي وأنا أشق طريقي بتمهل عبر كل مقالة في ثلاث جرائد مختلفة. وهكذا كان الوقت ينقضي.

في صباح اليوم الذي نحن بصدد التحدث عنه، وهو الثامن عشر من شــهر سبتمبر من عام ١٩٨٢، غادرت الشقة تقريبا بين الساعة التاسعة والنصف والعاشــرة. أسكن أنا وزوجتي في مقاطعة «كوبل هيل» في حي «بروكلين»، في منتصف الطريق بين «بروكلين هايتس» و«كارول جاردنز». اعتدت أن أمضي في سيري جهة الشمال، لكنني في ذلك الصباح توجهت جنوبا، وانعطفت إلى اليمين عندما وصلت إلى «كورت ســتريت» وواصلت سيري لستة أو سبعة شوارع جانبية. كانت الســماء بلون الأسمنت، ســحب رمادية، وهواء رمادي، ورذاذ رمــادي تحمله هبّات ريح رمادية. أعاني دائما من ضعف تجاه ذلك النوع من الطقس، وأشعر دائما بالرضا في الطقس الغائم، ولا أشعر بأدنى مقدار من الأســف لأن أيام الشعرى[1] القائظة قد انقضت. بعد عشر دقائق تقريبا من شروعي في السير لاحظت، في منتصف المربع السكني الواقع بين شارعي «كارول» و«بريزيدنت»، محل أدوات

مكتبية على الجانب الآخر من الشارع. كان المحل محشورا بين ورشة لتصليح الأحذية وحانة تعمل على مدار اليوم، كانت واجهة المحل هي الوحيدة المضيئة في صف المباني الرديئة، التي لا تسترعي الانتباه. استنتجت أن المحل لم يكن موجودا هناك منذ فترة طويلة، لكن على الرغم من حداثته، والعرض الماهر والبارع للمواد المرصوصة في نافذة واجهة المحل (أبراج عبارة عن أقلام من الحبر الجاف والرصاص، والمساطر المرتبة، بحيث تعطي إيحاء أو انطباعا بأفق مدينة نيويورك ومبانيها)، على الرغم من ذلك فقد بدا «قصر الورق» بالنسبة إلي صغيرا جدا ليحتوي على الكثير مما يجذب الاهتمام. إذا كنت قد قررت عبور الشارع والدخول إليه، فلا بد أنني كانت بي رغبة داخلية للشروع في العمل من جديد، من دون أن أدري عنها شيئا، من دون وعي أو إدراك للدافع الذي كان يتعاظم في داخلي. لم أكتب شيئا منذ عودتي من المستشفى إلى البيت في شهر مايو، ولا جملة، ولا حتى كلمة، ولم أشعر بأدنى ميل أو رغبة للقيام بهذا. الآن، بعد أربعة أشهر من البلادة والسكون، خطرت في ذهني فجأة فكرة التزود بمجموعة جديدة من مخزون الأدوات المكتبية: أقلام جافة ورصاص جديدة، دفتر ملاحظات جديد، خراطيش حبر ومجموعة دفاتر وملفات جديدة، كل شيء جديد.

كان يجلس خلف آلة تسجيل النقد في المدخل رجل صيني. بدا أنه كان أصغر مني قليلا في السن، وعندما ألقيت بلمحة خاطفة عبر زجاج الواجهة بينما كنت أدخل إلى المحل، رأيت أنه كان منحنيا إلى الأمام فوق أحد الدفاتر، يسجل فيه بقلم رصاص أسود ميكانيكي مجموعة من الخانات أو الأعمدة الرقمية. وعلى الرغم من برودة الجو في هذا اليوم، فقد كان مرتديا قميصا بكمين قصيرين من تلك

القمصان الرقيقة الفضفاضة - المناسبة أكثر لفصل الصيف - وله ياقـة مفتوحة، أبرز نحافة ذراعيه نحاسـيتي اللون. عندما جذبت البـاب لأفتحه صـدر عنه صوت رنين، فرفع الرجل رأسـه للحظة ليحييني بإيماءة مهذبة. أومأت إليه رادا التحية، لكن قبل أن أتمكن من قول شيء له، خفض رأسه مرة ثانية وعاد إلى حساباته.

لابـد أن حركة المرور بالخارج في شـارع كـورت قد وصلت إلى درجـة من الهدوء التام في ذلك الوقت بالـذات، أو أن لوح الزجاج الخاص بنافذة الواجهة كان سميكا بشكل يفوق المعتاد، لكنني عندما بدأت اتجه إلى نهاية الممر الأول لأعاين المحل، أدركت فجأة كم كان المكان هادئا هناك في الداخل. كنت أول عميل يأتي في ذلك اليوم، وكان السـكون واضحـا لدرجة أنني كان بإمكاني أن أسـمع صوت الصريـر الخفيف الصادر عن قلـم الرجل الصيني من خلفي. كلما أفكر الآن في ذلك الصباح، يكون دائما صوت ذلك القلم الرصاص هو أول شيء أسترجعه، إلى درجة أن القصة التي أنا بصدد روايتها الآن - إن أعطـت أيّ معنى - فإنني أعتقد أن مصدر ذلك هو هذا المـكان الذي بدأت فيه خلال تلك الثواني القليلة، عندما كان صوت القلم الرصاص هو الصوت الوحيد الذي بقي في العالم.

سـلكت طريقي نحـو نهاية الممـر، أتوقف كل خطوتـين أو ثلاث لأتفحص المواد الموضوعة على الرفوف. اتضح لي أن معظم المعروض علـى الرفوف كان مجـرد أدوات مكتبية تقليدية وأشـياء، خصوصا بمستلزمات الدراسة، لكن المجموعة المختارة كانت كاملة وتامة بشكل لافـت للانتباه خاصة في مكان ضيق مثل هذا، وكنت منبهرا بالعناية التي تم بها تخزين وترتيب مثل هذه البضائع المفرطة، التي بدت كأنها تضم كل شـيء، بدءا بسـتة أطوال مختلفة مـن دبابيس تثبيت الورق

المصنوعــة من النحاس الأصفر، إلى اثني عشــر نموذجا مختلفا من المشابك الورقية. عندما استدرت عند الركن وبدأت أتحرك إلى نهاية الممــر الآخر نحو المدخل، لاحظــت أن أحد الرفوف قد تم تخصيصه لمجموعة من المواد المستوردة ذات الجودة العالية: دفاتر ورقية إيطالية مغلفة بالجلد، دفاتر لتسجيل العناوين من فرنسا، ملفات يابانية رقيقة ناعمــة مصنوعة مــن ورق قش الأرز. كانت هنــاك أيضا كومة دفاتر ملاحظــات ألمانية الصنع وأخرى برتغالية. كانــت الدفاتر البرتغالية جذابة إلي بصفة خاصة، بأغلفتها السميكة المقوّاة، وسطورها المربعة، وملازم الــورق المصقولة القوية المخيطة فــي كل دفتر، وورقه القابل للانتزاع منه بسهولة. عرفت أنني سوف أشتري أحد هذه الدفاتر في اللحظــة التي عثرت فيها عليها، وأمســكت بالدفتر في يدي. لم يكن هناك أي شــيء فخم أو فاخر فيه. كان الدفتر نموذجا عمليا للقطعة التي لا تســتأثر بالنفس، عاديا، ومتينا، لكــن ليس على الإطلاق من نوعيــة الدفاتر الجديدة التي من الممكــن أن تفكر في تقــديمها إلى شــخص ما كهدية. لكنني في حقيقة الأمر أحببت حقيقة أنه كان مغلفا بالقماش، وأحببت شــكله أيضا: تسع بوصات وربع في سبع بوصات وربع، وهو ما يعني أنه أقصر وأعرض بعض الشيء عن معظم الدفاتر الأخرى. لا أســتطيع أن أفسّــر لماذا كانت أبعاده بهذه الكيفية، إلاّ أنني وجدت هذه الأبعاد مرضية جدا إلى أبعد حد، وعندما أمسكت بالدفتر في يدي للمرة الأولى، شعرت بما يشبه المتعة الجسدية، وبتدفق مفاجئ من الراحة والسعادة غير مفهوم. لم يكن متبقيا هناك سوى أربعة دفاتر فــي الكومة الموضوعــة على الرف، وكان كل دفتــر منها بلون مختلف: أســود، وأحمر، وبني، وأزرق. اخترت الدفتر الأزرق، الذي تصادف أنه كان الدفتر الموجود في أعلى الكومة.

أمضيت حوالي خمس دقائق إضافية لجمع بقية الأشياء الأخرى التي حضرت لأجلها، ثم حملتها ومضيت إلى المدخل ووضعتها على الكاونتر. منحني الرجل ابتسامة أخرى من ابتساماته المهذبة، وبدأ في الدق على آلة تسجيل النقد، وكان يقوم بتسجيل كميات كل بند من البنود المتنوعة. لكن عندما وصل إلى الدفتر الأزرق، توقف للحظة، رفعه في الهواء، ثم مرر أنامله على الغلاف برقة. كانت علامة تدل على التقدير، في الغالب نوعا من الملاطفة.

«دفتر جميل»، قال بلكنة إنجليزية بطيئة: «لكن لن يوجد المزيد منه. لا برتغال بعد اليوم. قصة محزنة جدا».

لم يكن بإمكاني متابعة ما كان يقوله، لكن بدلا من أن أستمهله على الفور وأطلب منه أن يعيد ما قاله، تمتمت بشيء ما عن جاذبية وبساطة الدفتر ثم قمت بتغيير الموضوع: «هل تدير المكان هنا منذ فترة طويلة، إنه يبدو جديدا ونظيفا جدا؟»، سألت.

«منذ شهر، كان الافتتاح الكبير في العاشر من أغسطس»، قال.

عندما ذكر لي هذه الحقيقة، بدا لي أنه كان يقف منتصبا بعض الشيء، وهو يبرز صدره إلى الأمام بفخر عسكري صبياني، لكن عندما سألته عن كيفية سير عمله، وضع الدفتر الأزرق على الكاونتر وهزّ رأسه: «بطيء جدا. كثير من الإحباطات». عندما نظرت إلى عينيه، أدركت أنه كان أكبر بعدة سنوات مما اعتقدته في البداية، على الأقل في الخامسة والثلاثين، وربما حتى في الأربعين. صدرت مني بضعة تعليقات غير ذات معنى عن التحلي بالصبر والتريث لبعض الوقت وإعطاء الأمور فرصة للتطور، لكنه هزّ رأسه فقط مرة ثانية ثم ابتسم

«كنت أحلم دائما بامتلاك متجر»، قال. «محل مثل هذا به أقلام وأوراق، حلمي الأمريكي الكبير. الأعمال متاحة للناس كافة، أليس كذلك؟».

«بالضبـــط»، قلـــت، ولم أكن متأكدا حتى تلـــك اللحظة مما كان يتحدث عنه بالضبط.

«الجميع يستخدمون الكلمات»، واصل. «الجميع يقومون بتدوين الأشـــياء. الأطفال في المدارس يكتبون دروســـهم فـــي الدفاتر التي أبيعها. والمدرسون يضعون التقييمات في دفاتر من عندي. الرسائل الغرامية تُرســـل في مظاريف أقوم ببيعها. دفاتر الحســـابات التي يستخدمها المحاسبون، قوائم مشتروات التسوق، جداول التخطيط لأعمال الأســـبوع. كل شـــيء هنا في المحل مهم فـــي الحياة، وهذا يجعلني سعيدا، يجعلني فخورا بحياتي».

إلقـــاء الرجل لخطبته القصيرة بمثل هذا النوع من الوقار، ومثل هذا الإحســـاس الرزين بالعناية والالتزام، أعترف أنه جعلني أتأثر به. تســـاءلت مندهشـــا، أي نوع من مالكي محلات الأدوات المكتبية كان هذا الرجل، الذي يشرح ويفسّر لزبائنه ميتافيزيقا الورق، ويرى نفســـه خادما يلعب دورا أساســـيا في شؤون عديدة لأجل البشرية؟ كان هناك شيء كوميدي في الأمر، علَى ما أظن، لكنني رحت أنصت إلى حديثه، ولم يخطر لي أبدا أن أضحك.

«مهمـــة جيدة. لـيـــس بإمكاني أن أتفـق مــعـــك على أكثر من هذا»، قلت.

بدا أن المجاملة قد رفعت من روحه المعنوية نوعا ما. وبابتســـامة صغيرة وإيماءة من رأســـه اســـتأنف الرجل الدق على آلة تســـجيل النقد. «هناك الكثير من الكتـــاب في بروكلين. المنطقة كلها ممتلئة بهم. ربما هذا في مصلحة العمل»، قال.

«ربما»، قلت. «مشـــكلة معظم الكتـــاب أنهم لا يمتلكون كثيرا من المال لينفقوه».

«آه»، قال، وهو يرفع بصره عن آلة تسجيل النقد ويرسم ابتسامة عريضة مفاجئة على وجهه، لدرجة أن أسنانه المنحنية قد بانت عن آخرها. «لابد أنك كاتب يا سيدي».

«لا تخبر مخلوقا بهــذا»، أجبت، محاولا الإبقاء على نبرة المرح: «من المفترض أن يكون هذا سرا».

لــم يكن التعليق فكهــا جدا، لكن يبــدو أن الرجل قد اعتقد أنــه كان مضحكا إلى حــد كبير، فكل ما كان بوســعه أن يفعله خلال الفتــرة القصيرة التي تلت التعليق هــو ألاّ ينهار في نوبة من الضحك. كان هناك إيقاع غريب متقطع في ضحكته - التي بــدا أنها واقعة في مكان ما بين الــكلام والغناء - وقد انطلقت من حنجرته في سلسلة من التكرارات الآلية القصيرة: هاهاها. هاهاها. هاهاها. «لا تخبر مخلوقا بهذا»، قال، وبمجرد أن هدأ جيشانه، أضاف «سري للغاية. بيني وبينك فقط. سأخيط شفتيّ تماما. هاهاها».

ثم عاد إلى عمله على آلة تسجيل النقد، وعندما انتهى من تعبئة أشــيائي في حقيبة تســوق كبيرة بيضاء، عادت الجدية إلى وجهه مــرة ثانية: «إذا كتبت في يوم ما قصة في الدفتر البرتغالي الأزرق، فاعمل على أن تجعلني سعيدا جدا. وقلبي ممتلئا بالفرح»، قال.

لم أعرف كيف أجيب عن هذا، لكن قبل أن يتسنى لي التفكير في قول أي شــيء، أخرج بطاقة تعريف به من جيب قميصه وأعطاها لــي عبر الكاونتــر، كانت كلمتا «قصر الــورق» مطبوعتين بأحرف كبيرة واضحة في أعلى الكارت، وتحتهما العنوان ورقم الهاتف وفي الركن الســفلي الأيمن، كانت هناك معلومة أخيرة: إم.آر[٢] تشانج صاحب المحل.

«شـــكرا لك يا سيد تشانج»، قلت وأنا مازالت أنظر إلى الكارت. ثم دسسته في جيبي وأخرجت محفظتي لأدفع الحساب.

« لســـت سيدا »، قال تشانج، وهو يبتسم ابتسامته العريضة مرة ثانية. «إم.آر تبدو أكثر أهمية من هذا. أكثر أمريكية».

مرة ثانية، لم أعرف ما الذي أقوله. ومضت في ذهني بضع أفكار عما كان يرمــز إليه الحرفان الكبيــران «إم و آر»، لكنني احتفظت بها لنفســـي. «حيل عقلية. تفسيرات متعددة. رؤى غامضة»[٣]. من الأفضل ترك بعض التعليقات من دون التصريح بها، ولم أزعج نفسي بالإدلاء بملاحظاتي البارعة الكئيبة إلى الرجل المســكين. بعد فترة قصيرة من الصمت المطبق، ناولني تشـــانج حقيبة التسوق البيضاء ثم انحنى على سبيل الشكر.

«حظ سعيد مع محلك»، قلت.

«قصر صغير جدا»، قال. «لا يوجد كثير من المواد اللازمة للكتابة، لكن عليك أن تخبرني بما تريده، وسوف أطلبه لك. أي شيء تريده، بإمكاني أن أحصل لك عليه».

«موافق. هذا اتفاق»، قلت.

اســـتدرت لأنصرف، لكن تشانج ركض بسرعة من خلف الكاونتر واســـتوقفني عند الباب. بدا أنه كان واقعا تحت تأثير انطباع بأننا قد أبرمنا لتوّنا مسألة تتعلق بأعمال على درجة عالية من الأهمية، وأراد أن يصافحنـــي. «اتفـــاق»، قال. «جيد بالنســـبة إليك، وجيد بالنسبة إلي. اتفقنا؟».

«اتفقنا»، كـــررت، وتركته يصافحني. وجدت أنه من الحماقة أن أعطـــي أهمية أكبر ممـــا ينبغي لأمر هيّن لا يســـتحق، ولكن الأمر عموما لم يكلفني شـــيئا حين تماديت فيه. بالإضافة إلى ذلك، فقد

كانت بي رغبة شـــديدة في المغادرة، وكلما تفوهت بالقليل، كنت في طريقي بأسرع ما يمكن.

«أنـــت تطلب، وأنا ألبّي. أيا كان ما تطلبه، ســـوف أوفره لك. إم. آر يقوم بما يُكلف به».

بعد ذلك رفع ذراعي في الهواء وخفضها مرتين أو ثلاثا، ثم فتح لي الباب، وهو يومئ ويبتسم، بينما كنت أنزلق متجاوزا إياه إلى نهار ذلك اليوم الرطب البارد من شهر سبتمبر(٤).

كنت قـــد خططت لأن أتوقف لتناول الإفطـــار في أحد محلات الوجبات المحلية، لكن الورقة النقدية من فئة العشـــرين دولارا، التي كنت قد وضعتها في محفظتي قبل أن أشـــرع في الخروج، تقلصت إلـــى ثلاثة دولارات صحيحة ومقدار ضئيل من العمـلات المعـدنية، لا تكفـــي حتى لشـــراء وجبة بقيمـــة ٢,٩٩ دولار، خصوصا عندما نضع فـــي الاعتبار الضريبة والبقشـــيش. لو لم تكـــن معي حقيبة التســـوق، لربما كنت سأواصل ســـيري على كل حال، لكن ليس ثمة غرض يستدعي أن أحمل معي هذه الحقيبة المرهقة هنا وهناك في المنطقة، ونظرا إلى أن الطقس قد صار في حالة فظيعة بكل معنى الكلمـــة في ذلك الوقت (بســـرعة تحول الرذاذ الخفيف إلى ســـيل منهمر متواصل)، فقد فتحت مظلتي وقررت الذهاب إلى البيت.

كان يوم السبت، وكانت زوجتي لا تزال في الفراش عندما غادرت الشـــقة. كان لدى جريس عمل منتظم من الســـاعة التاســـعة حتى الخامســـة، وكانت عطلات نهاية الأســـبوع فرصتها الوحيدة للنوم الطويل، والاســـتمتاع بترف الاستيقاظ، من دون سماع جرس المنبه. لم أرغب في إزعاجها عند خروجي، تســـللت إلى الخارج بهدوء قدر الإمـــكان، تاركا ملاحظة لها على مائـــدة المطبخ. وقد رأيت الآن أن

عدة جمل قد أضيفت إلى هذه الملاحظة. سدني: أتمنى أن تكون قد استمتعت بتجوالك. سأخرج للقيام ببعض المهام، لن أتغيب طويلا. أراك عندما أعود. مع حبي، ج».

دخلت إلى حجرة المكتب الموجودة في نهاية الصالة وأفرغت إمداداتي الجديدة. كان المكان هنا أكبر قليلا جدا من مساحة حجرة خزين - مكان يكفي فقط لمكتب وكرسي، وخزانة كتب صغيرة بأربعة أرفف ضيقة - لكنني وجدت أن هذا المكان مناسب وكاف لاحتياجاتي التي لم تكن أكثر تعقيدا من الجلوس على الكرسي ووضع كلمات على قطع من الورق. كنت قد دخلت من قبل عدة مرات إلى هذه الحجرة، منذ أن سُمح لي بالخروج من المستشفى، لكن حتى ذلك الصباح من يوم السبت في شهر سبتمبر - وهو ما أفضِّل أن أسميه بالصباح الذي نحن بصدد التحدث عنه - لا أعتقد أنني جلست مرة واحدة على الكرسي. الآن، بينما كنت أشرع في الجلوس بتأسف ووهن على المقعد الخشبي القاسي، شعرت بأنني مثل شخص عاد إلىَ البيت من رحلة طويلة وشاقة، مسافر بائس عاد ليسترد مكانه الشرعي في العالم. كان شعورا طيبا أن أكون هناك مرة ثانية، وكان جيدا أن أرغب في الوجود في ذلك المكان مجددا، وبمناسبة هذه السعادة التي اجتاحتني بينما كنت مستقرا إلى مكتبي القديم، قررت تمجيد هذه اللحظات بكتابة شيء ما جديد في الدفتر الأزرق.

وضعت خرطوشة حبر جديدة في قلمي، وفتحت الدفتر على الصفحة الأولى، ونظرت إلى السطر الأول. لم تكن لديّ أي فكرة عن كيفية البدء. لم يكن الغرض من التمرّن هو كتابة أي شيء على وجه التحديد أكثر من أن أثبت لنفسي أنني لا تزال لديّ المقدرة

علـــى الكتابة - الأمـــر الذي كان يعني أنه لم تكـــن هناك أهمية لما سأكتبه، مادمت سوف أكتب شيئا ما. أي شيء كان سيفي بالغرض، أي جملة كانت ستصبح فعالة وقوية كغيرها، لكن مع ذلك، لم أرغب في أن أبدأ علاقتي مع هذا الدفتر بشـــيء أحمق، لذا رحت أضيِّع وقتي في تأمل المربعات الصغيرة على الصفحة، وصفوف الخطوط الزرقـــاء الباهتة التي قطعت بيـــاض الصفحة وحولته إلى حقل من الخانات الصغيرة المتشـــابهة، وبينما كنـــت أطلق العنان لأفكاري أن تتجول إلى داخل وخارج تلك الأماكن المسـيَّجة بنوع من الرشـــاقة، وجدت نفسي أتذكر محادثة كانت قد دارت بيني وبين صديقي جون تروس قبل أسبوعين. نادرا ما كنا نتحدث أنا وهو عن الكتب عندما نكون معا، لكن جون ذكر لي في ذلك اليوم أنه كان يعيد قراءة بعض أعمال الكتاب الروائيين الذين أعجب بهم عندما كان شابا - بدافع الفضـــول لمعرفة ما إذا كانت أعمالهم لا تزال على ما كانت عليه أم لا، ومعرفـــة إذا كانت التقديـــرات أو الأحكام التي كان قد أصدرها وتكونت لديه في العشـــرينيات من عمره هي نفسها التقديرات التي ســـيقوم بإصدارهـــا اليوم، فقد انقضت أكثر من ثلاثين ســـنة على هذا. تصفح بســـرعة أعمال عشـــرة من الكتاب، وعشرين كاتبا من البداية إلى النهاية، أشـــار إلى الجميع من فوكنر وفيتزجيرالد إلى دوستوفســـكي وفلوبير، لكـــن التعليق الذي التصـــق بقوة أكثر في عقلي - والذي اســـتحضره الآن بينما أنا جالس إلى مكتبي والدفتر الأزرق مفتوح أمامي - كان الاستطراد الصغير الذي قاله بخصوص قصـــة أحد كتب داشـــيل هاميت: «ثمة رواية فـــي مكان ما في هذا الكتاب. لكنني أصبحت متقدما جدا في الســـن لأفكر فيها لنفسي، بينمـــا غلام صغير الســـن مثلك يمكنه بالفعل أن يحلق بها عاليا،

ويحولها إلى شـــيء ما جيد. إنها مقدمـــة رائعة. كل ما أنت بحاجة إليه هو قصة لتتفق معها وتناسبها»، هذا ما كان جون قد قاله(٥).

كان جون يشير إلى حادثة فلتكرافت في الفصل السابع من رواية «الصقـــر المالطي»، تلك الحكاية الرمزيـــة الغريبة التي يحكي فيها «ســـام سبيد» إلى «بريجيد أوشوجنيسي» عن الرجل الذي ينجو من كارثة كادت تودي بحياته ثم يفر من حياته بعد ذلك. كان فلتكرافت رجـــلا تقليديا بمعنـــى الكلمة - زوجا، وأبا، ورجـــل أعمال ناجحا، شـــخصا ليس لديه ما يشـــكو منه. بينما كان ماشـــيا ذات يوم في طريقه لتناول وجبة الغداء، سقطت عارضة من ارتفاع عشرة طوابق في أحد الأبنية قيد الإنشـــاء على مســـافة قريبة جدا من رأســـه. بوصة أخرى أو بوصتين، وكانت ســـوف تسحق فلتكرافت، لكن هذه العارضة لم تصبه، باستثناء شظية صغيرة من الرصيف طارت إلى أعلى واصطدمت بوجهه، وقد واصل سيره من دون أن ينزعج. ومع ذلك، هزّته نجاته بأعجوبة من الداخل، ولم يســـتطع إبعاد الحادث عن عقله. وقد عبّر هاميت عن ذلك كالتالي:

«شعر كأن شخصا ما قد رفع الغطاء عن الوجود وأطلعه على ما يجري». يدرك فلتكرافت أن العالم ليس بالمكان العاقل المرتب الذي كان يظنه، لدرجة أنه اعتبر كل هذا خطأ من جانبه هو منذ البداية، عندما لم يفهم أو يستوعب الأمور المبدئية المتعلقة بهذا العالم.

تتربص العشـــوائية بنا في كل يوم من حياتنـــا، وتلك الحياة من الممكـــن أن تســـلب منا في أي لحظة - دونما ســـبب على الإطلاق. بمجـــرد انتهـــاء فلتكرافت مـــن غدائه، وصل إلى قـــرار أنه لم يعد لديه أي اختيار ســـوى الخضوع لهذا التأثير المهلك المدمر؛ فتتحطم حياته وتسحق بسبب عمل تعسفي تماما وبلا معنى من نفي الذات.

سيحارب النار بالنار، إذا جاز التعبير، من دون أن يكلف نفسه عناء الرجوع إلى البيت أو توديع عائلته، بل ومن دون أن يحاول سحب أي مبلغ مالي من البنك، ينهض عـن المائدة، ويذهب إلى مدينة أخرى ويبدأ حياته من جديد.

بعد أسبوعين من مناقشـتنا أنا وجون لذلك الحادث، لم يخطر ببالي على الإطلاق ولو لمرة واحدة أنني ربما أرغب في قبول التحدي وتحويل القصة إلى لحم ودم. وافقته على أن هذه كانت مقدمة جيدة - جيدة لأننا جميعا تخيلنا التخلي عن حياتنا، جيدة لأننا جميعا في لحظـة أو أخرى أردنا أن نكون أشـخاصا ما آخرين - لكن ذلك لم يكن يعني أنني لديّ أي اهتمام بالعمل عليها. لكن في ذلك الصباح، بينما كنت جالسـا إلى مكتبي لأول مرة منذ تسـعة أشـهر تقريبا، أحدق في دفتري الـذي حصلت عليه حديثا، وأجاهد للوصول إلى جملة افتتاحية لا تكون سـببا في إحراجي أو تسرق مني شجاعتي، قررت أن أعطي حادثة فلتكرافت القديمة دفعة إلى الأمام. لكن لم يكـن هذا أكثر من مجرد ذريعة، بحث عـن طريقة ممكنة ومعقولة للدخـول. لو أتيح لـي أن أدوّن على عجل فكرتين ممتعتين بشـكل معقول، عندئذ سـيمكنني على الأقل أن أطلق على هذه بداية، حتى لو توقفت بعد عشـرين دقيقة ولم أفعـل بهما ما هو أكثر من هذا. لذلك نزعت الغطاء عن قلمي، وضغط السن على السطر الأول في الصفحة الأولى في الدفتر الأزرق، وشرعت في الكتابة.

جاءت الكلمات في سـرعة وسهولة، من دون أن تتطلب مجهودا كبيرا. وقد حدث ذلك بشـكل مذهل، بل وكلمـا أبقيت يدي تنتقل من اليسـار إلى اليمين، بدا لي أن الكلمة التالية موجودة هناك، في انتظار أن تخرج من القلم. رأيت فلتكرافت، الذي في تخيلي أنا، على

هيئة رجل اسمه نيك بوين. في منتصف الثلاثينيات من عمره، يعمل محررا في دار نشــر كبيرة في نيويورك، ومتزوج من امرأة تســمى إيفا. ولأجل السير على نهج النموذج الأصلي لهاميت، من الضروري أن يكون بوين ناجحا في عمله، ويلقى التقدير والإعجاب من جانب زملائه، في أمن مادي، ســعيدا في زواجــه... إلخ. أو هذا ما يبدو لمشاهد عابر، لكن وفق ما تبدأ نسخة قصتي، فقد كانت المعاناة قد نشــطت وأخذت تتقد داخل بوين منذ فتــرة من الوقت. فقد انتابه الســأم من عمله (على الرغم من أنه لا يرغب في الاعتراف بهذا)، وبعد خمس ســنوات من الاســتقرار والرضا النسبي مع إيفا، صار زواجه متجمدا، (حقيقة أخرى لم تكن لديه الشــجاعة لمواجهتها). وبدلا من تعمقه في ســخطه وعدم رضاه المتزايد، كان نيك يقضي أوقات فراغه في جراج في شارع «ديبروسيز» في «تريبيكا»، مشغولا في مشــروع طويل الأجل لإعادة إصــلاح محرك عربته «الجاغوار» المعطل (التي كان قد اشــتراها في الســنة الثالثــة من زواجه). إنه محرر كبير الشــأن وصغير الســن في شركة محترمة في نيويورك، لكنه في الحقيقة يفضل العمل اليدوي.

في استهلال القصة، تصل مخطوطة إحدى الروايات إلى مكتب بويــن. عمل قصير يحمل عنوانا مثيــرا «ليلة التنبؤ»، من المفترض أن كاتبته هي ســيلفيا ماكســويل، وهي روائية مشهورة في سنوات الثلاثينيــات والأربعينيــات، توفيت منذ قرابة عقديــن. وطبقا لما قاله الوكيل الذي أرســل العمل، فإن هــذا الكتاب المفقود قد أُلفَ في عام ١٩٢٧، في الســنة التي فرّت فيها ماكســويل إلى فرنســا مــع رجل إنجليزي يدعى جيريمي ســكوت، فنــان مغمور في تلك الفتــرة، عمل في مــا بعد مصمما للمشــاهد والمناظر في الأفلام

البريطانية والأمريكية. استمرت العلاقة بينهما لمدة ثمانية عشر شهرا، وعندما انتهت العلاقة كان على سيلفيا ماكسويل أن تعود إلى نيويورك، تاركة الرواية مع سكوت. الذي ظل محتفظا بها طوال حياته، وعندما توفي عن سبعة وثمانين عاما، قبل عدة أشهر، كانت هناك فقرة في وصيته ينص فيها على توريث المخطوطة إلى حفيدة ماكسويل، وهي امرأة أمريكية شابة تدعى روزا ليتمان. عن طريقها وصلت المخطوطة إلى يد الوكيل، مصحوبة بتعليمات محددة وصريحة بأن تُرسل إلى نيك بوين أولا، قبل أن تتاح لأي شخص آخر فرصة قراءتها.

تصل الرزمة إلى مكتب نيك بعد ظهر يوم الجمعة، بعد دقائق من مغادرته المكتب لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. وعندما يعود في صباح الإثنين، يكون الكتاب موضوعا على مكتبه، كان نيك معجبا بروايات سيلفيا ماكسويل الأخرى، «ولذلك يصبح مشتاقا للبدء في قراءة هذه الرواية. لكن بعد لحظة من فتحه الصفحة الأولى، يدق جرس الهاتف. يخبره مساعده بأن روزا ليتمان في قاعة الاستقبال، وأنها تسأل إن كان بإمكانها أن تراه لدقائق قليلة. أدخلوها إلى هنا. قال نيك، وقبل أن يتسنى له الانتهاء من قراءة الجملة الافتتاحية من الكتاب (كانت الحرب قد انتهت تقريبا، لكننا لم نعرف هذا. كنا أصغر جدا من أن نعرف أي شيء، ولأن الحرب كانت في كل مكان، لم نتمكن من ...)، تدخل حفيدة سيلفيا ماكسويل إلى مكتبه. وهي ترتدي ملابس غاية في البساطة، ولا تضع مكياجا تقريبا، وشعرها مصفف بطريقة كلاسيكية يبدو فيها قصيرا، ومع ذلك يظهر وجهها جميلا جدا، يجد نيك، أنها صغيرة بطريقة تؤلمه وفاتنة دون حراسة (يراها فجأة) بارقة من أمل وطاقة بشرية منطلقة من عقالها،

لدرجة أنه يتوقف عن التنفس لبرهة. كان هذا هو ما حدث لي على وجه التحديد عندما رأيت جريس لأول مرة - تلك الصدمة الموجهة إلى المخ التي تركتني مشلولا، غير قادر على التقاط الشهيق التالي. لذلك لم يكن من الصعب عليّ أن أنقل تلك المشـــاعر إلى نيك بوين وأن أتصورها في ســـياق تلك القصـــة، الأخرى. ولجعل الأمور أكثر سهولة، قررت أن أعطي جسم جريس لروزا ليتمان - إلى درجة حتى الســـمات الصغيرة المميّزة لها، بما في ذلك الندبة التي تركتها فترة الطفولة في عظمة ركبتها، وتلك الســـنّة الأمامية اليسرى المعقوفة قليلا، وعلامة الحسن التي على الجانب الأيمن لفمها[6].

لكن بالنســـبة إلى بوين، جعلته مخالفا لي بشـــكل واضح، عكس شخصيتي. أنا أمتاز بالطول، ولذلك جعلته قصيرا. لديّ شعر مائل إلى الحمرة، ولذا جعلت شـــعره بنيا داكنا. أرتدي حذاء مقاس أحد عشر، ولذلك جعلت مقاس حذائه ثمانية ونصف. لم أجعل له هيئة على هيئة شخص أعرفه (ليس بشكل متعمد، على كل حال)، بمجرد انتهائي من تجميعه في عقلي، سوف يصبح حيا بشكل مذهل بالنسبة إلي - كما لو كان بإمكاني أن أراه تقريبا، تقريبا كما لو أنه قد دخل الحجرة ليصبح واقفا بجانبي، ينظر إلى المكتب ويده على كتفي يقرأ الكلمات التي كنت أكتبها... يشاهدني وأن آتي به إلى الحياة وأنفخ فيه الروح بقلمي.

أخيرا يشير نيك إلى روزا كي تجلس، فتجلس على أحد الكراسي المقابلة للمكتب. ويتبع ذلك تردد طويل. ويأخذ نيك في التنفس مرة ثانية، لكنه لا يقوى على التفكير في أي شـــيء ليقوله. تكســـر روزا حاجـــز الصمت بســـؤاله إن كان قد وجد الوقـــت لإنهاء الكتاب في أثناء عطلة نهاية الأســـبوع. كلا، يجيـــب، لـــقد وصـــل إليّ متـــأخرا

جدا. لم أحصل عليه حتى صباح هذا اليوم. تبدي روزا ارتياحا لهذا الأمر. هذا جيد، تقول. كانت هناك إشاعة عن أن الرواية ما هي إلاّ خدعة، وأن جدتي لم تكتبها. لم أكن واثقة بنفسي، ولذلك استأجرت خبيرا في الخطوط لفحص المخطوطة الأصلية. وقد وصلني تقريره يوم السبت، ويقول فيه إن المخطوطة أصلية. وبالضبط يمكنك أن تتأكد أن ليلة التنبؤ كتبت بقلم سيلفيا ماكسويل.

يبدو كما لو أنك قد أحببتِ الكتاب، يقول نيك. وترد روزا، بالإيجاب. وتقول إنها متأثرة جدا بالكتاب. ويواصل نيك، إذا كان الكتاب قد كُتِب في عام ١٩٢٧، فقد تمت كتابته إذن بعد «المنزل المحترق»، و«الخلاص»، لكن قبل كتابة «منظر طبيعي مع الأشجار»، مما يعني أنه كان سيصبح روايتها الثالثة، ولم تكن هي قد تجاوزت الثلاثين بعد في ذلك الوقت، أليس كذلك؟

في الثامنة والعشرين، تقول روزا. في نفس عمري الآن.

وتستمر المناقشة لخمس عشرة أو عشرين دقيقة أخرى. ولدى نيك كثير من الأشياء ليفعلها في ذلك الصباح، لكنه لا يقوى على أن يجبر نفسه على أن يطلب منها أن تغادر. هناك شيء ما مباشر وصريح في ما يتعلق بهذه الفتاة، شديدة الشفافية، التي تفتقر إلى خداع النفس إلى أبعد حد، لدرجة أنه يرغب في الاستمرار في النظر إليها لفترة أطول قليلا، والاستغراق في التأثير الكلي لوجودها - فهو جميل، يسخر نيك، جميل بالتحديد لأنها غير مدركة له، ولأنها تجهل تماما هذا التأثير الذي تمارسه على الآخرين. لا يقال شيء آخر ذو أهمية. فهو يعلم أن روزا هي ابنة أكبر أبناء سيلفيا ماكسويل (وكانت ثمرة الزواج الثاني لسيلفيا من المخرج المسرحي ستيوارت ليتمان) وأنها ولدت ونشأت في شيكاغو. عندما يسألها نيك عن

ســبب حرصها واهتمامها الشديد بأن يكون هو أول من يرسل إليه الكتاب، تقول إنها لا تعرف شــيئا عن شــؤون النشر، لكنها عندما اكتشــفت أن نيك هو المحرر الخاص بـ «أليس لازار»، وهي الروائية المفضلــة لديها من بــين الروائيات اللاتي مازلــن على قيد الحياة، قررت أن يكون هو الرجل الذي يســتحق كتاب جدتها. يبتسم نيك. سوف تسر أليس، يقول، وبعد عدة دقائق، عندما تنهض روزا أخيرا وتتهيأ للانصراف، يسحب نيك عدة كتب من أحد الأرفف في مكتبه ويعطيهــا كومة من الطبعات الأولى الخاصــة بأعمال أليس لازار. آمل ألا تصيبك ليلة التنبؤ بخيبة الأمل، تقول روزا. ولماذا ســأصاب بخيبة الأمل؟ يسأل نيك. كانت سيلفيا ماكسويل روائية من الدرجة الأولــى. في الواقع، هذا الكتاب مختلــف عن الكتب الأخرى، تقول روزا. بأي معنى؟ يســأل نيك. أنا لا أعــرف، تقول روزا، من جميع النواحي. سوف تكتشف هذا بنفسك عندما تقرأه.

بالطبع كانت هناك قرارات أخرى يجب اتخاذها، ولا تزال مجموعة كبيرة من التفاصيــل ذات مغزى مهم يجب أن تثار ويتم العمل على إدخالها إلى المشهد، لأجل الاكتمال والمزيد من المصداقية، والتوازن القصصــي أيضا. منذ متــى كانت روزا تعيش فــي نيويورك؟ على ســبيل المثال. ما الذي تفعله هناك؟ هل تمــارس عملا ما، إذا كان الأمر كذلك، هل هذا العمل مهم بالنسبة إليها أم هو ببساطة وسيلة للحصــول على مال يكفي لتغطية نفقــات الإيجار؟ ماذا عن حياتها العاطفية؟ هل هي عزباء أم متزوجة، مرتبطة أم لا، هل تســعى إلى تصيد فريســة أم تنتظر في صبر شــخصا مناســبا للتقدم؟ كانت رغبتي الأولى أن أجعلها مصورة فوتوغرافية، أو ربما مساعدة لمخرج ســينمائي، عمل ذو علاقة بالصور، وليس بالكلمات، بالضبط مثلما

كانت تعمل جريس. بالتأكيد عزباء، وبالتأكيد لم يسبق لها الزواج أبدا، لكن ربما على علاقة بشخص ما، أو، حتى الأفضل، ربما في الوقت الحالي منفصلة بعد علاقة عاطفية طويلة مؤلمة ومُعذّبة. لم أرغب في التوقف عند أيّ من هذه الأسئلة للتمعن فيها في الوقت الراهن، ولا أيّ أسئلة مشابهة تتعلق بزوجة نيك (المهنة، الخلفية الاجتماعية، ذوقها في ما يتعلق بالموسيقي، والكتب... إلخ) أنا حتى الآن لم أكتب القصة بعد، كنت أرسم العمل بضربات تحضيرية فقط، ولم يكن من الممكن أن أتحمل تعطيل نفسي في تفاصيل ذات اعتبارات ثانوية من الدرجة الثانية. فمن الممكن أن يتسبب ذلك في إجباري على التوقف والتفكير، وما كنت مهتما به في تلك اللحظة فقط هو التقدم بسرعة، واستكشاف إلى أين ستأخذني التخيلات والتصورات التي في ذهني. لم يكن الأمر متعلقا بالتحكم والسيطرة، لم يكن حتى متعلقا باتخاذ خيارات. كان عملي في ذلك الصباح - ببساطة - أن أتتبع ما كان يحدث داخلي، ولكي أتمكن من القيام بهذا كان ينبغي عليّ أن أبقي القلم يتحرك بأسرع ما يمكنني.

نيك ليس وغدا مخادعا أو مطاردا للنساء. لم يمارس عادة الغش مع زوجته في أثناء زواجهما، وهو غير مدرك في ذلك الوقت بأن لديه أي خطط بشأن حفيدة سيلفيا ماكسويل، لكن ليس هناك شك في أنه يشعر بالانجذاب إليها، وبأنه مأخوذ ببريق وبساطة سلوكها، وفي اللحظة التي تنهض فيها وتغادر المكتب، تخطر في ذهنه فكرة ترد من تلقاء نفسها، شيء مجازي يشبه قصف الرعد الذي للشهوة، أنه من المحتمل أن يفعل أي شيء ليقترب من هذه المرأة، حتى إذا وصل الأمر إلى حد التضحية بزواجه. مثل هذه الأفكار ترد إلى الرجال عشرين مرة في اليوم، ولأن المرء يجرب فقط الوميض

اللحظـــي للإثارة، فهذا لا يعنـــي أن لديه أي نية في إطاعة الرغبة، وعلى الرغم من أنه لا تمر سوى فترة قصيرة على تدوير نيك للفكرة في ذهنه إلاّ ويشعر بالاشمئزاز والقرف من نفسه، مع إحساس بالغ بالذنب. ولتهدئة نفســـه وتسكين ضميره، يتصل بزوجته في مكتبها (شركة استشارات قانونية، شركة سمسرة، مستشفى - سيتم تحديد هذا في ما بعد) ويخبرها بأنه سيقوم بالحجز في مطعمهما المفضل في وسط المدينة ويصطحبها للعشاء في تلك الليلة.

يلتقيان هناك في تمام الساعة الثامنة. تسير الأمور بلطف تماما في أثناء تناول المشروبات وأصناف المشهيات، بل ويبدآن في مناقشة بعض المســـائل المنزلية الصغيرة التافهة (كرســـي مكسور، الوصول الوشيك إلى أحد أقارب إيفا إلى نيويورك، شيء لا أهمية له)، وبعد وقـــت قصير ينتهيـــان إلى الجدال الحاد. ليس من النوع الشـــديد، ربمـــا، لكن فيه ما يكفي من الانفعال للوصول بصوتيهما إلى تدمير حالتهما المزاجية وتعكير الصفو. يعتـــذر نيك، وتقبل إيفا اعتذاره، تعتذر إيفا ويقبل نيك الاعتـــذار، لكن المحادثة تصبح فاترة وباردة، وليس هناك سبيل لاستعادة الهارمونية التي كانت بينهما منذ دقائق قليلة. بمرور الوقت يُوضع الطبق الرئيســـي علـــى المائدة، ويجلس الاثنان هناك في صمت تام. المطعم مكتظ، يعج بالنشاط والحركة، وعندما يدير نيـــك نظراته في ما حوله في الحجرة من دون انتباه، يلمح روزا ليتمان، جالســـة إلى مائدة في أحد الأركان مع خمسة أو ســـتة أشخاص آخرين. تلاحظ إيفا أنه ينظر بعيدا في ذلك الاتجاه وتســـأله إن كان قد رأى شـــخصا ما يعرفه. تلك الفتاة، يقول نيك، كانـــت في مكتبي صباح اليوم. ويمضي في إخبارها بشـــيء ما عن روزا، يأتي على ذكر الرواية التي كتبتها جدتها، سيلفيا ماكسويل، ثم

يحاول تغيير الموضوع، لكن إيفا تدير رأسها في ذلك الحين وتنظر إلى الطرف الآخر من الحجرة حيث مائدة روزا. إنها جميلة جدا، يقول نيك، ألا تعتقدين هذا؟ ليست سيئة، تجيب إيفا. لكن شعرها غريب، يا نيكي، وملابسها فظيعة فعلا. لا يهم، يقول نيك. إنها حية، أكثر إفعاما بالحيوية من أي شخص التقيت به خلال أشهر. إنها من نوعية النساء اللائي بإمكانهن أن يقلبن حياة الرجل رأسا على عقب.

إنه لشيء فظيع بالنسبة إلى رجل أن يقول هذا إلى زوجته، خاصة إلى زوجة تشعر بأن زوجها قد بدأ ينحرف بعيدا عنها. حسنا، تقول إيفا بشكل دفاعي، من السيئ جدا أنك تلازمني. هل تريدني أن أذهب إليها وأطلب منها الانضمام إلينا؟ أنا لم أر رجلا من قبل وقد انقلب رأسا على عقب. ربما سأتعلم شيئا ما.

مدركا الأنانية القاسية لما قاله للتو، يحاول نيك إزالة الضرر. لم أكن أتحدث عن نفسي، يرد. كنت أقصد فقط الرجل - أي رجل، الرجل بصفة عامة. بعد العشاء، يعود نيك وإيفا إلى مسكنهما في «ويست فيليدج». إنه منزل أنيق من شقتين في موقع محترم في «بارو ستريت»، إنه في الحقيقة مسكن جون تروس، الذي خصصته للقصة الفلتكرافتية كانحناءة عرفان صامتة إلى الرجل الذي اقترح عليّ الفكرة. لدى نيك خطاب ليكتبه وبعض الفواتير ليدفعها، وبينما كانت إيفا تتأهب للذهاب إلى السرير، يجلس هو إلى المائدة في حجرة الطعام لينجز هاتين المهمتين الصغيرتين. يستغرق الأمر منه ثلاثة أرباع الساعة، لكن على الرغم من أن الوقت قد تأخر الآن، لكنه يشعر بالأرق، غير مستعد بعد للنوم. يطل برأسه داخل حجرة النوم، ليرى إن كانت إيفا لا تزال مستيقظة، ويخبرها بأنه

سيخرج لإلقاء الخطابات. فقط حتى صندوق البريد عند الناصية، يقول. سأعود خلال خمس دقائق.

تلك هي لحظة الحدث. يلتقط بوين حقيبة أوراقه (التي لا تزال تضم ليلة التنبؤ بها)، يدس الرسائل فيها، ويخرج في مهمته القصيرة. كان الوقت بداية الربيع، والريح الشديدة تهب خلال المدينة، وتهز لافتات الشوارع الإرشادية، وتثير قطع الورق وتحمل أجزاء مما تحطمه. لا يزال يطيل التفكير في لقائه المزعج مع روزا ذلك الصباح، ومع ذلك يحاول فهم شيء عقلاني من الحادث المزعج بشكل مضاعف لرؤيته لها مرة ثانية تلك الليلة. يسير نيك إلى الناصية وسط الضباب، مركزا انتباهه بصعوبة على المكان الموجود فيه. يخرج الرسائل من حقيبة أوراقه ويدسها في صندوق البريد. شيء ما بداخله قد تحطم، يقول لنفسه، وللمرة الأولى منذ أن بدأت متاعبه مع إيفا، يرغب في الاعتراف بحقيقة وضعه: بأن زواجه قد فشل، بأن حياته قد وصلت إلى نهاية طريق مسدود. وبدلا من أن يستدير إلى الخلف ويتجه مباشرة إلى المنزل، يقرر مواصلة السير لدقائق قليلة إضافية. يواصل سيره إلى نهاية الشارع، ينعطف عند الناصية، يمضي إلى نهاية شارع آخر، ثم ينعطف مرة ثانية عند ناصية أخرى. أحد عشر طابقا فوق رأسه، رأس مزراب صغير من الحجر الجيري على هيئة إنسان أو حيوان مثبتة في واجهة مبنى سكني تأخذ في الاهتزاز والانفصال عن الواجهة بينما تواصل الريح مهاجمة الشارع. يخطو نيك خطوة أخرى، ثم خطوة أخرى، وفي تلك اللحظة تنحل رأس المزراب في النهاية عن موضعها، يسير نيك مباشرة باتجاه هذا الشيء الذي يسقط. وهكذا، في الشكل المعدل قليلا، تبدأ ملحمة أو محنة فلتكرافت. الاندفاع في سرعة وقوة في

نطـــاق بوصات من رأس نيك، يخدش المزراب ذراعه اليمنى، ويطيح بحقيبة أوراقه من يده، ثم يتحطم إلى ألف قطعة على الرصيف.

يطيـــح الارتطام بنيك إلى الأرض. يشـــعر بالذهـــول، والارتباك والخوف. في البداية، لم تكن لديه فكرة عما حدث له. فزع للحظة عندما لمس الحجر كمه، وصدم للحظة عند سقوط حقيبة أوراقه من يـــده، ثم للضوضاء الناجمة عن تحطم رأس المزراب على الرصيف. انقضت عدة لحظات قبل أن يتمكن من إعادة بناء تسلسل الأحداث المتتابعـــة، وعندما يتمكن من هـــذا، ينهض من فوق الرصيف ويفهم أنه مفروض فيه أنه قد مات. كان الحجر يقصد أن يقتله. لم يغادر شـــقته الليلة لسـبب آخر إلا ليصل إلى ذلك الحجر، وإذا أفلح في النجاة بحياتـــه، فمن الممكن أن يعني ذلك فقط أن حياة جديدة قد منحـــت له وأن حياته القديمة قد انتهـــت، أن كل لحظة من ماضيه تنتمي الآن إلى شخص آخر.

تنعطف سـيارة أجرة عند الناصية وتخترق الشارع في اتجاهه. يرفع نيك يده. تتوقف السيارة، ويركب نيك. إلى أين؟ يسأل السائق. ليست لدى نيك أي فكرة، ولذلك ينطق بأول كلمة تخطر في رأسه. المطار، يقول. أي مطار؟ يسأل السائق. كنيدي، لاغوارديا، أم نيوآرك؟ لاغوارديا، يقول نيك، وينطلقان بعيدا إلى لاغوارديا. عندما يصلان إلى هناك، يتقدم نيك صوب كاونتر حجز التذاكر ويسأل متى تغادر الرحلة التالية. الرحلة المتجهة إلى أين؟ يسأل بائع التذاكر. إلى أي مكان، يقول نيك. يراجع البائع جدول المواعيد. كانســـاس سـيتي، يقول. هناك رحلة يبدأ الصعود إلى متن الطائرة خلال عشر دقائق. رائـــع، يقول نيك، ويناول بائع التذاكـــر بطاقة الائتمان الخاصة به، أعطنـــي تذكرة. ذهاب فقط أم ذهاب وعودة؟ يســـأل البائع. ذهاب

فقط، يقول نيك، وبعد نصف ساعة يكون جالسا على ظهر الطائرة، يطير ليلا نحو كانساس سيتي.

كان ذلــك حيث تركته في ذلك الصبــاح، معلقا في الجو، يطير بجنون نحو مســتقبل غامض يصعب التكهن به. لم أكن متأكدا من الوقت الذي اســتغرقته في كتابة ذلك، لكن كان بإمكاني أن أشــعر بــأن الوقود قد بدأ ينفــد مني، لذلك وضعت قلمــي ونهضت عن الكرســي. بشكل عام، لقد انتهيت من «تسويد» ثماني صفحات من الدفتــر الأزرق. وهذا يعني على الأقل ســاعتين أو ثلاثا من العمل. لكن الوقت مر بسرعة جدا، شعرت كما لو أنني كنت في ذلك المكان لدقائق قليلة فقط. عندما تركت الحجرة، اتجهت إلى نهاية الصالة ودخلت إلى المطبخ. على نحو غير متوقع، كانت جريس واقفة بجوار الموقد، تعد برّاد الشاي.

«لم أعرف أنك كنت في البيت»، قالت.

«عدت منذ فترة»، قلت مفسرا. «كنت جالسا في حجرتي».

بدت جريس مندهشة. «ألم تسمعني وأنا أطرق الباب؟».

«كلا، أنا آسف. لابد أنني كنت مستغرقًا في ما كنت أفعله».

«عندما لم تجبني، فتحت الباب وألقيت نظرة سريعة إلى الداخل، لكنك لم تكن موجودا هناك».

«بالطبع كنت موجودا. كنت جالسا إلى مكتبي».

«حسنا، أنا لم أرك. ربما كنت في مكان آخر. ربما في الحمّام».

«لا أتذكر أنني ذهبت إلى الحمّام. حسب علمي، أنني كنت جالسا إلى مكتبي طوال الوقت».

هــزّت جريس كتفيهــا. «كما تحب، يا ســدني»، أجابت. لم تكن جريــس إلى حد ما في حالة مزاجية مســتعدة لبدء شــجار. كانت

امــرأة ذكية، منحتني ابتســامة رائعة من ابتســاماتها الغامضة ثم استدارت إلى الموقد للانتهاء من إعداد الشاي.

توقف المطر في وقت ما من فترة وسط ما بعد الظهر، وبعد عدة ســاعات أقلتنا ســيارة زرقاء ماركة فورد بالية، تابعة لأحد مكاتب خدمة تأجير الســيارات عبر جسر بروكلين لعشائنا نصف الشهري مع جون تــروس. منذ عودتي من المستشــفى، حرصنا ثلاثتنا على الالتقاء معا كل أســبوعين في مساء الســبت، وتناول الوجبات على التعاقب في شــقتنا في بروكلين (حيث نقوم بالطهو لأجل جون) مع الاســتعانة بالوجبات المتميزة من « تشــيز بيير »، وهو مطعم جديد ومرتفع الأســعار في «ويســت فيليج» (وكان جون يصر بشكل دائم على دفع الحساب). كان البرنامج الأصلي في تلك الليلة هو الالتقاء في بار تشــيز بيير في السابعة والنصف، لكن جون اتصل في وقت ســابق من الأسبوع ليقول إن شيئا ما سيئا قد حدث لساقه، لدرجة أنه مضطر إلى إلغاء الموعد. واتضح أن هذا الشيء كان نتيجة لنوبة التهــاب وريدي (التهاب في الوريد نــاتج عن جلطة في الدم)، لكنه اتصل بعد ذلك مرة ثانية بعد ظهر يوم الجمعة ليخبرنا بأنه يشــعر بأنه قد تحســن قليلا. ليس من المفترض أن يسير، قال، لكن إذا لم يكن لدينا مانع في الحضور إلى شــقته وطلب طعام صيني، فربما يكون بإمكاننا تناول عشــائنا على أي حال. «أكره أن أفتقد رؤيتكما أنت وجراســي»، قال. «وبما أنني ســيتعين عليّ تناول شيء ما على أي حال، فلماذا لا نقوم به هنا معا؟ ومادمت محافظا على ســاقي مرفوعة، فإنها لن تؤلمني كثيرا جدا بعد ذلك»(٧).

لقد اقتنصت شقة جون لقصتي في الدفتر الأزرق، وعندما وصلنا إلى «بارو ستريت» وفتح لنا الباب لندخل، انتابني نوع من الاستغراب،

لم يكن شعورا كليا بعدم الارتياح لأنني كنت أدخل إلى مكان متخيل، وأمشي في حجرة لم تكن موجودة هناك. لقد زرت شقة تروس مرات لا تحصى من قبل، لكن بعد أن قضيت عدة ساعات أفكر فيها في شقتي في بروكلين، وأسكنها بشخصيات قصتي المختلقة، فقد بدا لي أنها تنتمي إلى عالم الخيال مثلما تنتمي إلى عالم الأشياء الحقيقية والكائنات ذات اللحم والدم. وعلى نحو غير متوقع لم يبارحني هذا الشعور. وعلى الرغم من كل شيء، فقد كان يزداد قوة كلما تقدم الليل، وعندما وصل الطعام الصيني في الثامنة والنصف، كنت قد بدأت بالفعل في الاعتياد على ما سأطلق عليه (نظرا إلى عدم توافر مصطلح مناسب أو تعبير مناسب وأفضل) حالة من الوعي المزدوج. كنت جزءا من كليهما، مما كان يحدث من حولي ومن عزلتي عنه، كنت أنجرف وأنقاد بسهولة وحرية في عقلي لأتخيل نفسي جالسا إلى مكتبي في بروكلين، أكتب عن هذا المكان في الدفتر الأزرق، وجالسا أيضا على كرسي في الطابق الأول بمنزل من طابقين في مانهاتن، مثبت بإحكام في جسدي، أستمع إلى ما كان جون وجريس يقولانه، أحدهما إلى الآخر، بل وأضيف بعض التعليقات من جانبي. إنه ليس من العادي بالنسبة إلى شخص أن يكون باله مشغولا جدا بحيث يبدو غائبا - لكن النقطة الأساسية هي أنني لم أكن غائبا. كنت حاضرا هناك، مشاركا بشكل كلي في ما كان يحدث، وفي الوقت نفسه لم أكن هناك، لأن المكان هناك لم يكن هناك بصورة حقيقية جديرة بالتصديق بعد ذلك. كان مكانا زائفا وُجد في رأسي، وهناك كنت أنا موجودا أيضا. في كلا المكانين في الوقت نفسه. في الشقة وفي القصة. في الشقة التي في القصة التي كنت لا أزال أكتبها في رأسي.

بدا جون في حالة من الألم الشديد أكثر مما أراد أن يعترف به. كان مستندا على عكازه عندما فتح الباب، وعندما شاهدته وهو يخطو ببطء شديد صاعدا الدرج ويعرج وهو يعود إلى مكانه على الأريكة، وهي شيء متدرج الانخفاض محاط بكومة من الوسائد والبطاطين ليسند ساقه عاليا، كان يجفل من الألم بشكل ملحوظ، ويعاني في كل خطوة يخطوها. لكن جون لم يكن على استعداد لأن يصنع من الأمر حدثا كبيرا. كان قد حارب في المحيط الهادئ وهو جندي في الثامنة عشرة من عمره في نهاية الحرب العالمية الثانية، وهو ينتمي إلى ذلك الجيل من الرجال الذين يعتبرونها مسألة شرف ألاّ يشعرون بالأسف على أنفسهم، والذين ينقلبون إلى حالة من الترفع والأنفة إذا ما حاول أي شخص الاهتمام والقلق عليهم أكثر مما ينبغي. بدلا من إطلاق عدة نكات على ريتشارد نيكسون، الذي أعطى لكلمة الالتهاب الوريدي رنينا كوميديا بعينه في فترة رئاسته، كان جون يرفض بعناد التحدث عن ضعفه. لكن كلا، لم يكن هذا صحيحا بصفة مطلقة، إذ بعدما دخلنا إلى الحجرة العلوية، سمح لجريس بأن تساعده لكي يجلس على الأريكة وأن يعيد ترتيب أوضاع الوسائد والبطاطين، معتذرا عما أطلق عليه «ضعف الشيخوخة الغبي». ثم، بمجرد أن استقر في مكانه، التفت إليّ وقال، «نحن صنوان رائعان، ألسنا كذلك، يا سد؟ أنت برعشاتك ونزيف أنفك، والآن أنا بهذه الساق. نحن الأعرجان اللعينان في هذا الكون».

لم يكن تروس يولي اهتماما كبيرا لمظهره، لكنه بدا لي تلك الليلة بالذات غير مهندم بشكل واضح، بسبب المساحات المجعدة في بنطلونه الجينز الأزرق وسترته القطنية (لن أتحدث عن المسحة

الضاربـــة إلى اللون الرمادي التي انتشـــرت على جوربه الأبيض من أسفل) استطعت أن أخمن أنه كان مرتديا ذلك الزي لعدة أيام على التوالي. لم يكن مثيرا للدهشة أن شعره كان «مهوشا»، وأن الجدائل الخلفية قد تيبســـت وهبطت أو تســـطحت من جرّاء الاستلقاء على الأريكة لســـاعات طويلة في الأسبوع الماضي. الحقيقة أن جون كان منهـــكا ومهزولا ومتقدمـــا في العمر، إلى حد أبعـــد بكثير مما بدا لي في أي وقت ســـابق، لكن عندما يكون الإنســـان في ألم، ويسبب لـــه ذلك الألم كثيرا من القلـــق والأرق، فمن المتوقع أن يصعب عليه الظهور في أفضـــل حالاته. كنت غير مذعور لما رأيته، لكن جريس، التي كانت في العادة أهدأ شـــخص عرفته، بدت مرتبكة ومنزعجة بســـبب حالة جون. قبل أن يتســـنى لنا النزول للقيام بطلب الطعام، أمطرته بوابل من الأســـئلة لمدة عشـــر دقائق متواصلة عن الأطباء، والأدوية، وتشـــخيصات المرض والتكهنات المتعلقـــة به، ثم، بمجرد أن أكـــد لها جـــون أنه لن يمـــوت، تحولت إلى مجموعـــة كبيرة من الاهتمامات العملية: تســـوق البقالة، الطهو، التخلص من القمامة، الغســـيل، الروتين اليومي. كانت هذه المسائل جميعها تحت سيطرة مـــدام دوماس، قال جون، يقصد امرأة مـــن المارتينيك كانت تنظف شـــقته خلال الســـنتين الماضيتين، وعندما كانت تغيب، كانت ابنتها تأتي بدلا منها. «تبلغ من العمر عشرين سنة»، أضاف، «وذكية جدا. وبالمناســـبة أيضـــا كان من المبهج النظر إليها. إنها لا تمشـــي كثيرا بشـــكل زاحف هنا وهناك في الحجرة، كما لو أن قدميها لا تلمسان الأرضية. إنها تعطيني فرصة لاستخدام لغتي الفرنسية».

بعيدا عن مســـألة ساق جون، فقد بدا سعيدا جدا لوجودنا معه، وتكلم أكثر مما يتكلم في المعتاد في مثل هذه المناسبات، وثرثر بشكل

منتظم طيلة المساء تقريبا. ليس بوسعي التأكد من هذا، لكنني أعتقد أن الألم هو الذي حررّ لسانه وجعله يستمر في انطلاقه. لابد أن الكلمات قد زادت من المساهمة في إلهائه عن الانزعاج بمواعيد جرعات أدوية ساقه، نوع محموم من التحرر من كابوس المرض. هذا إلى جانب كميات الكحول الكبيرة التي كان يتناولها أيضا. عند نزع سدادة كل زجاجة جديدة من الواين، كان جون أول من يقدم كأسه، ومن الزجاجات الثلاث التي شربناها في تلك الليلة كان نصفها تقريبا من نصيبه هو. ذلك يساوي زجاجة ونصف من الواين، بالإضافة إلى كأسين خالصتين من الويسكي الاسكوتش شربهما حتى الثمالة. رأيته يشرب مثل هذه الكميات من قبل عدة مرات، لكن بصرف النظر عما كان عليه جون من طلاقة فهو لا يبدو سكرانا أبدا. لا يوجد تلعثم في الكلام، أو عينان خاليتان من التعبير. كان شخصا ذا بنية ضخمة - ست أقدام وبوصتين، ويبلغ من الوزن أقل من مائتي رطل - وبإمكانه أن يتحمل ذلك الشرب.

«قبل حوالي أسبوعين من بداية هذه الإصابة في ساقي»، قال، «تلقيت مكالمة هاتفية من ريتشارد شقيق تينا[8]، لم أكن قد سمعت صوته منذ فترة طويلة. منذ يوم الجنازة، في الحقيقة، وهو ما يعني أننا لم نتحدث منذ ثمانية أعوام تقريبا - أكثر من ثمانية أعوام. لم أكن مرتبطا بدرجة كبيرة بعائلة تينا عندما كنا متزوجين، ونظرا إلى أنها لم تعد موجودة الآن، لم أزعج نفسي بالإبقاء على الاتصال بهم. ولا هم أبقوا على العلاقة معي، الأمر الذي لم أعطه أيّ اهتمام بصفة خاصة. الإخوة أوسترو جميعا، بمحل الأثاث الكريه الخاص بهم في شارع «سبرينجفيلد» وزوجاتهم المملات وأطفالهم الأقل من العاديين. كان لتينا حوالي ثمانية أو تسعة من أبناء العم المباشرين،

لكنهـا كانـت الوحيدة التي لهـا روح مميزة، وكانـت لديها عزيمة للهروب من ذلك العالم الصغير في نيو جيرسـي ومحاولة أن تصنع من نفسـها شـيئا ما، لذلك فوجئت عندما اتصل بي ريتشارد منذ بضعة أيام. إنه يعيش الآن في فلوريدا، قال، وقد جاء إلى نيويورك في رحلة عمل. هل سـأكون مهتما بالخروج معه لتناول العشاء؟ في مكان ما لطيف، فالدور عليه في دفع الحساب، كما قال. ونظرا إلى أننـي لم تكن لديّ أي خطط أخرى، فقـد قبلت. ولا أعرف لماذا قبلت، لكن لم يكن هناك أي سـبب قهري أعتذر بسببه، وعليه رتبنا مقابلة في الليلة التالية في تمام الثامنة.

«من المهم أن تحيط بشيء في ما يتعلق بريتشارد. فقد كان دائما في وزن الريشة في تأثيره عندي، كالريشة، شخص بلا جوهر. ولد بعد سنة من ولادة تينا، أي أنه في الثالثة والأربعين الآن، وباستثناء لحظات مجد قليلة كلاعب كرة سلة في المدرسة الثانوية، فقد تعثر طـوال حياته، طـرد من كليتين أو ثلاث، انتقـل من عمل كئيب إلى آخـر، لم يتزوج، لم ينضج بالفعـل أبدا. طبعه حلو، على ما أعتقد، لكنـه ضحل وغير موهوب، وبه نوع مـن البلادة المصحوبة بالثرثرة التـي دائما ما كانت تضغط على أعصابي. الشـيء الوحيد تقريبا الـذي أحببتـه فيه - في أي وقـت - كان ولاءه لتينا. أحبها في كل شيء كثيرا بقدر ما كنت أحبها - ذلك أمر يقيني، وحقيقة لا جدال فيها - وأنا لن أنكر أبدا أنه كان أخا جيدا لها، أخا مثاليا. كنتِ أنتِ في الجنازة يا جراسي. تتذكرين ما حدث. حضر المئات من الناس، وكان الجميـع في الكنيسـة الصغيرة يبكون، ويتأوهـون وينتحبون بشـكل مرعب. كان فيضا من الحزن الجماعي، معاناة على مستوى لم أشـهده من قبل أبدا. لكن من بين جميع المتفجعين في الحجرة،

كان ريتشارد هو الوحيد الذي كان يعاني أكثر، كنا جالسين (هو وأنا) معا في المعقد الأمامي الطويل في الكنيسة. عندما انتهى القداس، فقد الوعي تقريبا عندما حاول أن ينهض على قدميه. لقد استعنت بكامل قوتي لأرفعه. كان يجب عليّ أن أطوّق جسمه بذراعيّ بالمعنى الحرفي للكلمة لأمنعه من السقوط على الأرضية.

«لكن ذلك كان منذ سنوات. تحملنا تلك الصدمة معا، ثم بعد ذلك فقــدت كل أثر له. عندما وافقت الليلة الماضية على تناول العشــاء معــه، كنت قد توقعت أن أمضي وقتا مملا طيلة هذا العشــاء، وأن أخوض بصعوبة خلال ساعتين في محادثة خرقاء ثم أندفع بسرعة نحو الباب، ثم إلى البيت رأســا. لكنني كنت مخطئا. أنا سعيد جدا بــأن أقر بأنني كنت مخطئا. يثيرني دائما اكتشــافي نماذج جديدة مــن تحيّزي وغبائي، وأن أدرك أنني لا أعرف نصف ما كنت أعتقد أنني أعرفه.

«بدأ اللقاء بمتعة رؤية وجهه. لقد نســيت كم كان شــديد الشبه بأخته، ومقدار الســمات التي كانت مشــتركة بينهما. وضع ونظرة العينين، الذقن المســتدير، الفــم الرائع، فنطرة الأنــف، كانت تينا موجودة في جســم رجل - أو القليل من إشــراقاتها على أي حال - الذي كان ينطلق إلى الخارج في لحظات عشوائية. أربكني أن أكون معها مرة ثانية بهذه الطريقة، أن أشــعر بوجودها ثانية، أن أشــعر بأن جزءا منها قد عاش في أخيها. استدار ريتشارد مرتين بطريقة معينة، وكان يشــير بطريقة معينة، ويقوم بعمل شــيء معين بعينيه، كنــت قد تأثرت جدا لدرجة أنني أردت أن أميل عبر المائدة وأقبّله. قبلة قوية في شــفتيه - تقبيلا شاملا. ربما ستضحك، لكنني الآن أشعر بالأسف في الحقيقة لأنني لم أفعل ذلك.

«لا يزال ريتشـــارد هو ريتشارد، هو نفسه الذي عرفته في الأيام الخالية، لكنــه صار، بطريقة ما، أكثر أريحيــة في تصرفاته. تزوج وأصبحت لديه فتاتان صغيرتان. ربما ساعده ذلك. ربما لكونه الآن قد صار أكبر بثمانية أعوام قد ساعد أيضا، لا أعرف. لا يزال حتى الآن يتحرك بعســر في أحد الأعمال البائســة التي تعوزها البراعة - منــدوب مبيعات لمكونــات الكمبيوتر أو منــدوب صيانة، لم أعد أذكــر ماذا بالضبط - وهو إلى الآن يمضي كل أمســياته أمام جهاز التلفزيون، يتابع مباريات كرة القدم، ومسلســلات كوميديا المواقف، والروايات البوليســية، وغرائب الطبيعة - إنه يحب كل شيء متعلق بالتلفزيون. لكنه لا يقرأ أبدا، ولا يدلي بصوته أبدا، لم يزعج نفســه علــى الإطــلاق، ولو بالتظاهر بأن له رأيا خاصــا في ما يحدث في العالم. إنه يعرفني منذ ست عشرة سنة، وطيلة تلك الفترة لم يكلف نفســه مرة واحدة عناء فتح أحد كتبي. أنا لا أمتعض لذلك، بالطبع، لكنني ذكرته لأبين كم هو كسول، وإلى أي مدى يفتقر تماما إلى حب الاســتطلاع. ومع ذلك كنت مســتمتعا بالوجود معه في تلك الليلة. استمتعت بالإنصات إليه وهو يتحدث عن برامج التلفزيون المفضلة، وعن زوجته وابنتيه، وعن تحسنه المستمر في لعبة التنس، وعن ميزات المعيشة في فلوريدا عن نيو جيرسي. مناخ أفضل، أنت تفهم. ليست هناك عواصف ثلجية كثيرة أو شــتاءات جليدية، الصيف يوميا على مدار الســنة. عادي جدا، الأطفال، رضى شديد عن النفس إلى حد اللعنة، ومع ذلك، كيف لي أن أصف حالته؟ في ســلام تام مع نفسه، راض وقانع تماما بحياته لدرجة أنني أكاد أحسده عليها تقريبا.

«وعليه كنا هناك، نتناول عشاء عاديا في مطعم عادي في وسط المدينة، ولا نتحدث عن شــيء له أهمية كبيرة، إلى أن رفع ريتشارد

رأســـه عن طبقه فجأة وبدأ في إخباري بقصة. لذلك كنت أســـرد عليـــك كل هذا - لكي أصل إلى قصة ريتشـــارد. لا أعرف إن كنت ستتفق معي أو لا، لكن هذا الأمر أذهلني كأحد أكثر الأشياء إمتاعا، ورحت أصغي إليه لفترة طويلة.

«منذ ثلاثة أو أربعة أشـــهر، كان ريتشـــارد فـــي الجراج الخاص به في منزله، يبحث عن شـــيء ما في صندوق كرتوني، عندما عثر مصادفة على مشغل أقراص قديم ثلاثي الأبعاد. تذكر بشكل غامض أن والديـــه كانا قد ابتاعاه عندما كان طفلا، لكن لم يكن بإمكانه أن يتذكر الظروف أو ما اســـتخدماه فيه. باستثناء أنه قد نسي خبرته معه، فقد كان متأكدا أنه لم يسبق له من قبل أن استخدمه. لم يسبق له حتى الإمســـاك به في يده. عندما أخرجه من الصندوق وشـــرع في تفحصه، اكتشـــف أنه لم يكن واحدا من تلك الأشـــياء الرقيقة الرخيصة المخصصة لمشـــاهدة الصور الجاهزة للأماكن السياحية والمناظر الجميلة. فقـــد كان آلة بصرية قوية ومتينة، تذكارا ممتازا مـــن التقاليع الثلاثية الأبعاد المصنوعة في أوائل الخمســـينيات. لم يســـتمر الهوس به لفترة طويلة، لكـــن الفكرة أو الغرض منه كان أن تقوم بالتقـــاط صور خاصة بك بكاميرا خاصـــة ثلاثية الأبعاد، ثم تحميضها وطبعها كشـــرائح، ثم رؤيتها بعد ذلك عن طريق العارض، وكان ذلك يستخدم كنوع من عمل ألبوم للصور ثلاثية الأبعاد. كانت الكاميـــرا الخاصة بالعارض غير موجودة، لكن ريتشـــارد تمكن من العثور على صندوق من الشـــرائح. لم تكن هناك سوى اثنتي عشرة شـــريحة، قال، الأمر الذي يعني أن والديه قد التقطا شريطا فيلميا واحـــدا بكاميرتهما الحديثة - ثم قامـــا بتخزينها في مكان ما بعيد وتم نسيان كل ما يتعلق بأمرها كلية.

«من دون أن يعرف ما كان بانتظاره، وضع ريتشارد إحدى الشرائح فـــي العارض، وضغط على زر الإضاءة الخلفية، وألقى بنظرة. وفي لحظة واحدة، قال، مُسِـــحَت ثلاثين سنة من حياته. كان عام ١٩٥٣، وكان في حجرة المعيشـــة في بيت أســـرته في «ويست أورانج»، في نيوجيرسي، واقفا وسط الضيوف في حفل عيد ميلاد تينا السادس عشـــر. في ذلك الوقت تذكر كل شيء: الاحتفال الرائع بالفتاة ذات الســـتة عشـــر ربيعا، ومتعهدي الأغذية الذين كانوا يفرغون الطعام في المطبخ ويرصون كؤوس الشـــمبانيا علـــى الكاونتر، ورنين جرس الباب، والموسيقى، وجلبة الأصوات، وشعر تينا الذي كان على هيئة الكعكة الشنيون، وهفهفة تينا لثوبها الأصفر الطويل. وقام ريتشارد بوضع كل شـــريحة بشـــكل متتابع في العارض وانتهى من مشاهدة الشـــرائح الاثنتي عشرة. كان الجميع موجودين هناك، قال. والدته، ووالـــده، أبناء وبنات أعمامـــه وأخواله وخالاتـــه، عماته وأعمامه، أخته، وأصدقاء أخته وحتى هو نفســـه، نحيل في الرابعة عشرة من عمره وتفاحة آدم البارزة، وقصة شـــعَره القصيرة ودبوس أحمر في رابطة عنقه. لم يكن الأمر شـــبيها بمشـــاهدة الصور الفوتوغرافية العادية، شرح ريتشـــارد. لم يكن حتى مثل مشاهدة الأفلام المنزلية - التي دائما ما تصيبك بالإحباط بصورها المهتزة وألوانها الباهتة، وإحساســـها الذي يبدو أنه ينتمي إلى الماضي البعيد. كانت الصور الثلاثية الأبعاد محفوظة ومصونة بشـــكل جيـــد لا يمكن تصديقه، واضحة بشكل فائق مفارق للمألوف. بدا كل فرد فيها حيا، ومفعما بالطاقة، حاضرا في الزمن، جزءا من شـــيء ما خالد اســـتمر في تخليد نفســـه حتى الآن لما يقرب من ثلاثين ســـنة. ألوان ســـاطعة، أدق التفاصيل تشع في أقصى وضوح لها، والإيحاء بالمكان المحيط،

وبالعمق. قال ريتشارد إنه كلما كان ينظر إلى الشرائح لفترة أطول، كان يشعر أن بإمكانه أن يرى الأشخاص يتنفسون، وفي كل مرة كان يتوقف وينتقل إلى مشاهدة الشريحة التالية، يتكون لديه انطباع بأنه إذا نظر لفترة أطول قليلا - فقط للحظة أخرى - فإنهم سيبدأون في التحرك في الواقع الفعلي.

«بعدما انتهى من مشاهدة كل شريحة على حدة، قام بمشاهدتها كلها معا مرة ثانية، وفي المرة الثانية خطر له تدريجيا أن معظم الناس الذين كانوا في الصور أموات في الوقت الحالي. والده، أودت بحياته أزمة قلبية في ١٩٦٩ . والدته، ماتت بالفشل الكلوي في ١٩٧٢ . تينا، ماتت بالسرطان في ١٩٧٤ . ومن بين عماته وأعمامه الستة الذين كانوا حاضرين أربعة ماتوا ودفنوا أيضا في الوقت الراهن. في إحدى الصور، كان واقفا فوق النجيل الأمامي للمنزل مع والديه وتينا. لم يكن في الصورة غيرهم هم الأربعة - الأذرع متشابكة، ويميل كل منهم على الآخر، صف مكون من أربعة أفراد تعلو الابتسامة وجوههم، كانت وجوههم حية وتضحك للكاميرا، وعندما وضع ريتشارد تلك الصورة في العارض للمرة الثانية، امتلأت عيناه بالدموع فجأة. كانت هذه هي الصورة التي قتلته، قال ريتشارد، الصورة التي كانت شديدة التأثير جدا عليه وبأكثر مما يحتمل. أدرك أنه كان واقفا فوق النجيل مع ثلاثة أشباح، وأنه الوحيد الذي نجا من المجموعة التي كانت بعد ظهر ذلك اليوم منذ ثلاثين سنة، وبمجرد أن انهمرت الدموع، لم يسعه القيام بشيء لإيقافها. أوقف العارض، ورفه يديه ووضعهما على وجهه وبدأ ينشج. كانت تلك هي الكلمة التي استخدمها عندما أخبرني بالقصة: النشيج. «نشجت حتى خرجت مني أمعائي»، قال، «لقد فقدتها كلية».

كان هذا هو ريتشارد، تذكر - رجل غير شاعري، رجل له حساسية مقبض الباب - ومع ذلك بمجرد أن عثر على تلك الصور، لم يستطع التفكير في أي شـــيء آخر. كان العارض هو المصباح السحري الذي ســمح له بأن يسافر عبر الزمن ويزور الموتى. كان ينظر إلى الصور في الصبـــاح قبل أن يخرج إلى العمل، وفي المســـاء بعد عودته إلى البيت. في الجراج بشكل دائم، مع نفسه دائما، باستمرار بعيدا عن زوجته وأولاده - يعود بطريقة هوســية إلى بعد ظهر ذلك اليوم في ١٩٥٣، غير قادر على الاكتفاء منه. اســتمر السحر لمدة شهرين، ثم ذات صباح دخل ريتشـــارد إلى الجراج ولـــم يعمل العارض. تعطلت الآلـــة عن العمل ولم يعد باســتطاعته بعد ذلـــك الضغط على الزر لتشـــغيل الضوء. لابد أنه أفرط في اســتخدامه، قـــال، ونظرا إلى أنـــه لا يعرف كيف يصلحه، فقد افتـــرض أن المهمة قد انتهت، وأن الشـــيء الرائع الذي اكتشـــفه قد حُرم منه إلى الأبد. كانت خسارة مأســـاوية، بشـــاعة الحرمان. لم يكن بمقدوره حتـــى أن ينظر إلى الشـــرائح عن طريق إمساكها باليد وتعريضها للضوء، فالصور ذات الأبعاد الثلاثية ليست صورا فوتوغرافية تقليدية، وأنت بحاجة إلى عـــارض ليقوم بتحويلها إلى صور مترابطة ومتلاصقة معا. لا يوجد عارض، إذن لم تعد هناك صور. لا توجد صور، إذن لا يوجد المزيد من الســـفر إلى الماضي. لا يوجد المزيد من السفر إلى الماضي، إذن ليس هناك المزيد من الاســـتمتاع. سلسلة أخرى من الأسى، سلسلة أخرى من الحـــزن، كما لو أنهم بعدما عادوا إلى الحياة، يكون عليه القيام بدفنهم من جديد.

كان هـــذا هو ما عليه الوضع عندما رأيته منذ أســـبوعين. كانت الآلة معطلة، وكان ريتشارد لا يزال يحاول التعامل بحسم مع ما حدث

له. ليس بوســعي أن أخبرك كم كنت متأثــرا بقصته. أن ترى ذلك الرجل المتلعثم العادي ينقلب إلى فيلسوف حالم، وروح معذبة متألمة تتوق إلى المتعذر أو المســتحيل. قلت له إنني ســأبذل كل ما بوسعي لمســاعدته. هذه هي نيويورك، قلت، وبما أن أي شيء في العالم من الممكــن العثور عليه في نيويورك، فلابد أن يكون هناك شــخص ما في المدينة بإمكانه إصلاح آلته. كان ريتشــارد محرجا بعض الشيء بســبب حماسي، لكنه شكرني على ما أبديته من عرض للمساعدة، وكان هذا هو ما انتهينا إليه. كنت مشــغولا في صباح اليوم التالي. أجريت مكالمات هاتفية هنا وهنــاك، وقمت ببعض البحث، وخلال يوم أو يومين كنت قد عثرت على صاحب محل للكاميرات في شارع رقم ٣١ الغربي، أعتقد أن بإمكانه القيام بالمهمة. كان ريتشــارد قد عــاد إلى فلوريدا في ذلك الوقت، وعندما اتصلت به في تلك الليلة لأنقل إليه الأخبار، ظننت أنه سوف يستثار، لدرجة أننا سنشرع من فورنا في التحدث عن كيفية تغليف العارض وشــحنه إلى نيويورك، لكــن كانت هناك وقفة صمت طويلة على الطرف الآخر من الخط. «لا أعرف، يا جون»، قال ريتشارد في النهاية، «لقد فكرت في الأمر كثيرا منذ أن التقيت بك، وربما لا تكون فكرة مشاهدة الصور طوال الوقت جيدة بالنســبة إلي. كانت أرلين قد انتابها الضيق الشــديد، ولم أعد بالفعل أولي البنتين كثيرا من الانتباه والاهتمام. ربما الأمر أفضل بهذه الطريقة. ينبغي عليك أن تعيش في الحاضر، أليس هذا صحيحا؟ الماضي هو الماضي، ومهما كان مقدار الوقت الذي سوف أقضيه مع تلك الصور، فإنني لن أكرر التجربة مرة ثانية أبدا».

كانت هذه هي نهاية القصة. نهاية محبطة، كان هذا هو شــعور جون، لكن جريس لم تتفق معه. بعد التواصل مع الموتى لمدة شهرين،

كان ريتشـــارد قد وضع نفســـه في موضع خطر، قالت، وربما كانت تواجهه مخاطر الســـقوط في نوبة اكتئـــاب خطير. كنت وقتها على وشـــك أن أهمّ بقول شـــيئا ما، لكن بمجرد أن فتحت فمي لأعرض رأيي، انتابتني نوبة لعينة من النزيف الأنفي الجهنمي. كانت النوبات قـــد بدأت قبل شـــهر أو اثنين من دخولي المستشـــفى، وعلى الرغم من أن معظم الأعراض الأخـــرى التي كنت أعاني منها تم التخلص منهـــا الآن، لكن النزيف الأنفي ظل مســـتمرا - ودائما ما يفاجئني فـــي أكثر اللحظات غير المناســـبة، هذا ما بدا لـــي، ولم يخفق أبدا في أن يســـبب لي الإحراج الشـــديد. كرهت ألاّ أكـــون متحكما في نفســـي، أن أكون جالســـا في حجرة كما كنت في تلـــك الليلة، على ســـبيل المثال، مشـــاركا في محادثة، ثم ألاحظ فجأة أن الدم يتدفق من أنفي، وينسكب على قميصي وبنطلوني، وأنا غير قادر على فعل شـــيء لإيقاف ذلك الشيء اللعين. قال لي الأطباء ألا أقلق - ليست هناك عواقب طبية، ولا علامـات تدل على مشـــكلة وشـيكة - لكن ذلـــك لم يشعرني بأي قدر من التخلص من الضعف أو الخجل. وفي كل مرة كان يتدفق فيها الدم من أنفي، كنت أشـــعر بأنني مثل طفل صغير يبلل بنطلونه.

قفزت من الكرســـي، وضغطـــت منديلا علـــى وجهي، وخرجت مســـرعا صوب أقرب حمّام. سألتني جريس إن كنت بحاجة إلى أي مساعدة، ولابد أنني قد أعطيتها إجابة سريعة غاضبة نوعا ما، على الرغـــم من أنني ليس بمقـــدوري تذكر ما قلت. «لا تنزعجي»، ربما، أو «دعيني وشـــأني». شـــيئا ما بنوع من الضيق كان كافيا لإضحاك جون، على أي حال، لأن بوســـعي أن أتذكر بوضوح أنني سمعته وهو يضحك عندمـــا تركت الحجرة. «المؤمن العجوز يباغت ثانية»، قال.

«أنف أور الحائض. لا تسمح لها بأن تضايقك، يا سد. على الأقل أنت تعرف أنك لست حاملا».

كان هناك حمّامان في الشقة، حمّام في كل مستوى من الشقة ذات الطابقين. في العادة، كنا نقضي المساء في الطابق الأسفل حيث توجد غرفة الطعام وحجرة المعيشة، لكن ساق جون الملتهبة وريديا جعلتنا نجلس في الطابق العلوي، نظرا إلى أن الطابق العلوي هو المكان الذي كان جون يقضي فيه معظم وقته في ذلك الحين. كانت الحجرة العلوية عبارة عن ردهة إضافية ملحقة، مكان صغير دافئ ومريح، مزودة بنوافذ كبيرة بارزة إلى الخارج، ورفوف الكتب تغطي ثلاثة من جدرانها، وثمة مساحات داخل الجدار مخصصة لتجهيزات الاستريو والتلفزيون - جيب ممتاز لمريض يتعافى في الفراش. كان الحمّام الخاص بذلك الطابق متفرعا بالضبط من حجرة نوم جون، وللوصول إلى حجرة النوم كان يجب عليّ أن أمر بحجرة مكتبه، وهي المكان الذي كان يكتب فيه. أضأت النور عندما دخلت إلى تلك الحجرة، لكنني كنت مشغولا بنزيف أنفي عن تركيز انتباهي على ما كان موجودا داخل الحجرة. لابد أنني قضيت خمس عشرة دقيقة في الحمّام وأنا أضغط على فتحتي أنفي وأميل برأسي إلى الخلف، حتى بدأت وسائل العلاج التقليدية تلك في العمل، تدفق مني كثير من الدم السائل لدرجة أنني تساءلت إن كنت سأضطر إلى الذهاب إلى المستشفى للقيام بنقل دم بصورة عاجلة. كم يبدو الدم أحمر في مقابل حوض من البورسلين الأبيض، فكرت. كم كان يبدو تصور هذا اللون زاهيا، كم يبدو صادما بشكل جمالي. كانت السوائل الأخرى التي تخرج منا غير زاهية مقارنة به، الإفرازات المنبثقة الأكثر شحوبا. اللعاب المائل إلى اللون الأبيض،

البول الأصفر، المخاط البني الأخضر. نقوم بإفراز ألوان الخريف والشتاء، لكن تسيل بشكل غير مرئي خلال أوردتنا، المادة الخام نفسها التي تبقينا على قيد الحياة، اللون القرمزي لفنان مجنون - أحمر لامع مثل الطلاء الجديد.

بعد انتهاء النوبة، بقيت في مكاني عند الحوض لفترة، أبذل ما في وسعي لأجعل من نفسي حسن الطلعة مرة ثانية. كان الوقت قد تأخر جدا لإزالة البقع من ملابسي (التي تيبست على هيئة دوائر صغيرة بلون الصدأ وانتشرت مفترشة على امتداد القماش ملطخة إياه عندما حاولت فركها وإزالتها)، لكنني قمت بغسل يديّ ووجهي غسلا كاملا وبللت أسفل شعري، واستعنت بمشط جون لإكمال المهمة. كنت أشعر في ذلك الوقت بقليل من الأسف على نفسي، بقليل من الانكسار. لا يزال قميصي وبنطلوني مزينين بمجموعة قبيحة من البقع التي تشكل نقوشا، لكن النهر الذي كان يتدفق لم يعد يتدفق، والألم الحاد في أنفي قد خفّ على نحو رحيم.

بينما كنت أجتاز حجرة نوم جون وأدخل إلى حجرة مكتبه، ألقيت بنظرة سريعة خاطفة على مكتبه. في الحقيقة لم أكن انظر هناك فقط، بل كنت أنقل عيني في جميع أرجاء الحجرة بينما كنت متجها صوب الباب، لكن كان ملقى هناك وبصورة واضحة في مجال النظر، ومحاطا بتشكيلة متنوعة من الأقلام الجافة وأقلام الرصاص، وأكوام غير مرتبة من الأوراق، دفتر ملاحظات أزرق بغلاف مقوى، يشبه إلى حد بعيد الدفتر الذي اشتريته في بروكلين ذلك الصباح. المكاتب الخاصة بالكتّاب هي أماكن مقدسة، أكثر المقدسات خصوصية في العالم، ولا يسمحون للأغراب بالاقتراب منها من دون إذن. لم أقترب من مكتب جون من قبل أبدا، لكنني

كنت غاية في الفزع، وبي فضول شديد لمعرفة إن كان الدفتر مطابقا لدفتري، لدرجة أنني نسيت حذري وتحفظي واقتربت لإلقاء نظرة. كان الدفتر مغلقـا، وموضوعا على وجهه فوق قاموس صغير، وفي اللحظـة التي انحنيـت فيها لأفحصه، تبينت أنه كان نسـخة طبق الأصل مـن الدفتر الملقى على مكتبي في البيت. لأسـباب لا تزال تسـبب لي الحيرة والارتباك، انتابني انفعال كبير لهذا الاكتشـاف. ما هو الفرق بين معرفتي وعدم معرفتي لنوع الدفاتر التي يستخدمها جون؟ كان قد عاش في البرتغال لمدة سـنتين، وليس هناك شك في أنه كانت هناك أشـياء شـائعة، ومتاحة في أي محل أدوات مكتبية عـادي. لماذا لا يقوم بالكتابة في دفتـر أزرق بغلاف مقوى مصنوع في البرتغال؟ ليس هناك سـبب، لا يوجد سبب على الإطلاق، ومع ذلك، مع الأخذ في الاعتبار الأحاسـيس الهذيانية اللطيفة السارة التي شـعرت بها في ذلك الصباح عندما اشـتريت دفتري الأزرق، ومع الأخذ في الاعتبار أنني قضيت عدة سـاعات مثمرة أكتب فيه في وقت مبكر ذلك اليوم (أول مجهوداتي الأدبية منذ قرابة السنة)، ومـع الأخذ في الاعتبار أنني كنت أفكـر في تلك المجهودات خلال ذلك المساء كله في شـقة جون، فقد صدمني الأمر كتزامن مذهل، مقدار صغير من سحر أسود.

لـم أكن أخطط للإتيان علـى ذكر الأمر عندما عدت إلى حجرة المعيشـة. فقد كان الأمر شـديد الغرابة، بطريقـة ما، مميزا جدا وشـخصيا، ولم أرد أن أعطي جـون انطباعا بأنني كانت لديّ عادة التلصص على أشـيائه. لكن بينما كنت أمضـي إلى داخل الحجرة ورأيته مسـتلقيا على الأريكة وساقه مرفوعة إلى أعلى، ويحدق في السـقف بتجهم، ونظـرة انهـزام في عينيه، غيـرت رأيي فجـأة.

كانت جريس في الطابق الأسفل في المطبخ، تغسل الأطباق وتتخلص من بقايا الوجبة السريعة التي تناولناها، ولذلك جلست على الكرسي الذي كانت تشغله هي، والذي تصادف أن كان على يمين الأريكة مباشرة، على مسافة قدمين من رأس جون. سألني إن كنت أشعر بأنني أفضل بعض الشيء، نعم، أجبت. أفضل كثيرا، ثم انحنيت إلى الأمام وقلت له، «حدث لي أشد الأشياء غرابة هذا اليوم. عندما كنت في الخارج للقيام بسيري الصباحي، دخلت إلى أحد المحلات واشتريت دفترا أزرق. كان دفترا شديد الروعة، والجاذبية ومغريا بعض الشيء، لدرجة أنه جعلني أرغب في الكتابة مرة ثانية. وفي اللحظة التي وصلت فيها إلى البيت، جلست إلى مكتبي وكتبت فيه لمدة ساعتين متواصلتين من دون انقطاع».

«هذا خبر سار، يا سد«، قال جون. «إذن لقد بدأت العمل ثانية».

«حادثة فلتكرافت».

«آه، هذا أكثر سرورا».

«سنرى. إنها حتى الآن لا تعدو مجرد ملاحظات أولية صغيرة، لا شيء يبعث على السعادة بشأنها. لكن يبدو أن الدفتر قد شحذ همتي وجعلني أنطلق، ولا يمكنني الانتظار لأكتب فيه غدا مرة ثانية. إن لونه كحلي، أزرق غامق لطيف جدا، مزود بشريط من نسيج منساب على كعبه وغلاف مقوى. مصنوع في البرتغال، دون جميع الأماكن».

«البرتغال؟».

«لا أعرف أي مدينة على وجه التحديد. لكن هناك بطاقة صغيرة على الغلاف الداخلي في الخلف تقول: «صنع في البرتغال».

«بالله عليك، في أي مكان على وجه الأرض عثرت على أحد هذه الأشياء هنا؟».

«هناك محل جديد في منطقتي السكنية. «قصر الورق»، يملكه رجل يدعى تشانج. كانت لديه أربعة من هذه الدفاتر في المحل».

«اعتدت شراء هذه الدفاتر في رحلاتي القصيرة عندما أنزل إلى لشبونة. إنها جيدة جدا. بمجرد أن تشرع في استخدامها، لا تشعر بالرغبة في الكتابة في أي شيء غيرها».

«كان لديّ ذلك الشعور نفسه اليوم. أتمنى ألاّ يعني هذا أنني على وشك أن أصبح مدمنا».

«ربما يكون الإدمان كلمة قوية جدا، إنها مغرية جدا. كن حذرا، يا سد. كنت أكتب فيها لسنوات، وأنا أعرف ما أتحدث عنه».

«تجعل الأمر يبدو كما لو أنها مصدر خطر».

«هذا يتوقف على ما تكتبه. تلك الدفاتر حميمة جدا، لكن يمكن أن تكون قاسية أيضا، فيجب عليك أن تنتبه كيلا تغرق فيها».

«لا يبدو لي أنك غارق - فقد رأيت للتو واحدا منها موضوعا على مكتبك عندما غادرت الحمّام».

«اشتريت مخزونا كبيرا عندما عدت إلى نيويورك. للأسف، الدفتر الذي رأيته هو آخر ما لديّ، وقد ملأته تقريبا. لم أكن أعرف أن بإمكان المرء الحصول عليها في أمريكا. كنت أفكر في الكتابة إلى المصنع لأطلب المزيد».

«قال الرجل مالك المحل إن الشركة قد أوقفت نشاطها».

«إنه حظي وحسب. لكنني لست مندهشا. من الواضح أن الطلب لم يكن كثيرا عليها».

«بإمكاني أن أجلب لك واحدا يوم الاثنين، إذا أردت».

«هل هناك أي دفتر أزرق متبق؟».

«أسود، وأحمر، وبني. لقد اشتريت آخر دفتر أزرق».

«سـيئ جدا. الأزرق هو اللون الوحيد الذي أحبه. ونظرا إلى أن الشركة لم تعد موجودة الآن، أعتقد أنني سوف اضطر إلى أن أبدأ في تنمية بعض العادات الجديدة».

«أمـر غريب، لكن عندما تفحصت الكومـة صباح اليوم، امتدت يدي مباشرة إلى الأزرق. شعرت بأنني مشدود إلى ذلك الدفتر، كما لو لم يكن بإمكاني مقاومته. ما الذي يعنيه هذا في اعتقادك؟».

«لا يعني شيئا يا سد. باستثناء أنك غريب الأطوار بعض الشيء. وأنا أيضا غريب الأطـوار مثلك. نؤلف الكتب، أليس كذلك؟ ما هو الشيء الآخر الذي بإمكانك أن تتوقعه من أناس مثلنا؟».

دائما ما تكون ليالي السبت مزدحمة في نيويورك، لكن تلك الليلة كانت الشوارع أكثر امتلاء عن المعتاد، وما بين تعطيل وآخر، أمضينا أكثر من ساعة للوصول إلى البيت. تمكنت جريس من إيقاف إحدى سـيارات الأجرة خارج باب منزل جون، لكن عندما ركبنا السـيارة وأخبرنا السـائق بأننا ذاهبون إلى بروكلـين، اختلق بعض الأعذار بخصـوص بنزين سـيارته الذي لـن يكفي لقطع المسـافة. أردت أن أحتـج بعنف على هذا السـلوك، لكن جريس أمسـكت بذراعي وجذبتني برقة إلى خارج السـيارة. لم نفلح في العثور على سـيارة بعد ذلك، لذلك سـرنا إلى «الجادة السـابعة»، ونحن نشق طريقنا بحذر مرورا بمجموعات مـن الأطفال الأفظاظ المخمورين ونصف دستة من الشحاذين المعتوهين. كانت منطقة «فيليج» تنضح بالطاقة تلك الليلة، صخب مستشـفى مجانين بدا على اسـتعداد للانفجار في العنف في أي لحظة، ووجدت أن بقاءنا بين تلك الحشود منهك

للقــوى، وأنا أحــاول الحفاظ على توازني بينمــا كنت متعلقا بذراع جريس. وقفنا عند ناصية «باروو» و«ســفنث» لعشــر دقائق بالتمام قبل أن تقترب منا ســيارة أجرة فارغة، وكان على جريس أن تعتذر لي ست مرات بســبب إخراجها لي من السيارة الأخرى. «أنا آسفة لأنني لم أسمح لك بالقيام بمشاجرة»، قالت. «إنه خطئي. آخر شيء أنــت بحاجة إليــه هو أن تقف في الخارج في هــذا البرد القارس، لكنني أكره الجدال مع الناس الأغبياء. فهذا يضايقني جدا».

لكن جريس لم تكن متضايقة فقط بسبب سائقي سيارات الأجرة الأغبياء تلك الليلة. بعد لحظات قليلة من استقلالنا السيارة الثانية، بدأت في بكاء متعذر تفسيره. ليس بصورة كبيرة، ليست نوبة نشيج لاهــث، لكن الدموع بدأت تتجمع فــي ركني عينيها، وعندما توقفنا في «كلاركســون» لأن الإشــارة كانت حمراء، ترامى وهج مصابيح الشارع إلى داخل الســيارة الأجرة، وكان بوسعي رؤية الدموع وهي تلمع في الضوء الســاطع، اغرورقت عيناها بالدموع التي كانت مثل بلورات كريستال صغيرة متســعة. لم تتعرض جريس للانهيار بهذه الطريقة من قبل. لم تبك جريس أبدا ولم تفســح مكانا للتعبير عن المزيد من المشاعر، وحتى في أكثر لحظات قلقها (في أثناء انهياري الصحي، على سبيل المثال، وطوال أسابيع اليأس المبكرة من إقامتي في المستشفى)، بدا أن لديها موهبة فطرية على أن تتمالك نفسها، في مواجهة أحلك اللحظات. ســألتها ما الأمر، لكنها هزّت رأســها فقط وصدتني عندما وضعت ذراعي على كتفها وسألتها مرة ثانية، أبعــدت ذراعــي - وهو ما لم تفعلــه من قبل أبدا. لم تكن إشــارة عدائيــة للغاية، لكن مرة ثانية، كان أمرا على غير طبيعة جريس أن تتصرف بهذه الطريقة، وأعترف بأنني شــعرت بالأسى على نفسي

بعض الشيء بسبب ذلك. دون رغبة مني في أن أفرض نفسي عليها أو أدعها تعترف بأنها جرحت مشاعري وآذتني، انسحبت إلى ركني في المقعد الخلفي من السيارة وبقيت صامتا في مكاني بينما كانت السيارة تسير ببطء جنوبا على امتداد «الجادة السابعة». عندما وصلنا إلى تقاطع «فاريك» و«كانال»، تعطلنا في ازدحام المرور لعدة دقائق. كان الازدحام هائلا: إطلاق أبواق السيارات والشاحنات، صياح السائقين بشكل فاحش بعضهم في بعض. العاهة المستديمة في نيويورك في أنقى صورها. وسط كل تلك المشاجرات والفوضى، تحولت إليّ جريس على نحو مفاجئ واعتذرت. «المسألة فقط أن جون بدا تعيسا جدا الليلة»، قالت، «منهك إلى أقصى درجة. كل الرجال الذين أحببتهم يسقطون. لقد أصبح الأمر شديد الصعوبة لأتعامل معه».

لم أصدقها. كان جسدي قد تعافى مما ألمّ به، وبدا من غير المعقول أن من الممكن أن تكون جريس محبطة بسبب إصابة ساق جون التي تتحسن سريعا. شيء ما آخر كان يقلقها، قدر من العذاب الخاص لم ترغب في تقاسمه معي، لكنني كنت على دراية بأنني إذا واصلت ملاحقتها للكشف عما في داخلها، فإن ذلك سيجعل الأمور تزداد سوءا.

كنا نشق طريقنا في «ويست برودواي». ونزحف صوب جسر بروكلين. لم يقل أحدنا للآخر شيئا لعدة دقائق. عندما انعطفت السيارة إلى اليسار في شارع «تشامبرز» وبدأت في الاقتراب من الجسر، كانت جميع المعابر مسدودة بسبب المرور، ولم يكن بإمكاننا التقدم تقريبا. همهم سائقنا، وكان اسمه بوريس ستيبانوفيتش، بالسباب لنفسه باللغة الروسية، لا شك أنه كان يندب حماقة محاولة

العبور إلى بروكلين في مساء السبت. ملت إلى الأمام وتحدثت إليه عبر الفتحة المخصصة لتمرير النقود في الفاصل الزجاجي. لا تقلق، قلت، ستتم مكافأتك على صبرك. آه؟ قال. وما معنى ذلك؟ بقشيش كبير، أجبته. مادمت ستقوم بتوصيلنا إلى هناك بالسلامة، فستحظى بأكبر بقشيش[٩] يأتيك في هذه الليلة.

ندّت عن جريس ضحكة صغيرة عندما سمعت إساءة استعمال اللفظة في قوله - ما معنى ذلك؟ - وأخذت ضحكتها كعلامة على أن فزعها قد زال. وبينما كنا في طريقنا فوق الكوبري، الذي يتقدم ببطء إلى الأمام ميلا كل ساعة، معطلين فوق النهر وضوء المباني من خلفنا وتمثال الحرية بعيد على يميننا، شرعت في التحدث إليها - التحدث ليس لغرض آخر سوى التحدث إليها - لكي أجذب انتباهها وأمنعها من الانجراف بعيدا مرة ثانية.

«اكتشفت الليلة شيئا مذهلا»، قلت.

«آمل أن يكون شيئا طيبا».

«اكتشفت أن لدى جون الشغف نفسه».

«آه؟».

«اتضح أن كلا منا مغرم باللون الأزرق. على وجه التحديد، سلعة منقرضة عبارة عن دفاتر ملاحظات زرقاء كانت تصنع في البرتغال».

«حسنا، الأزرق لون جيد. هادئ جدا. إنه يبقى في الذهن بصورة جيدة. إنني أحبه كثيرا جدا، إن الأمر يتطلب مني مجهودا متعمدا كيلا أستخدمه في جميع الأغلفة التي أقوم بتصميمها».

«هل تعبر الألوان فعلا عن العواطف؟»

«بالطبع تفعل هذا».

«والسمات الأخلاقية؟»

«بأيّ معنى؟»

«الأصفر للجبن. الأبيض للنقاء. الأسود للشر. الأخضر للبراءة».

«الأخضر للحسد».

«نعم، للحسد أيضا. لكن ما الذي يعبر عنه الأزرق؟».

«لا أعرف. ربما الأمل».

«والحزن. كما في: أشعر بالغم والحزن، أو، لقد أصبت بالاكتئاب»[١٠].

«نعم، أنت على صواب. الأزرق للولاء».

«لكن الأحمر للعاطفة. الجميع يتفقون على هذا».

«الماكينة الكبيرة الحمراء. العلم الأحمر للاشتراكية».

«الراية البيضاء للاستسلام».

«الراية السوداء للفوضوية. الحزب الأخضر».

«لكن الأحمر للحب والكره. الأحمر للحرب».

«عليك أن تحمل الألوان عندما تدخل في المعركة. هذا هو الشعار أليس كذلك؟».

«أعتقد هذا».

«هل أنت معتاد على مصطلح حرب الألوان؟»

«إنه لا يذكرني بشيء».

«إنه ينتمي إلى فترة طفولتي. كنت أنت تقضين أشهر الصيف في ركوب الخيل في فرجينيا، لكن أمي كانت ترسلني التخييم في معسكر في الجزء الشمالي من نيويورك. «كامب بونتياك»، الذي سمي على اسم القائد الهندي[١١]. في نهاية الصيف، قُسِّمَ الجميع

إلى فريقين، وطوال الأيام الأربعة أو الخمسة التالية كانت مجموعات مختلفة من كلا الفريقين تتنافس مع بعضها البعض».

«يتنافسون على ماذا؟».

«كرة السلة، البيسبول، التنس، السباحة، شد الحبل، وسباقات البيضة والملعقة ومسابقات الغناء. ونظرا إلى أن ألوان المعسكر كانت اللونين الأحمر والأبيض، فقد كان أحد الطرفين يدعى الفريق الأحمر والآخر الفريق الأبيض».

«وتلك هي حرب الألوان».

«بالنسبة إلى رياضي مهووس مثلي، كانت متعة رائعة. في بعض السنوات كنت في الفريق الأبيض، وفي سنوات أخرى كنت في الفريق الأحمر. ومع ذلك، بعد فترة، شُكِّلَ فريق ثالث، نوع من الجماعة السرية، أخوة أرواح متقاربة. لم أفكر في هذا الأمر على مدار السنوات، لكنه كان مهما جدا لي في ذلك الوقت. الفريق الأزرق».

«أخوة سرية. إنه يبدو بالنسبة إلي مثل كلام الأولاد السخفاء».

«كان كذلك. كلا ... لم يكن كذلك في الواقع. عندما أفكر فيه الآن، لا أجده سخيفا على الإطلاق».

«لابد أنك كنت مختلفا وقتها. لم ترغب في الانضمام إلى شيء بعينه».

«لم أنضم، وقع عليّ الاختيار. كواحد من الأعضاء المؤسسين. شعرت بشرف كبير».

«لقد كنت بالفعل في الفريق الأحمر أو الأبيض. ما هو الشيء الخاص جدا والمميز في ما يتعلق بالأزرق؟».

«بدأ ذلك عندما كنت في الرابعة عشرة. وفي تلك السنة جاء

مرشد جديد إلى المعسكر، شخص أكبر قليلا من بقية أعضاء هيئة المعسكر - الذين كانوا في الغالب طلبة في الكليات أعمارهم بين التاسعة عشرة والعشرين. بروس... بروس ماذا ...؟ سوف أتذكر بقيه اسمه في ما بعد. كان بروس قد نال بكالوريوس الفنون والآداب وأنهى بالفعل سنة في مدرسة كولومبيا للحقوق. شاب نحيل، قزم صغير، غير رياضي على الإطلاق يعمل في معسكر مخصص للألعاب الرياضية، لكنه كان متوقد الذهن وضحوكا، ويتحداك دائما بالأسئلة الصعبة. أدلر. هذا هو، بروس أدلر. كان معروفا في ما بيننا بـ «رابي»[١٢].

«وهل هو الذي ابتكر الفريق الأزرق؟».

«نوعا ما، لأكون أكثر دقة، لقد أعاد صياغته كتمرين على الحنين».

«لا أفهم ما تقصد».

«قبل سنوات قليلة، كان قد عمل مرشدا في معسكر آخر. كان لونا ذلك المعسكر هما الأزرق والرمادي. عندما اندلعت حرب الألوان في نهاية الصيف، كان بروس قد وضع في الفريق الأزرق، وعندما نظر حوله ورأى من كانوا معه في الفريق، أدرك أنهم جميعا الأفراد الذين أحبهم، والغالبية العظمى ممن كان يحترمهم. كان الفريق الرمادي - على العكس تماما - ممتلئا بأفراد متذمرين، ومخيبين للآمال، حثالة المعسكر. في ذهن بروس، كانت كلمتا الفريق الأزرق ترمزان إلى شيء ما أكثر من مجرد مجموعة من سباقات التتابع الرديئة، كانوا يمثلون البشرية النموذجية، عصبة من أفراد متحدين ومتعاطفين، حلم المجتمع الممتاز والكامل».

«يبدو هذا غريبا جدا، يا سد».

«أعــرف. لكن بروس لم يأخــذ الأمر بجدية. كان هذا هو جمال الفريق الأزرق. كان الأمر برمته نوعا من الدعابة».

«لم أكن أعرف أن الحاخامات مسموح لهم بالقيام بالدعابات».

«ربمــا لا. لكن بروس لم يكن حاخامــا. كان مجرد طالب حقوق يعمل في الصيف، يبحث عن قدر من الترفيه. عندما جاء للعمل في معسكرنا، أخبر أحد المرشدين الآخرين بفكرة الفريق الأزرق. فقررا معا تشكيل فرع جديد، لإعادة بعثه كمنظمة سرية».

«كيف وقع اختيارهم عليك؟».

«فــي منتصف الليل. كنت في ســبات عميق في ســريري، فقام بروس ومستشــار آخر بهزي فاستيقظت. «تعال»، قالا، «لدينا شيء نريــد أن نخبرك به»، ثم قادانــي أنا وولدين آخرين إلى الغابة على ضوء الكشافات. كانت لديهما نار تخييم صغيرة مشتعلة، ولذا جلسنا حول النار وأخبرانا بقصة الفريق الأزرق، ولماذا وقع اختيارهما علينا كأعضاء مؤسســين، وما هي المؤهلات التي كانا يبحثان عنها - في حالة إذا ما أردنا ترشيح أعضاء آخرين».

«وما هي هذه المؤهلات؟».

«لا شيء على وجه التحديد، فعلا. لم يلتزم أعضاء الفريق الأزرق بنمط واحد، كان كل واحد شــخصا مســتقلا ومختلفا. لكن لم يكن مســموحا لأحد بالانضمام إن لم يكن يتمتع بحس الدعابة - أيا كان التعبيــر عن الدعابــة وما يمكن أن تعبّر عنــه الدعابة. يطلق بعض النــاس النكات طوال الوقت، وبوســع الآخرين أن يرفعوا حاجبا في اللحظة المناســبة ثم فجأة يتدحرج جميع مــن بالغرفة إلى الأرض. روح الدعابة، ثم، ذوق تجاه ســخريات الحيــاة، وتقدير للعبث، لكن أيضــا مع قدر معين من التواضع والحــرص والفطنة، والطيبة نحو

الآخريـــن، قلب كريم. ليســـوا مغرورين أو متكبرين حمقى، ليســـوا كذابين أو لصوصا. كان يجب على عضو الفريق الأزرق أن يتمتع بحب الاستطلاع، وأن يكون قارئا للكتب، ومدركا لحقيقة أنه ليس بإمكانه أن يطوّع العالم ويشـــكله بناء على رغبته. مراقب ذكي، شخص قادر على تمييز فـــروق أو اختلافات أخلاقية دقيقة رائعة، محب للعدل. ســـيقوم عضو الفريق الأزرق بتقديم يد العون لك إذا رأى أنك كنت في حاجة إليها، لكنه في أكثر الحالات ســـوف يدس ورقة نقدية من فئة العشـــرة دولارات في جيبك عندما لا تحتاج إليه أو تبحث عنه. هل يبدو هذا مفهوما؟ لا يمكنني أن أجيبك إجابة مباشرة وأقول إنه أمر واحد بذاته أو عدة أمور أخرى بذاتها. إنها عدة أمور وكلها معا في الآن نفسه، كل جزء منفصل يتفاعل مع الأجزاء الأخرى».

«إن من تصفه لهو شـــخص جيد. نقي وبســـيط. بحســـب تعبير والدي «رجل أمين». تســـتخدم بيتي ستولويتز كلمة «إنسان فاضل». يقول جون «ليس أحمق». إنها جميعا تعني الشيء نفسه».

«ربما. لكنني أحـــب الفريق الأزرق كثيرا. إنه ينطوي ضمنا على علاقـــة ارتباط بين الأعضاء، رباط تضامنـــي. إذا كنتِ من أعضاء الفريق الأزرق فلســـت بحاجة إلى أن تشـــرحي أو تفسري مبادئك. إنها مفهومة على الفور من خلال الكيفية التي تتصرفين بها».

«لكن النـــاس لا يتصرفون عادة بالطريقة نفســـها. إنهم جيدون في دقيقة وسيئون في الدقيقة التي تليها. يرتكبون الأخطاء. الناس الطيبون تصدر عنهم أخطاء، يا سد».

«بالطبع تصدر عنهم أخطاء. أنا لا أتحدث عن الكمال».

«بل تتحدث. إنـــك تتحدث عن أناس قرروا أن يكونوا أفضل من الآخرين، ويشـــعروا بأنهم أفضل أخلاقيا من عامة أهلنا العاديين.

أراهنك أنك وأصدقاءك كانت لديكم طريقة مصافحة سرية في ما بينكم، أليس كذلك؟ لجعلك متميزا عن السوقة والمغفلين، أليس هذا صحيحا؟ لاعتقادك أن لديك قدرا من المعرفة الخاصة التي لم يكن ذكاء الآخرين كافيا لاستيعابها».

«يا إلهي يا جريس. لقد كان مجرد شيء صغير منذ عشرين عاما. يجب عليك ألا تفككيه وتقومي بتحليله».

«لكنك لا تزال تؤمن بهذه التفاهات. بإمكاني تبين هذا في صوتك».

«لا أؤمن بأي شيء. كوني على قيد الحياة - هذا هو ما أؤمن به. كوني على قيد الحياة، ووجودي معك هو كل شيء بالنسبة إلي يا جريس. لا يوجد ما هو أكثر من ذلك، لا شيء واحدا آخر في هذا العالم اللعين برمته».

كانت طريقة مثبطة للهمة لإنهاء المحادثة. محاولتي غير البارعة إلى حد كبير لإخراجها من حالتها المزاجية الكئيبة قد نجحت لفترة قصيرة، لكنني دفعت بها بعيدا جدا، التطرق إلى الموضوع الخطأ بصورة غير متعمدة، وهي بدورها هاجمتني بتلك الإدانة الكاوية. تحدثها بمثل هذه العدوانية كان بعيدا كل البعد عن شخصيتها. فنادرا ما تشغل جريس نفسها بقضايا من هذا النوع، وكانت كلما دارت بيننا في ما مضى مناقشات مشابهة مثل هذه (تلك الحوارات الحرة الطلقة، العرجاء التي لا تدور حول أي شيء بعينه، فقط مجرد قفز عشوائي يتراقص من تداع للخواطر إلى آخر)، كانت تميل إلى أن تكون مستمتعة بالمفاهيم التي كنت أطرحها عليها، ونادرا ما كانت تأخذها بجدية أو تسوق حججا مضادة، قانعة راضية بأن تنتظر وتدعني أطلق آرائي الخالية من

المعنى. لكن لم يحدث هذا في تلك الليلة، ليلة ذلك اليوم الذي نحن بصدد التحدث عنه، ولأنها كانت تقاوم فقد عادت الدموع فجأة إلى عينيها مرة ثانية، وغمرتها التعاسة نفسها التي تسللت إليها في بداية مشوارنا، كنت متفهما أنها في ضيق حقيقي، وأنها لا تقوى على أن تتوقف عن التحسر على الشيء المجهول الذي كان يعذبها. كانت هناك دستة من الأسئلة التي أردت أن أسألها، لكنني تراجعت ثانية، وأنا أعرف أنها لن تطلعني على سريرتها حتى تصبح على ما يرام وعلى استعداد تام لأن تتكلم - مفترضا أنها كانت ستفعل هذا في أي وقت.

كنا قد نجحنا في اجتياز الجسر في ذلك الوقت، وكنا نتجه إلى داخل «شارع هنري»، وهو طريق عام ضيق محاط على الجانبين ببنايات من الطوب الأحمر تمتد إلى «مرتفعات بروكلين»، حيث شقتنا الواقعة في «كوبل هيل»، بالضبط أسفل «جادة أطلنطيك». لم يكن الأمر شخصيا، أدركت هذا. انفجار جريس الصغير لم يكن موجها ضدي أنا أكثر مما كان رد فعل تجاه ما قلته - شرارة نتجت عن صدام عابر بين تعليقاتي وحبل أفكارها. الناس الطيبون يفعلون أشياء سيئة. هل فعلت جريس شيئا ما خطأ؟ هل فعل شخص ما مقرب منها شيئا خطأ؟ كان من المستحيل معرفة هذا، لكن هناك شخصا ما مذنبا تجاه شيء ما، قررت، وعلى الرغم من أن كلماتي أطلقت تعليقات جريس الدفاعية، فقد كنت متأكدا من أن هذه التعليقات ليست موجهة إلى شخصي. كما لو كان الأمر إثباتا لهذا التأكد، بعد لحظة من عبورنا «جادة أطلنطيك» واتجاهنا صوب المرحلة الأخيرة من الرحلة، مدت جريس يدها إليّ وأمسكت برقبتي، ثم جذبتني نحوها.

نمنا حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، لم نغادر السـرير حتى الحادية عشرة والنصف أو الثانية عشرة. كانت إحدى قريبات جريس في المدينة لمدة يـوم، وكانتا قد خططتا للالتقاء في متحف جوجنهايم في السـاعة الثانية، ثم تواصـلان طريقهما إلى متحف الميتروبوليتان لعدة سـاعات لمشـاهدة عروض المجموعات الدائمة للمتحف. كانت مشـاهدة اللوحات هي نشاط عطلة نهاية الأسبوع المفضل لـدى جريس، التي تسـللت إلى خارج البيت في السـاعة الواحدة بطريقة هادئة بشـكل معقول[١٢]. عرضت عليها أن أسـير معهـا إلى مترو الأنفـاق، لكنها كانت بالفعل قـد تأخرت في ذلك الوقـت، ونظرا إلى أن المحطة كانت على مسـافة بعيدة من البيت (بطول «شـارع مونتاج» حتى نهايته)، لم ترغب في أن أجهد نفسي بالمشـي كثيرا لعدة تقاطعات في الشارع بخطوات سريعة. رافقتها إلى أسفل السلم وإلى الخارج حتى الشارع، لكن عند أول ناصية ودع كل منا الآخر، ومشى كل منا في الاتجاه المعاكس.

أسرعت جريس إلى «كورت ستريت» باتجاه «هايتس»، وسرت أنا على مهل عبر عدة تقاطعات إلى محل حلويات «لاندولفي» واشتريت علبة سـجائر. كان هذا هو مدى نزهتي لليوم. كنت مشتاقا إلى أن أعـود إلى الدفتـر الأزرق، ولذلك بدلا من أن أقوم بسـيري المعتاد هنـا وهناك في المنطقة، اسـتدرت على الفـور وذهبت إلى البيت. بعد عشـر دقائق، كنت في الشـقة، أجلس إلى مكتبي في الحجرة في نهاية الصالة. فتحت الدفتر الأزرق، وانتقلت إلى الصفحة التي توقفت عندها يوم السـبت، وقررت أن أشـرع في العمل. لم أزعج نفسي بإعادة قراءة ما قمت بكتابته حتى ذلك الحين. فقط أمسكت القلم وبدأت الكتابة.

كان بوين على متن الطائرة، يطير عبر الظلام نحو كانساس سيتي. بعد دوّامة سقوط المزراب واندفاعه المتهور إلى المطار، إنه يشعر بإحساس متنام بالهدوء، وصفاء أو سكون متبلد داخله. لا يسأل بوين نفسه ما الذي يفعله. لا يشعر بالأسف، لا يعيد التفكير في قراره بمغادرة البلدة و تركه لعمله، لا يشعر بأقل وخزة ندم لهجرانه إيفا. يعرف كيف سيكون الأمر صعبا عليها، لكنه يتمكن من إقناع نفسه بأنها ستكون أحسن في النهاية من دونه، وأنها حتى بمجرد أن تتعافى من صدمة اختفائه، سيكون من الممكن بالنسبة إليها أن تبدأ حياة جديدة أكثر إرضاء. وضع صعب جدير بالإعجاب أو التعاطف، لكن بوين في قبضة الفكرة، وهذه الفكرة كبيرة جدا، أكبر بكثير من رغباته التافهة وواجباته الخاصة، لدرجة أنه يشعر بأنه ليس لديه خيار في انصياعه لها - حتى في تكلفة التصرف بطريقة خالية من المسؤولية، بقيامه بأشياء كانت منفرة له أخلاقيا قبل يوم واحد فقط. «يموت الناس بطريقة عشوائية»، هذه هي الطريقة التي عبّر بها هاميت عن الفكرة، «ويحيون فقط ما دامت المصادفة العمياء البحتة تستثيهم... . بطريقة فطنة يرتب فلتكرافت شؤونه خطوة إلى خارج، وليس إلى داخل الحياة. كان يعرف قبل أن يخطو عشرين قدما بعد الدعامة الساقطة أنه لن يعرف الطمأنينة أبدا مرة ثانية، حتى يقوم بتعديل وضبط نفسه على هذه اللمحة الجديدة من الحياة. عندما انتهى من تناول غدائه كان قد وجد الوسيلة للتعديل. يمكن للحياة أن تنتهي بالنسبة إليه عشوائيا بسقوط دعامة: سيغير حياته إذن عشوائيا عن طريق ذهابه بعيدا».

لم أكن مضطـــرا إلى الموافقة على أفعال بويـــن وتصرفاته لكي أكتب عنها. كان بوين هو فلتكرافت، وفلتكرافت فعل الشـــيء نفسه بزوجته في رواية هاميت. كان هذا هو ما تفترضه القصة، ولم أكن بصـــدد التراجع عن هذا الاتفاق الذي عقدته مع نفســـي بأن ألتزم وألتصق بما تفترضه القصة. في الوقت نفســـه، كنت مستوعبا أنه كان هنـــاك المزيد بخصوصها أكثر مـــن مجرد ما يحدث لبوين بعد ركوبـــه الطائرة. كان هنـــاك أيضا وضع إيفا فـــي الاعتبار، وبغض النظـــر عن كم أصبحـــت منهمكا في تتبع مغامـــرات نيك بوين في كانساس سيتي، لم يكن ممكنا للقصة أن تكون متوازنة إلاّ إذا عدت إلى نيويورك وأمطت اللثام عما كان يحدث لها. كان مصيرها مهما بالنســـبة إلي، بالضبط كمصير زوجها. يبحث بوين عن اللامبالاة، وتأكيـــد هدوء الأمور كما هـــي عليه ومهادنتها، في حين أن إيفا في حالة حرب مع تلك الأمور، ضحية للظروف، ومن اللحظة التي يفشل فيهـــا نيك في العودة من رحلته عنـــد الناصية، يصبح عقلها عبارة عن حقل عاصف من الانفعالات المتضاربة: الذعر والخوف، الحزن والغضب، اليـــأس. كنت راغبا في إمكان دخـــول ذلك البؤس، وفي معرفة أنني ســـأكون قادرا على معايشتها لتلك الانفعالات والكتابة عنها في الأيام القادمة.

بعد نصف ســـاعة من إقلاع الطائرة من مطار «لاغوارديا»، يفتح نيك حقيبة أوراقه، ويخرج منها مخطوطة رواية ســـيلفيا ماكسويل، ويبدأ في القراءة. كان هذا هو العنصر الثالث في السرد الذي كان يتشـــكل في رأســـي، وقررت أنه يجب أن يُقدَّم مبكرا قدر الإمكان - حتى قبل أن تهبط الطائرة في كانســـاس سيتي. أولا قصة نيك، ثـــم قصة إيفا، وفـــي النهاية، الكتاب الذي يقرأه نيك ويســـتمر في

قراءته بينما تتكشــف قصتهما: قصة داخل القصة. نيك رجل مهتم بالأدب، على الرغم من كل شيء، ولذلك فهو شخص عرضة لسطوة الكتب. شــيئا فشيئا، عن طريق قوة الانتباه يستسلم لكلمات سيلفيا ماكســويل، ويبدأ فــي رؤية علاقة أو رابطة بين نفســه وبين قصة الروايــة، كما لو بطريقــة مجازية غير مباشــرة بدرجة كبيرة، كان الكتاب يتكلم معه بشكل وثيق وحميم عن ظروفه الخاصة الحالية.

عند تلك النقطة، لم يكن لديّ سوى مفهوم شديد الشحوب عما أردت أن تكون عليه ليلة التنبؤ، لا شيء أكثر من الخطوط العريضة الأولى المبدئية. ومع ذلك كل شــيء يجـب أن يحـسب حسابه في ما يتعلــق بالحبكة، لكنني كنت على درايــة بأنه كان من المفترض أن تكون رواية فلســفية قصيرة عن التنبؤ بالمستقبل، قصة رمزية عــن الزمن. بطل الرواية هو لومويل فلاج، ملازم بريطاني أصيب بالعمى بسبب انفجار قذيفة مدفع هاون في خنادق الحرب العالمية الأولى. ينزف بســبب جراحه، يفقد إحساسه بالزمان والمكان، هو يصــرخ ويولول من الألم، يشــرد بعيدا عن ســاحة المعركة ويفقد الاتصال مع فرقته. يشق طريقه إلى الأمام بصعوبة، يتعثر، ليست لديه فكرة عن المكان الذي يُوجَد فيه، يدخل إلى غابات «الأردين»؟ وينهار على الأرض. في وقت لاحق من اليوم نفسه، يكتشف طفلان فرنســيان جســده الغائب عن الوعي، ولد في الحادية عشرة من العمــر، وفتاة في الرابعة عشــرة، فرانســوا وجينيفيف. يتمتهما الحرب ويعيشــان معا في كوخ مهجور وســط الغابات، شخصيات خيالية محضة في مــكان خيالي صرف. يحملان فلاج إلى الكوخ ويمرضانه حتى يســترد صحته، وعندما تنتهي الحرب بعد أشهر قليلة، يعود بالطفلين إلى إنجلترا. جينيفيف هي التي تسرد القصة،

تتذكر بدءا من الحالة الأكثر وضوحا في ١٩٢٧، أي النشاط الغريب ثم الانتحار النهائي لأبيها بالتبني. إصابة فلاج بالعمى أعطته هبة التنبؤ. في ما يشبه نوبات تجل مفاجئة، يسقط على الأرض ويبدأ في التشنج مثل مريض الصرع. تستمر النوبات من ثماني إلى عشر دقائق، وطوال الوقت الذي تدوم فيه، تجتاح عقله صور من المستقبل. تجيئه النوبات دون تحذير، وليس بوسعه القيام بشيء لإيقافها أو التحكم فيها. موهبته هي مزيج من النقمة والنعمة. تجلب له الثراء والنفوذ، لكن في الوقت نفسه تسبب له آلاما جسدية شديدة - فضلا على الآلام العقلية، نظرا لأن معظم رؤى فلاج تزوده بمعرفة أشياء يفضل هو ألاّ يعرفها. يوم وفاة أمه، على سبيل المثال، أو مكان تحطم قطار في الهند حيث سيلقى مائتا شخص حتفهم. يجاهد ليحيا حياة عادية مع طفليه، لكن الدقة المذهلة لتنبؤاته (التي تتراوح بين التنبؤات الجوية ونتائج الانتخابات البرلمانية ونتائج منافسات مباريات الكركيت) حوّلته إلى واحد من أكثر الرجال شهرة في بريطانيا بعد الحرب. ثم، في قمة شهرته، تسوء الأمور معه في الحب، وتنتهي موهبته مدمرة إياه. يقع في حب امرأة تدعى بيتينا نوت، وتبادله الحب لمدة سنتين، حتى أنها تقبل عرضه للزواج، لكن في الليلة التي تسبق عرسهما، تنتاب فلاج واحدة من نوباته، التي يعرف فيها أن بيتينا سوف تخونه قبل نهاية السنة. لم تخطئ تنبؤاته من قبل أبدا، ولذلك يعرف أن الزواج محكوم عليه بالإخفاق. المأساة أن بيتينا بريئة، خالية تماما من الذنب، بما أنها لم تقابل بعد ذلك الرجل الذي ستخون زوجها معه. غير قادر على مواجهة العذاب الذي أعده له القدر، يطعن فلاج نفسه في القلب ويموت.

تهبط الطائرة. يعيد بوين المخطوطة التي تمت قراءة نصفها إلى حقيبة أوراقه، ويمضي إلى خارج المحطة، ويبحث عن سيارة أجرة. لا يعرف شيئا عن كانساس سيتي. لم يذهب إليها من قبل، لم يلتق أبدا أي شـــخص يعيش في حدود مائة ميل من المكان، وسيكون من الصعب عليه الإشـــارة إلي أي مكان على خريطة صماء. يطلب من الســـائق أن يأخذه إلى أفضل فندق في المدينة، والسائق، وهو رجل أســـود بدين له اسم بغيض «إد فيكتوري»، ينفجر في الضحك. آمل ألاّ تكون ممن يعتقدون في الخرافات، يقول. الخرافات؟ يجيب نيك. ما علاقة هذا بالخرافات؟ أنت ترغب في أفضل فندق. سيكون هذا الفندق هو «حياة ريجينســـي». لا أعرف إن كنت تقرأ الجرائد، لكن كانـــت هناك كارثة كبيرة في حياة منذ حوالي ســـنة تقريبا. انحلت الممرات المعلقة من الســـقف. وانهارت متحطمة على أرضية البهو، وما يزيد على مائة شخص لقوا حتفهم.

نعـــم، أتذكـــر هـــذا. كانت هناك صـــورة على الصفحـــة الأولى للتايمز.

أعيـــد افتتاح المـــكان مرة ثانية الآن، لكن بعض الناس يشـــعرون بالخوف أو الوســـاوس الشـــديدة بشـــأن الإقامة هناك. إذا لم تكن موسوســـا، وإذا لم تكن مؤمنا بالخرافـــات، فذلك هو الفندق الذي يمكنني أن أرشحه.

موافق، يقول نيك. ليكن حياة. لقد صعقني البرق مرة اليوم. إذا رغب في أن يصيبني مرة ثانية، فسوف يعرف أين يجدني[١٤].

يضحك إد من إجابة نيك، ويســـتمر الرجلان في التحدث بينما ينطلقان بالسيارة في المدينة. يتضح أن إد في سبيله إلى التقاعد من مهنة قيادة ســـيارات الأجرة. فقد عمل بها لمدة أربعة وثلاثين عاما،

وهــذه الليلة هي آخر ليلة عمل له. هذه هي توصيلته الأخيرة، آخر مسافة يقطعها من المطار، وبوين هو آخر توصيلة له، الراكب الأخير على الإطلاق الذي ســوف ينقله بســيارته الأجرة. يسأله نيك عما خطط للقيام به في الوقت الحالي ليبقي نفسه مشغولا، وإدوارد إم. فيكتوري (ذلك هو اسم الرجل بالكامل) يمد يده في جيب قميصه، ويخرج بطاقة تعارف يعطيها إلى نيك. «مكتب المحافظة التاريخية»، هو ما تقوله البطاقة وبها اســم إد وعنوانه ورقم هاتفه مطبوعا في الجزء الأسفل من البطاقة. كان نيك على وشك أن يسأل عما تعنيه الكلمات، لكن قبل أن يتمكن من صياغة الســؤال، تتوقف الســيارة أمــام الفندق، ويمد إد يده ليتلقى آخر أجر ســيعطى له إلى الأبد. ويضيف بوين بقشيشــا بقيمة عشــرين دولارا إلــى المبلغ الأصلي، ويتمنى حظا سعيدا لسائق التاكسي المتقاعد حديثا، ويمضي خلال الأبواب الدوارة إلى داخل بهو الفندق المشؤوم.

لأنه لا يوجد معه ما يكفي من السيولة النقدية يضطر إلى الدفع ببطاقة الائتمــان. يحجز نيك في الفندق باســمه الحقيقي. البهو الذي أعيد تشييده يبدو كما لو كان قد تم الانتهاء منه منذ أيام قليلة فقــط، لم يجد مناصا من التفكير في أنــه هو والفندق في الوضع نفســه تقريبا: كلاهما يحاول نســيان ماضيه، كلاهما يحاول بدء حياة جديدة. القصر المتلألئ بمصاعده الشــفافة والثريات الكبيرة والممرات المعدنية اللامعة، وهو بلا شيء سوى ملابسه التي يرتديها، وبطاقتي ائتمــان في محفظته، ورواية نصف مقــروءة في حقيبته الجلديــة. إنه ينفــق بتبذير وينزل في جناح فخــم، ويركب المصعد إلى الطابق العاشــر، ولا يهبط منه ثانية لمدة ســت وثلاثين ساعة. وهــو عار تحت روب الحمّام الخاص بالفندق، يتناول وجبات خدمة

النزلاء، يقف عند النافذة، يتفحص نفسه في مرآة الحمّام، يقرأ كتاب سيلفيا ماكسويل. ينتهي منه في الليلة الأولى قبل أن يذهب إلى السرير، ثم يقضي اليوم التالي بأكمله في إعادة قراءته، ثم يقرأه مرة أخرى، ثم مرة رابعة، مثابرا على قراءة صفحاته التي تبلغ مائتين وتسع عشرة صفحة، كما لو أن حياته متوقفة على القراءة. تؤثر فيه قصة لومويل فلاج بشدة، لكن بوين لا يقرأ ليلة التنبؤ لأنه يبحث عن التأثير أو الاستمتاع، وهو لا ينغمس في الرواية لكي يؤجل اتخاذ قرار بشأن ما يفعله في الخطوة التالية. يعرف ما يجب عليه أن يفعله في ما بعد، والكتاب هو الوسيلة الوحيدة المتاحة له للقيام بهذا الشيء. يجب عليه أن يدرّب نفسه على ألاّ يفكّر في الماضي. هذا هو المفتاح إلى المغامرة المجنونة بالكامل التي خطرت له عندما تحطم المزراب على الرصيف. إذا كان قد فقد حياته القديمة، فيجب عليه إذن أن يتصرف كما لو أنه قد ولد لتوه، يجب أن يتظاهر بأن الماضي لا يثقل كاهله كأنه طفل. بالطبع لديه ذكريات، لكن هذه الذكريات لم تعد وثيقة الصلة به، لم تعد جزءا من الحياة الجديدة التي بدأت بالنسبة إليه، وكلما يجد نفسه ينساق إلى الأفكار الخاصة بحياته القديمة في نيويورك - التي محاها، التي لم تعد شيئا الآن أكثر من مجرد وهم - يفعل كل ما في وسعه لتحويل عقله عن الماضي والتركيز في الحاضر. لذلك يقرأ الكتاب. لذلك يواصل قراءة الكتاب. يجب أن يغري نفسه بالابتعاد عن الذكريات الزائفة لحياة لم تعد تخصه، ولأن المخطوطة تحتاج إلى استسلام كلي لتتم قراءتها، وانتباه متواصل من الجسم والعقل، فبإمكانه أن ينسى ذلك الشخص الذي كانه عندما يتوه ويضيع في ما بين صفحات الرواية.

في اليوم الثالث. يغامر نيك أخيرا بالمضي إلى الخارج. يمشي إلى نهاية الشارع، يدخل إلى أحد محلات بيع الملابس الرجالي، ويقضي الساعة التالية متفحصا الأرفف والحوامل والصناديق. شيئا فشيئا يشكل دولاب ملابس جديدا لنفسه، يحتوي على كل شيء من البنطلونات والقمصان إلى الملابس الداخلية والجوارب. عندما يعطي بائع المحل بطاقة الأمريكان إكسبريس لدفع الفاتورة، ترفض الماكينة البطاقة. تم إلغاء الحساب، يخبره البائع. يفاجأ نيك بهذا التطور غير المتوقع، لكنه يحاول أن يتظاهر بأخذه ببساطة. لا يهم، يقول. سأدفع ببطاقة الائتمان فيزا الخاصة بي. لكن عندما يضرب البائع تلك البطاقة في الماكينة، يتضح أنها غير صالحة أيضا. إنها لحظة محرجة لنيك. يرغب في إطلاق نكتة بشأن الموقف، لكن لا تخطر في ذهنه تعليقات مضحكة عن هذا. يعتذر للبائع عن مضايقته له ثم يستدير ويغادر المحل.

لخبطة يسهل تفسيرها. بالفعل يتمكن بوين قبل أن يعود إلى الفندق من الفهم، وبمجرد أن يفهم لماذا ألغت إيفا البطاقات، يعترف على مضض بأنه كان سيفعل الشيء نفسه لو كان مكانها. زوج يخرج لإلقاء رسالة ولا يعود. ما الذي ستفكر فيه الزوجة؟ احتمال الهجران، بالطبع، لكن تلك الفكرة لن تأتي إلاّ في ما بعد. سيكون رد الفعل الأول هو الفزع، ثم تلقي الزوجة بنظرة سريعة على كتالوج الحوادث والأخطار المحتملة الحدوث: صدمته شاحنة، سكينة في الظهر، سرقة تحت تهديد السلاح ثم خبطة قوية في الرأس. وإذا كان زوجها ضحية سرقة، فسوف يتم الاستيلاء إذن على محفظته وسرقة بطاقات الائتمان. مع عدم وجود دليل لمساندة وتدعيم فرض أو آخر (لا تقارير عن جريمة، ولا جثة عثر عليها في

الشارع)، فسـيكون إلغاء بطاقات الائتمان هو أقل إجراء احتياطي يمكن القيام به.

كانت بحوزة نيك ثمانية وستون دولارا. لم يكن معه دفتر شيكات، وعندما يتوقف عند إحدى ماكينات السـحب السـريع في طريق عودته إلى حياة ريجنسي، يعرف أن بطاقة سيتي بنك الخاصة به قد ألغيت أيضـا. فجأة أصبح وضعه يبعث على اليأس تماما. كل سُـبُل المال قد سُدت، وعندما يكتشف الفندق أن بطاقة الأمريكان إكسـبريس التي حجز بها ليلة الاثنين لم تعد صالحة، سيكون في أقبـح المآزق، حتى أنه ربما يجد نفسـه مضطـرا إلى الدفاع عن نفسـه ضد اتهامات جنائية. يفكر في الاتصال بإيفا والذهاب إلى البيت، لكنه لن يسـتطع إجبار نفسه على القيام بهذا. لم يقطع كل هذه المسافة ليسـتدير ويعود أدراجه عند أول إشارة على مشكلة، والحقيقة هي أنه لا يريد الذهاب إلى البيت، لا يريد الرجوع. بدلا من ذلـك، يأخذ المصعد إلى الطابق العاشـر في الفندق، ويدخل جناحـه، ويطلب رقم روزا ليتمان في نيويـورك. يفعل هذا برغبة خالصة، من دون أن تكون لديه فكرة أولية عما يرغب في أن يقوله لها. لحسـن الحظ، روزا في الخارج، ولذلك يترك لها رسالة على جهاز الرد التلقائي - مونولوج عشـوائي مشـتت لا يعني القليل أو الكثير، حتى بالنسبة إليه هو.

أنا في كانسـاس سيتي، لا أعرف لماذا أنا هنا. لكنني هنا الآن ربما لفترة طويلة، وأحتاج إلى أن أتكلم معك. سيكون من الأفضل، إذا أمكننا، أن نتحدث وجها لوجه، لكن من المحتمل أن يكون شيئا كثيرا جدا أن أطلب منك الطيران إلى هنا بناء على إخطار صغير كهـذا. لو لم يكـن بإمكانك الحضور، من فضلـك اتصلي بي. أنا

موجود في حياة ريجينسي، غرفة ١٠٤٦، قرأت كتاب جدتك عدة مرات حتى الآن، وأعتقد أنه أفضل شيء كتبته هي على الإطلاق. شكرا لأنك أعطيتني إياه. وشكرا لحضورك إلى مكتبي يوم الاثنين. لا تنزعجي عندما أقول هذا، لكنني غير قادر على التوقف عن التفكير فيك. لقد سحقتني مثل مطرقة، وعندما نهضتِ أنتِ وغادرتِ الحجرة، كان عقلي قد تحطم إلى قطع صغيرة. هل من الممكن الوقوع في حب شخص ما في عشر دقائق؟ لا أعرف أي شيء عنك. لا أعرف إن كنت متزوجة أو تعيشين مع شخص ما، إن كنت مرتبطة أم لا. لكن سيكون لطيفا جدا إذا أمكنني التحدث إليك، لطيفا جدا إذا أمكنني رؤيتك مرة ثانية. بالمناسبة، المكان هنا جميل في الخارج. كل شيء غير مألوف ومسطح. أقف في النافذة أتطلع إلى المدينة. مئات المباني، ومئات الطرق، لكن كل شيء صامت. الزجاج يحجز الصوت، الحياة على الجانب الآخر من النافذة، لكن هنا في الداخل يبدو كل شيء ميتا، وغير حقيقي. المشكلة أنني لا يمكنني البقاء في الفندق لمدة أطول. أعرف رجلا يعيش في الطرف الآخر من البلدة. إنه الشخص الوحيد الذي التقيت به حتى الآن، وسأخرج للبحث عنه خلال دقائق معدودة. اسمه إد فيكتوري. بطاقته معي في جيب قميصي وسأعطيك رقمه، فقط في حالة إذا ما سويت حسابي وغادرت المكان قبل مكالمتك. ربما سيعرف هو أين أنا. ٤٣٢١-٧٦٥-٦١٨ . سأكرره مرة ثانية: ٤٣٢١-٧٦٥-٦١٨ كم هو غريب هذا الرقم. لاحظت للتو فقط أن الأرقام على التوالي، تتصاعد بواحد صحيح في كل مرة. لم أر رقم هاتف كهذا من قبل أبدا. هل تعتقدين أنه يعني شيئا ما؟ ربما لا. إلاّ إذا كان يعني شيئا بالطبع. سأدعك تعرفين

عندما أكتشف الأمر. إذا لم يصلني رد منك، سأتصل بك مرة ثانية خلال يومين، وداعا.

يمر أسبوع قبل أن تستمع هي إلى رسالته. لو كان نيك قد اتصل قبل عشـــرين دقيقة، لكان من الممكن أن ترد على مكالمته، لكن روزا كانت قد غادرت شقتها توا، ولذلك فهي لا تعرف شيئا عن مكالمته. فـــي اللحظة التي كان نيـــك يقوم فيها بتســـجيل كلماته على جهاز الرد التلقائي، كانت روزا تجلس في ســـيارة تاكسي صفراء على بُعد ثلاثـــة مربعات ســـكنية من مدخل «نفق هولاند»، فـــي طريقها إلى مطار نيوآرك، حيث ستأخذ طائرة بعد الظهر إلى شيكاغو. إنه يوم الأربعاء. وكانت أختها ســـتتزوج يوم السبت، ولأن الزفاف سيجرى في بيت والديها، ولأن روزا هي وصيفة الشرف، فقد بكّرت بالذهاب للمســـاعدة في الترتيبات. لم تر والديها منذ فترة من الوقت، لذلك ســـوف تنتهز فرصة الزيارة لقضاء أيام قليلـــة إضافية معهما بعد الزفـــاف. في خطتها أن تعود إلى نيويورك في صباح الثلاثاء. أعلن رجـــل عن حبه لها لتـــوه على جهاز الرد التلقائي، وســـوف ينقضي أسبوع كامل قبل أن تعرف أي شيء عن هذا.

في جزء آخـــر من نيويورك، من بعد ظهر ذلك الأربعاء نفســـه. زوجـــة نيك، إيفا، اتجهت بأفكارها هي الأخـــرى نحو روزا ليتمان. كان نيك مفقودا لما يقرب من أربعين ساعة. مع عدم ورود كلمة من الشـــرطة بخصوص حوادث أو جرائم مرتبطـــة برجل تنطبق عليه أوصاف زوجها، ومع عدم وجـــود إخطارات بطلب فدية أو مكالمات هاتفية ممـــن يدعون أنهم خاطفون، تبدأ تضع في الاعتبار احتمال أن نيك قد اختفى سرا، أنه قد هجرها بطريقته الخاصة. حتى هذه اللحظة، لم تظن أبدا أن لديه علاقة بواحدة، لكن عندما تســـترجع

ثانيـــة ما قالـــه عن روزا في المطعم ليلة الاثنـــين، وعندما تتذكر كم كان مأخوذا بهـــا - حتى لدرجة اعترافـــه الصريح بهذا الانجذاب - تبدأ في التســـاؤل إذا كان نيك هناك بعيدا في نزوة من الانفلات الطائش الفاســـق، مع فتاة، نحيفة ذات شعر أشقر شائك، تحتضنه بين ذراعيها.

تبحث عـــن رقم روزا ليتمان في دليل الهاتف وتتصل بشـــقتها. ليس هناك من يجيب، نظرا إلى أن روزا بالفعل على متن الطائرة. تترك رســـالة قصيرة وتنهي المكالمة. عندما لا تقوم روزا بالاتصال بها، تتصل إيفا مرة ثانية في تلك الليلة وتترك رسالة أخرى. تكرر هـــذا الروتين لعدة أيـــام - مكالمة في الصباح ومكالمة في المســـاء - وكلما اســـتمر صمـــت روزا المفرط الطويـــل، أصبحت إيفا أكثر غضبا. في النهاية، تذهب إلى بناية روزا في تشلسي، وتصعد ثلاث مجموعات من السلالم وتطرق باب شقتها... لا شيء يحدث، تطرق ثانيـــة، تدق بقبضتها وتهزّ الباب من مفصلاته، ومع ذلك ليس ثمة إجابـــة واحدة. تأخذ إيفا هذا دليلا حاســـما على أن روزا مع نيك - افتـــراض لا عقلاني، لكن إيفا في ذلك الوقت تكون قد تجاوزت حدود المنطق، بصورة هستيرية تنسج معا قصة تفسّر غياب زوجها الذي ســـبب لها قلقا مظلما، أسوأ مخاوفها حول زواجها ونفسها. تكتب ملحوظة على قطعة من الورق وتدسها أسفل باب شقة روزا. أرغب في التحدث معـــك بخصوص نيك، تقول الورقة. اتصلي بي فورا. إيفا بوين.

فـــي تلـــك الآونة غادر نيـــك الفندق منـــذ فترة طويلـــة. وجد إد فيكتوري، الذي يعيش في حجرة صغيرة في آخر طابق في بنســـيون فـــي واحد من أكثر أماكن البلدة ســـوءا، طرف مجاور لمنطقة مخازن

مهجورة ومهدمـــة ومجموعة من المباني التي طالتها النيران. الناس القليلون الذين يتجولون في الشـــارع جميعهم من الســـود، لكن هذه منطقة رعب وخراب، وتحمل شـــبها صغيرا بجيوب الفقر الأســـود التي رآها نيـــك في مدن أمريكية أخرى. لم يدخل من قبل في حي أقليات فقير، هكذا يشـــبه إلى حد كبير قطعة صغيرة من الجحيم، أرض خالية مبعثرة عليها زجاجات خمر فارغة، ومحاقن مستهلكة، وهياكل سيارات مجردة من مكوناتها ومحتوياتها وصدئة. البنسيون هو المبنى الوحيد السليم في مربع تلك البنايات، لاشك في أنه آخر ما تبقى مما كانت عليه المنطقة في العادة قبل ثمانين أو مئة ســـنة. في أي شـــارع آخر، يكون من الممكن اعتبار المبنى مســـتهجنا، لكنه يبدو مغريا في هذا الســـياق، مبنى مدهـــون باللون الأصفر العتيق المتقشـــر مكـــون من ثلاثة طوابـــق ودرجات غائرة وســـقف، وألواح خشـــبية رقائقية من «الأبلكاج»، تم تسميرها بالعرض على النوافذ التسعة الأمامية في الواجهة.

يطـــرق نيك على الباب، لكـــن لا أحد يرد. يطـــرق ثانية، وبعد لحظات قليلة تقف أمامه امرأة عجوز مرتدية روب بشـــكير أخضر وباروكـــة رخيصة ذات لون بني محمر - تقف في ارتباك، وارتياب، وتســـأله عمّا يريده. إد، يجيب بوين، إد فيكتوري. تحدثت معه على الهاتف منذ حوالي الســـاعة. إنه ينتـظرنـــي. لـفترة طـويلة جدا، لا تقـــول المرأة شـــيئا. تنظر إلى نيك من أعلى إلى أســـفل، عينان ميتتان تتفحصانه كما لو كان نوعا من مخلوق غير قابل للتصنيف، تلقي بنظرة خاطفة إلى أســـفل حيث الحقيبة الجلدية في يده، ثم إلـــى أعلى حيث وجهه، محاولة أن تتبين ما الذي يفعله هذا الرجل الأبيض في منزلها. يضع نيك يده في جيبه ويخرج بطاقة التعريف

الخاصة بإد، على أمل إقناعها بأنه موجود هنا في مهمة شـــرعية، لكن المرأة كانـــت نصف عمياء، وعندما تميل إلى الأمام لتنظر إلى البطاقة، يفهم نيك أنها ليســـت باستطاعتها قراءة الكلمات. ليست هناك مشـــكلة بخصوصه، أليس كذلك؟ تســـأل. لا توجد مشاكل، يجيب نيك. لا علم لي بذلك، على أي حال. وأنت لســـت شـــرطيا؟ تقـــول المرأة. أنا هنا لأحصـل على بعـض النصـائح. يخبـرها نيك، إد هو الشـــخص الوحيد الذي بإمكانـــه أن يعطيها لي. أعقب ذلك وقفـــة أخرى طويلة، وفي النهاية تشـــير المرأة إلى الســـلم. الطابق الثالـــث - جي، تقول، الباب على اليســـار. كن متأكـــدا ودق الباب بصـــوت عـال عـندما تصـل إلى هنـاك. فعـادة ما يكون نائما في هذا الوقت من اليوم، وهو لا يسمع جيدا جدا.

تعـــرف المرأة ما كانت تتحدث عنه، فبمجـــرد صعود نيك الدرج المظلـــم وعثوره على باب إد فيكتوري في نهاية الصالة، يضطر نيك إلى الطرق على الباب عشر مرات أو اثنتي عشرة مرة قبل أن يصيح له ســـائق سيارات الأجرة الســـابق بالدخول. ضخم البنية وممتلئ، بحمالاته المدلاة عن كتفيه وأعلى بنطلونه غير المزرر. الفرد الوحيد الذي يعرفه نيك في كانســـاس سيتي يجلس على سريره ومسدسه مصوب في خط مســـتقيم إلى قلب زائره مباشرة. إنها المرة الأولى التي يُشـــهر فيها شخص ســـلاحا ضد بوين، لكـن قـبل أن يتمـلكه ما يكفي من الذعر ويتراجع إلى خارج الحجرة. يخفض إد المسدس ويضعه على منضدة قرب السرير.

إنه أنت، يقول. رجل نيويورك ذو ضربة البرق. هل تتوقع مشاكل؟ يســـأل نيك، الذي يشعر على نحو متأخر برعب الرصاصة المحتملة في الصدر، على الرغم من أن الخطر قد زال.

هذه أوقـات عصيبة، يقول إد، وهذا مـكان مزعج. لا يمكن أن يكون الإنسـان حذرا جدا أبدا. وبصفـة خاصة رجل بلغ من العمر السابعة والستين ولم تعد قدماه سريعتي الحركة.

ليس بمقدور أحد أن يسبق رصاصة، يجيب نيك.

يصدر إد صوتا يشـبه الشـخير على سـبيل الرد، ثم يطلب مـن بوين الجلوس، يشـير على نحو غير متوقـع إلى عبارة من والدن بينما يومئ نحو الكرسـي الوحيـد الموجود في الحجرة. قال «ثوريو» إن لديه من الكراسي ثلاثة في منزله، يقول إد مبديا ملاحظة. واحد للعزلـة، واثنان للصداقة، وثلاثة للمجتمع. لقد حصلت فقط على الكرسـي الخاص بالوحدة. باستلقائي ممدا في السـرير، ربما يصبح هناك اثنان للصداقة، السـرير وهذا الكرسي. لكن لا يوجد مجتمع هنا. لقد نلت كفايتي عندما كنت أقود سيارات الأجرة.

يستريح بوين على الكرسي الخشـبي المستقيم الظهر ويلقي بلمحـة خاطفة علـى أنحاء الحجـرة الصغيرة المنظمـة. إنها تسـتدعي إلى ذهنه صومعة راهب أو ملجأ ناسـك: مكان كئيب متقشف ليس به ما يزيد على العناصر الأساسية الأكثر تجريدا اللازمة للحياة. سرير لشـخص بمفرده، خزانة ذات أدراج، لوح تسخين، ثلاجة صغيرة، مكتب، وخزانة كتب تحتوي على عشرات الكتب، مـن بينها ثمانية أو عشـرة قواميس وعشـرون مجلدا متهرئة جدا من موسوعة «كولير». تمثل الحجرة عالما من ضبط النفس، والحيـاة الباطنية، والنظام. وبينمـا يركز بوين انتباهه إلى إد فيكتور، الذي يراقبه في هدوء من السرير، تلفت انتباهه تفصيلة أخيرة، هربت من انتباهه قبل ذلك. لم تكن هناك صور

معلقـــة على الجدران، لا صور فوتوغرافية ولا أعمال فنية يدوية معروضة. الزينة الوحيدة عبارة عن تقويم مســمّر على الحائط بالضبط فوق مكتب إد ويرجـــع إلى عام ١٩٤٥، والتقويم مفتوح على شهر إبريل.

أنا فـــي ورطة، يقـول بوين، واعتقدت أنـــك ربما تكون قادرا على مساعدتي.

هذا يتوقف على نوع الورطة، يقول إد، وهو يبحث عن علبة سجائر غير مفلترة من نوع «بال مالز» على المنضدة المجاورة للسرير. يشعل ســيجارة بعود كبريت خشبي، يسحب نفســا طويلا من السيجارة، ويبدأ في الســعال على الفور. ســنوات من التخثّــر البلغمي داخل شــعاب القصبة الهوائية المتقلصة، لمدة عشرين ثانية تمتلئ الحجرة بانفجار الصوت المتشــنج، وعندما تخفّ النوبة، يبتسم إد إلى نيك ابتســامة عريضة ثم يقول: كلما سألني الناس لماذا أدخن، أقول لهم إنني أحب أن أسعل.

لم أقصد مضايقتك، يقول نيك. ربما ليس هذا بالوقت المناسب.

أنا لســت متضايقا. رجل أعطاني عشرين دولارا بقشيشا، وبعد يومين يجيء ويخبرني بأن لديه مشكلة. هذا يثير الفضول عندي.

أنا في حاجة إلى العمل. أي نوع من العمل. أنا ميكانيكي سيارات جيــد، وخطر لي أنك ربمــا يكون لديك نفوذ أو مكانة في شــركة سيارات الأجرة التي اعتدت أنت العمل لديها.

رجل من نيويورك معـــه حقيبة أوراق جلدية وحلة أنيقة يخبرني بأنه يريد أن يصبح ميكانيكيا. يعطي الســائق بقشيشــا مرتفعا ثم يدعي أنه مفلس. والآن ســتخبرني أنت بأنك لا ترغب في الإجابة عن أي من هذه التساؤلات. هل أنا على صواب أم خطأ؟

بلا تساؤلات. أنا الرجل الذي أصابه البرق، هل تتذكر؟ أنا ميت، وأيا كان الشخص الذي كنته فلم يعد الأمر يختلف بعد الآن. الشيء الوحيد الذي يجب أن يوضع في الحسبان الآن، والآن فقط، هو أنني يجب عليّ أن أكسب بعض المال.

الناس الذين يعملون على إدارة ذلك المكان الذي كنت أعمل به هم مجموعة من الحمقى والمحتالين. انس تلك الفكرة. نيويورك. ومع ذلك، إذا كنت يائسا وفي حاجة شديدة فعلا، قد يكون لديّ شيء ما لمصلحتك في هذا المكتب. تحتاج إلى عمود فقري قوي وذهن جيد في الأرقام. إذا وافقت على تلك المؤهلات، سوف أقوم بتعيينك. بأجر لائق. قد أبدو مثل فقير معوز، لكنني لديّ حقائب من المال، مال كثير أكثر مما أعرف ما سأصنع به.

مكتب المحافظة التاريخية، هو مشروع أعمال لك.

ليس عملا. إنه أقرب في طبيعته إلى المتحف، أرشيف خاص.

قوتي البدنية والذهنية بخير، وأعرف كيف أجمع وأطرح.

ما نوعية العمل الذي تتحدث عنه؟

أنا أعيد تنظيم حياتي. هناك زمان، وهناك مكان. هذان هما الإمكانان الوحيدان. النظام الحالي جغرافي، مكاني. الآن أريد تحويل الأشياء من جانب إلى آخر وأجعلها مرتبة ترتيبا زمنيا. إنها طريقة أفضل، أنا آسف لأنني لم أفكر فيها مبكرا. هناك بعض العمل الشاق مشترك ومتداخل، وجسدي ليس أهلا للقيام به، بمفردي. أنا بحاجة إلى مساعد.

وإذا قلت إنني أرغب في أن أكون ذلك المساعد، فمتى يمكنني أن أبدأ؟

الآن، إذا أحببــت. فقط أعطني فرصة حتـــى أنتهي من إغلاق أزرار بنطلوني، وســـأصحبك إلى هناك. وعندئذ يمكنك أن تقرر إن كنت راغبا أم لا.

توقفت عنـــد ذلك الحد من الكتابة لتناول وجبة صغيرة (بعض البسكويت وعلبة سردين) ابتلعت الوجبة مستعينا بدفعات من الماء. كانت الســـاعة قد ناهزت الخامســـة. وعلى الرغم من أن جريس كانت قد قالت لي إنها ستعود في السادسة أو السادسة والنصف، لكنني أردت أن أكســـب القليل من الوقت أكثـــر مع الدفتر الأزرق قبل عودتها، وأن أستمر في المواصلة حتى آخر دقيقة ممكنة. وأنا في طريق عودتي إلى غرفة مكتبي في نهاية الصالة، تســـللت إلى الحمّام لأرش وجهي ببعض الماء - أشـــعر بالانتعاش، والاستعداد للانغماس فـــي القصة. لكن بمجرد مغادرتي الحمّام، انفتح الباب الأمامـــي للشـــقة، ودخلت جريس، تبدو شـــاحبة ومنهكة. كان من المفترض أن «للي» قريبتها ســـترافقها إلى هنا في بروكلين (لتناول العشاء معنا وقضاء الليلة على الأريكة التي تُفرَد وتُثنى في حجرة المعيشة، ثم تغادر في الصباح إلى «نيو هافن»، حيث كانت قريبتها هذه طالبة في الســـنة الثانية بكلية الهندســـة المعمارية في جامعة ييل)، لكن جريس كانت بمفردها، وقبل أن أتمكن من ســـؤالها عما حدث، ابتســـمت لي ابتسامة شاحبة، وأســـرعت عبر الصالة في اتجاهي، ثم التفت التفافة مفاجئة إلى اليسار ودخلت إلى الحمّام. وفـــي اللحظة التي دخلت فيها الحمّام، نزلت على ركبتيها وتقيأت في المرحاض.

بعد انتهاء هذا الطوفان، ساعدتها لتنهض على قدميها وأدخلتها إلى حجرة النوم. بدت شـــاحبة للغاية، وشعرت بأن جسمها بالكامل

كان يرتعــش - كما لو كانت تيارات كهربائية صغيرة تمر عبره. ربما كان هذا من أثر الطعام الصيني الذي تناولناه الليلة الماضية، قالت، لكنني قلت لها بأنني لا أظن ذلك، نظرا إلى أنني أكلت من الأطباق نفســها التي تناولتها هي، ومعدتي على ما يرام. ربما أصبت بشيء مــا، قلت. نعم، أجابت جريس، ربما أنت على حق، لابد أنها واحدة من تلك الخنافس - نلجأ جميعا إلى اســتخدام تلك الكلمة الغريبة لوصف مصادر العدوى غير المرئية، التي تطفو وتنتشر خلال المدينة وتشــق طريقها كالديدان في تيارات دم الناس وأمعائهم الداخلية. لكنـــي لم أمرض أبــدا، أضافت جريس، بينما تركتني باستســلام كامل أخلع عنها ملابســها وأضعها في السرير. لمست جبينها، الذي لم يبد لي ساخنا ولا باردا، ثم فتشت عن الترمومتر الموجود في درج «الكومودينو» المجاور للسرير، ودسسته في فمها. اتضح أن حرارتها عادية. هذا مشــجع، قلت. إذا حصلت على نــوم هادئ هذه الليلة، فربما ستشعرين بأنك أفضل في الصباح. وحسبما أجابت جريس: يجب علــيّ أن أكون أفضل. هناك اجتماع مهــم في العمل غدا، لا يمكنني أن أدعه يفوتني.

أعددت لها فنجان شــاي خفيف وشريحة توست جافة، وطوال ســاعة أو نحو ذلك بقيت جالســا إلى جوارها في الســرير، وأنا أتحــدث إليها عن قريبتها «للي»، التي وضعت جريس في ســيارة أجرة بعدما جعلتها نوبة الغثيان الأولى تســرع إلى حمّام السيدات في الميتروبوليتان. بعد أن رشــفت عدة رشفات من الشاي. أعلنت جريس أن الغثيان قد زال، ليعاودها بشدة بعد خمس عشرة دقيقة فقط، الأمر الذي جعلها تذهب بســرعة واندفاع عبر الصالة إلى المرحاض. بعد هذا الهجوم الضاري ثانية، تهدأ، لكن مرت ثلاثون

دقيقة أو أربعون قبل أن تسترخي بالقدر الكافي وتسقط في النوم. في تلك الأثناء، تحدثنا قليلا، ثم صمتنا لفترة، ثم تكلمنا ثانية. وعلى مدار تلك الدقائق قبل أن تغفو أخيرا، كنت أملّس على رأسها براحة يدي المفتوحة. شعور جيد أن تلعب دور الممرضة، قلت لها، حتى ولو لساعات قليلة فقط. كان الأمر بالعكس لفترة طويلة جدا، وقد نسيت أنه يمكن أن يكون هناك شخص آخر مريض في البيت غيري.

«أنت لا تفهم»، قالت جريس. «لقد تمت معاقبتي على الليلة الماضية».

«عوقبت؟ ما الذي تتحدثين عنه؟».

«لأنني زجرتك في السيارة الأجرة. تصرفت بطريقة قذرة».

«كلا لم تتصرفي بطريقة سيئة. وحتى إذا كنت قد فعلت، أشك أن الله ينتقم من الناس بإصابتهم بإنفلونزا في المعدة».

أغلقت جريس عينيها وابتسمت: «لقد أحببتني دائما، أليس كذلك يا سدني؟».

«من اللحظة الأولى التي رأيتك فيها».

«هل تعرف لماذا تزوجتك؟».

«لا. لم تواتني الشجاعة الكافية أبدا للسؤال».

«لأنني عرفت أنك لن تخذلني أبدا».

«راهنتِ على الحصان الخطأ يا جريس. لا أزال أخذلك لما يقرب الآن من سنة. في البداية أجرّك إلى الجحيم بمرضي، ثم ألقي بك وبي في مستنقع الديون بتسعمائة فاتورة طبية غير مدفوعة. لولا عملك، كنا سنصبح في الشارع. أنتِ تحملينني على كتفك، يا مدام تيبيتس. أنا رجل عالة».

«أنا لا أتكلم عن المال».

«أعــرف أنك لا تتحدثين عن ذلك. لكنــك مازلت تحصلين على معاملة مجحفة».

«أنا لســت بالشــخص الذي يمكنه أن يدينك، يا سد. أنا مدينة لك. أكثر مما تعرف وأكثر مما ســوف تعـرف إلى الأبـد، ما دمـت لا تصيبني بخيبة الأمل، يمكنني أن أتحمل أي شيء».

«أنا لا أفهم».

«ليس عليك أن تفهم. فقط استمر في حبك لي، وستسير الأمور كلها على ما يرام من تلقاء نفسها».

كانت ثانــي محادثة محيرة قمنا بها خلال الســاعات الثماني والأربعــين المنصرمــة. مرة أخرى. كانت جـريس تلمّح إلى شــيء ما ترفض ذكره بالاســم، نوع من الاضطــراب الداخلي الذي بدا أنــه يطارد ضميرها، وتركتني هذه المحادثة حائرا، أتلمس طريقي في صمت لاكتشف ما الذي كان يحدث. ومع ذلك كم كانت حنونة ولطيفة تلك الليلة، كم كانت سعيدة بتقبلها لخدماتي الصغيرة، كم كانت فرحتها بجلوســي إلى جوارها في الســرير. برغم كل شيء واجهنا في الســنة الماضية، مازال موقفها هــو إخلاصها ورباطة جأشــها في أثناء مرضــي الطويل، بدا مســتحيلا أنها كانت من الممكــن أن تفعل أي شــيء يخيّــب أملي في أي وقــت. وحتى إذا فعلت، فقد كنت أحمق بالقدر الكافي ومخلصا بما يكفي ألاّ أهتم. أردت أن أبقــى متزوجا منها لبقية حياتــي، وإذا كانت جريس قد زلّت من قبل في وقت ما أو فعلت شــيئا ما جعلها غير فخورة به، فما الاختلاف الذي يمكن أن يفعله هذا على المدى البعيد؟ ليست وظيفتي أن أحاكمها فأنا زوجها، ولست ملازما في شرطة الآداب،

وقـد اعتزمت الوقوف بجانبها بغض النظـر عن أيّ أمور أخرى. فقط اسـتمر في حبي. كانت تلك توجيهات بسيطة، إلاّ إذا قررت هي إلغاءها في يوم ما في المستقبل، وأنا اعتزم إطاعة رغباتها إلى أقصى حد حتى النهاية.

نامت جريس قبيل السادسـة والنصف. وعندما تسللت أنا على أطراف أصابعي إلى خارج حجرة النوم واتجهت نحو المطبخ لأحصل على كوب آخر من الماء، أدركت أنني كنت سعيدا لأن «للي» قد تخلت عن خطتها المتعلقة بقضاء الليلة هنا ولحقت بقطار مبكر عائدة إلى نيو هافن. وجدت أنني لا أكره قريبة جريس الصغيرة... في الحقيقة، أحببتها جدا، وكنت أستمتع بالاستماع إلى لكنتها الفرجينية (نسبة إلى فرجينيا)، التي كانت أكثر ثقلا ووضوحا لديها عن لكنة جريس، لكن قيامي بالتحدث معها طوال الليل بينما جريس نائمة في حجرة النوم كان أكثر قليلا مما بوسـعي القيام به. لم أتخيل أنني سأكون قـادرا على أن أعمل ثانية بعـد عودتهما من مانهاتن، لكن الآن بعد إلغاء العشـاء، لم يكن هناك ما يعوقني عن العودة بسرعة مرة ثانية إلى الدفتر الأزرق. كان الوقت لا يزال مبكرا، كانت جريس قد أكلت بنهم كاف لهذه الليلة، وبعد وجبة السـردين الصغيرة التي تناولتها مع البسكويت، هدأ جوعي. لذلك مشيت إلى نهاية الصالة مرة ثانية وجلسـت إلى مكتبي، وفتحت الدفتـر الأزرق للمرة الثانية في ذلك اليوم. من دون أن أنهض ولو لمرة عن الكرسـي، عملت بانتظام حتى الثالثة والنصف صباحا.

مرّ الوقت. في يوم الاثنين التالي، بعد سبعة أيام من اختفاء بوين، تتلقى زوجته الفاتورة الإجمالية لبطاقة الأمريكان إكسـبريس الملغاة. تمر ببصرها على قائمة المشتروات والخدمات، تصل إلى آخر خدمة

في نهاية الصفحة (لمصلحة شـــركة دلتا رحلة طيران إلى كانســـاس ســـيتي يوم الاثنين السابق) تستوعب فجأة أن نيك لا يزال حيا، وأنه لا بد على قيد الحياة. لكن لماذا كانســـاس سيتي؟ تجاهد لتخيل لماذا كان علـــى زوجهـــا أن يطير إلى مكان لا توجـــد لديه فيه أيّ علاقات أو صـــلات (لا يوجد أقارب، أو مؤلفون في اتحاد الأدباء الذي ينتمي إليـــه، ولا أصدقاء من الماضي) لكـــن لا يمكن التفكير في دافع واحد ممكن. في الوقت نفســـه، تبدأ أيضا الشـــك فـــي ظنونها بخصوص روزا ليتمـــان. الفتاة تعيش في نيويورك، وإذا كان نيك قد هرب معها حقا، فلماذا، دون بقية الأماكن على وجه الأرض، يأخذها إلى الغرب الأوســـط في الولايات المتحدة؟ إلاّ إذا كانـــت روزا ليتمان أصلا من كانســـاس ســـيتي، بالطبع، أصاب هذا إيفا بالاندهاش والاستغراب كشيء مستبعد، أبعد الحلول من بين الحلول الأخرى البعيدة.

ليســـت لديها أي نظرية، ولا قصص تخمّن عليها أكثر من ذلك، والغضـــب الـــذي كان يعكرها داخليا طوال الأســـبوع الماضي يتبدد تدريجيا، ثـــم يختفي كلية. من الفراغ والارتبـــاك اللذين نجما عن تبدده، تظهر عاطفة جديدة لتملأ أفكارها: أمل، أو شيء ما مشابه للأمل. نيك حي، ومع الأخذ في الاعتبار أن كشـــف حســـاب بطاقة الائتمان يســـجّل شـــراء تذكرة ذهاب واحدة فقـــط، فهناك فرصة مرجحة لأن يكون بمفرده. تتصل إيفا بقســـم الشرطة في كانساس ســـيتي وتسأل عن مكتب الأشـــخاص المفقودين، لكن الرقيب الذي يلتقط ســـماعة الهاتف ويرد عليها لا يقـــدم لها أدنى عون. الأزواج يختفـــون يوميا، يقول، ومادام ليـــس هناك دليل على جريمة، فليس بإمكان الشرطة أن تفعل شيئا. على شفا اليأس، فجأة تطلق العنان للتوتر والبؤس اللذين كانا يتصاعدان داخلها طوال الأيام الســـابقة،

فــي النهاية تقول إيفا للرقيب إنه قاســي القلب لا إحســاس لديه وتنهي المكالمة. ســتلحق بطائرة كانساس سيتي، تقرر، وتبدأ البحث عن نيك بنفســها. ثائرة جدا لجلوســها حتى ذلــك الوقت أكثر من اللازم، تقرر المغادرة في تلك الليلة على الفور.

تتصل بجهاز الــرد التلقائي في مقر عملهــا، وتعطي توجيهات معقدة إلى ســكرتيرتها عن الأعمال القادمة في ذلك الأســبوع، ثم تشــرح أن لديها أمرا عائليا طارئا يجب أن تهتم به. ســتكون خارج البلدة لفترة، تقول، لكنها ســتداوم علــى الاتصال بها تلفونيا. حتى ذلك الحين، لم تخبر أحدا عن اختفاء نيك باستثناء شرطة نيويورك، التي كانت غير قادرة على عمل أي شيء لها. لكنها أبقت أصدقاءها وزملاءها في العمل في الظلام، رافضة حتى أن تأتي على ذكر الأمر لوالديها، وعندما بدأ مكتب نيك في الاتصال يوم الثلاثاء لمعرفة أين كان، كانت تتجنبهم بقولها إنه قد أصيب بفيروس معوي وكان طريح الفراش. بحلول يــوم الاثنين التالي، عندما كان المتوقع أن يكون قد تعافى تماما وعاد إلى العمل، أخبرتهم بأنه تحســن تحســنا كبيرا، لكن أمه تم حملها إلى المستشفى في أثناء عطلة نهاية الأسبوع بعد ســقوط ســيئ، وأنه قد طار إلى بوســطن ليكون معها. كانت هذه الأكاذيب شكلا من الحماية الذاتية، يحفزها فيها الإحراج، والمهانة والخــوف. أي زوجة تكون لو لم يكن بإمكانهــا معرفة وتبرير مكان زوجها؟ كانت الحقيقة مســتنقع شك، وفكرة الاعتراف لأي شخص بأن نيك قد هجرها لم ترد حتى على بالها.

متســلحة بعدة صــور حديثة لنيك، تعبئ حقيبة ســفر صغيرة وتتجه إلى مطار لاغوارديــا، بعد أن اتصلت من قبل لحجز مقعد في رحلة التاســعة والنصف. عندما تهبط الطائرة في كانســاس

سيتي بعد عدة ساعات، تبحث عن سيارة أجرة وتطلب من السائق أن يرشح لها فندقا، تعيد تقريبا حرفيا السؤال نفسه الذي سأله زوجها لإد فيكتوري الاثنين الماضي. الاختلاف الوحيد أنها تستخدم كلمة «جيد» بدلا من كلمة «أجود»، لكن لأن الفروق الدقيقة جدا كلها من عينة ذلك الاختلاف، فإن رد السائق يجيء متشابها. يأخذها إلى «حياة»، وتدرك بعض الشيء أنها تتبع خطوات زوجها، تحجز إيفا عند المكتب الأمامي، وتطلب غرفة مفردة. ليست إيفا بالشخصية التي تبعثر المال وتستمتع بالأجنحة الغالية، لكن مع ذلك فإن غرفتها في الطابق العاشر، مباشرة أسفل الصالة حيث كان نيك يقيم أول ليلتين بعد وصوله إلى المدينة، وإذا استثنينا حقيقة أن غرفتها تنحرف تقريبا بمقدار درجة إلى الجنوب عن غرفته، فإنها تطل على منظر المدينة نفسه الذي كان يطل عليه: ارتفاع المباني نفسه، شبكة الطرق نفسها، السماء بسحبها المعلقة نفسها التي وصفها إلى روزا ليتمان بينما كان واقفا عند النافذة يتحدث إليها في جهاز الرد التلقائي، قبل أن يتسلل خلسة بسبب الفاتورة ويترك المكان إلى الأبد.

تنام إيفا على نحو سيئ في السرير غير المعتاد، حلقها جاف، تستيقظ ثلاث أو أربع مرات في أثناء الليل لتذهب إلى الحمّام، لتشرب كوبا آخر من الماء، لتحدق في الأرقام الحمراء الفاتحة للمنبه الرقمي وتصغي إلى طنين المراوح التي تدور في فتحات السقف. يغلبها النعاس في الخامسة، تنام بشكل متصل لحوالي ثلاث ساعات، ثم تطلب إفطار خدمة النزلاء. في التاسعة والربع، تنتهي من أخذ حمامها وارتداء ملابسها، وتتحصن بإبريق ممتلئ بقهوة سوداء، تأخذ المصعد إلى الطابق الأرضي لتبدأ بحثها. تدور

كل آمال إيفا حول الصـــور الفوتوغرافية التي تحملها في حقيبتها. سوف تســـير في أرجاء المدينة وتظهر صورة نيك لأكبر عدد ممكن مـــن النـــاس، بدءا مـــن الفنادق والمطاعـــم، ثم المحـــلات العمومية ومحلات الطعام، ثم شـــركات الســـيارات الأجرة، والمباني الإدارية المكتبيـــة، والله أعلم أين أيضا، وهـــي تصلي وتدعو أن يتعرف عليه شـــخص ما ويعرض المعاونة. إذا لم يتحقق شيء ملموس بعد اليوم الأول، ســـتقوم بعمل نســـخ لإحدى الصور وتلصق كل النسخ في كل مكان فـــي أنحاء المدينة - على الجـــدران، وأعمدة الإضاءة وكبائن التلفون - وتنشـــر الصورة في «ذا كانساس سيتي ستار»، إلى جانب أي صحف أخرى منتشرة في المنطقة. حتى أنها - بينما كانت تقف في المصعد في طريقها إلى أســـفل حيث البهو - تتخيل النص الذي ســـيصاحب الإعلان اليدوي. مفقود. أو: هل رأيت هذا الرجل؟ يليه اســـم نيك، والعمر، والطـــول والوزن ولـــون الشعر. ثم رقم الاتصال ووعـــد بمكـــافـــأة. لا تزال تحاول اكتشـــاف المقدار الذي يجب أن يكـــون عليه المبلغ عندما تنفتح أبواب المصعد. ألف دولار؟ خمســـة آلاف؟ عشـــرة آلاف؟ إذا فشـــلت هذه الحيل، تقول لنفسها، سوف تتحرك إلى الخطوة التالية وتســـتعين بخدمات مخبر خاص. ليس فقط مجرد شـــرطي ســـابق يحمل رخصة محقق، بـــل خبير، رجل متخصص في تصيد المختفين، الكائنات التي تتبخر في العالم.

بعد ثـــلاث دقائق من دخول إيفا البهو، يحدث شـــيء ما خارق. تقوم بإظهار صورة نيك لموظف الاستقبال الذي في الخدمة، وتعطي المرأة الصغيرة ذات الشـــعر الأشـــقر والأســـنان البيضـــاء اللامعة انطباعـــا إيجابيا. فيؤدي هذا إلى البحث خلال الســـجلات، وحتى مع الســـرعة الخاملة لكمبيوترات سنة ١٩٨٢، لا يستغرق الأمر مدة

طويلـــة لتأكيد أن نيك بوين تم تســـجيله في الفنـــدق، قضى ليلتين هنـــاك، واختفى من دون أن يكلف نفســـه عناء دفع الحســـاب. كان لديهـــم رقم بطاقة ائتمان مدون في الملف، لكن بعد دق الرقم خلال نظام الأمريكان إكســـبريس، اتضح أن البطاقة غير صالحة. تطلب إيفا رؤية المدير لتســـوية فاتورة نيك، وبمجرد جلوســـها في المكتب، وإعطائها البطاقة الحديثة الصالحة الخاصة بها إلى المدير لتغطية الرســـوم المتأخـــرة الدفع، تبدأ في البكاء، تنهار بشـــكل جدي لأول مرة منذ أن فقدت زوجها. ينزعج الســـيد «لويد شـــاركي» من هذا التدفق للعذاب النســـائي، لكن بطريقة ناعمة ومرنة لمحنك متمرس في مهنة الخدمة، يعرض على الســـيدة بوين أي مســـاعدة يمكن أن يقـــوم بها. بعد عدة دقائق، تعود إيفا إلى الطابق العاشـــر، تتحدث مع الخادمة المكسيكية المسؤولة عن تنظيف الحجرة ١٠٤٦، تخبرها المـــرأة بأن علامة «ممنوع الإزعاج» كانـــت معلقة على مقبض الباب خـــارج غرفة نيك طوال إقامته بالكامل، وأنهـــا لم تره أبدا تقريبا. بعد ذلك بعشـــر دقائق، تهبط إيفا السلالم إلى المطبخ وتتحدث مع «ليروي واشـــنطن»، مضيف خدمة النزلاء الذي قدم بعض الوجبات لنيك. يتعرف على زوج إيفا من الصورة ويضيف أن السيد بوين كان ســـخيا في إعطاء البقشـــيش، على الرغم من أنه لم يتحدث كثيرا وبدا «مشغولا ذهنيا» في شيء ما. تسأله إيفا إن كان بمفرده أم مع امرأة. بمفرده، يقول واشـــنطن. إلاّ إذا كانت هناك سيدة تختبئ في الحمّام أو خزانة الملابس، يواصل، لكن الوجبات كانت دائما لشخص واحـــد، إلى حد أن بإمكانه القول إن جانبا واحدا من الســـرير كان يتم النوم فيه دائمـــا. بعد أن تقوم بدفع فاتورة الفندق الخاصة به، وبعدما تتأكد تقريبا من أنه لم يهرب مع امرأة أخرى، تبدأ إيفا في

أن تشـعر بنفسـها ثانية كزوجة، زوجة ناضجة تحارب للعثور على زوجها وإنقاذ زواجها. لا تحصل على معلومات أخرى أكثر في أثناء المقابلات التي تجريها مع الموظفين الآخرين في حياة ريجينسـي. لا يمكنهـا أن تبدأ في تخمين المكان الذي من المحتمل أن يكون نيك قد ذهب إليه بعد مغادرته الفندق، ومع ذلك تشـعر بالحماس، كما لو أن معرفتها أنه كان هنا، في المكان نفسه حيث توجد الآن، يمكن أن تكـون علامة على أنه ليس بعيدا، حتى لو لم يكن في الأمر أكثر من تداخل موحى به، تطابق مكاني لا يعني شيئا.

لكن بمجرد أن تخرج إلى الشارع، تستولي عليها حالة من اليأس تحطمها مرة ثانية بسـبب وضعها. للحقيقة، يبقى أن نيك قد غادر دون كلمـة... تركها، ترك عمله، ترك كل شـيء خلفه في نيويورك، والتفسـير الوحيد الـذي يمكن أن تفكر هي فيـه أنه الآن مصاب بانهيـار، في غمرة انهيـار عصبي عنيف. هل العيـش معها جعله بائسا؟ هل هي هذا الشخص الذي دفعه إلى أخذ مثل هذه الخطوة العنيفـة، من الذي دفعه إلى حافة اليأس؟ نعم، تخبر نفسـها، ربما فعلت هي هذا به. وما يزيد الأمور سوءا، أنه لا يملك أي نقود. روح بائسـة نصف مجنونة، يهيم في أرجـاء مدينة غريبة من دون فلس في جيبه. وهذا أيضا خطؤها، تقول لنفسها، الأمور البائسة بأكملها من خطئها هي.

في ذلك الصباح نفسه، بينما تبدأ إيفا سلاسل جولات الاستفسار الفاشلة الخاصة بها، تدخل وتخرج من وإلى المطاعم والمحلات في وسـط البلد في كانساس سـيتي، تطير روزا ليتمان إلى البيت في نيويورك. تغلق باب شقتها في تشلسي في تمام الواحدة، وأول شـيء تـراه هو ملاحظة إيفا الملقاة على العتبـة. تفاجأ، تحتار من النبرة

العاجلة للرسالة، تسقط حقيبتها من دون أن تكلف نفسها عناء إفراغها، وتتصل على الفور بأول رقم من الرقمين المدونين في نهاية الملاحظة. لا أحد يجيب في شقة «بارو ستريت»، لكنها تترك رسالة على جهاز الرد التلقائي، تشرح فيها أنها كانت خارج البلدة ويمكن الوصول إليها الآن عن طريق تلفون منزلها. ثم تتصل بمكتب إيفا. تخبرها السكرتيرة بأن السيدة بوين تقضي بعض الأمور المتعلقة بالعمل في الخارج، لكن من المنتظر أن تتصل بها في وقت لاحق من بعد الظهر، وعندما تتصل، سيتم توصيل الرسالة إليها. تشعر روزا بالارتباك. التقت نيك بوين مرة واحد ة فقط ولا تعرف شيئا عنه. سارت المحادثة التي جرت في مكتبه بشكل جيد جدا إلى أبعد حد، تفكر، وحتى لو أحست بأنه قد انجذب إليها (أمكنها رؤية هذا في عينيه، شعرت به في الطريقة التي ظل ينظر بها إليها)، فقد كان سلوكه متحفظا ومهذبا، حتى في ما يتعلق بأتفه الأمور. رجل بائس أكثر من كونه عدوانيا، تتذكر، بمسحة حزن واضحة تحيط به. متزوج، تدرك الآن، ولذلك فهو محظور، مستبعد من التفكير. لكنه مؤثر بطريقة ما، نوع متعاطف ذو غرائز طيبة.

تفرغ حقيبتها وتتفحص رسائلها البريدية قبل أن تستمع إلى جهاز الرد التلقائي. كانت الساعة تقترب من الثانية في ذلك الوقت، وأول شيء يبدأ هو صوت بوين، يعلن حبه لها ويطلب منها أن تلحق به في كانساس سيتي. تقف روزا متجمدة تماما، تنصت في حيرة وخشية. اهتزّت من الداخل جدا بما يقوله لها نيك، لدرجة أنها كان عليها أن تسترجع الشريط حتى نهاية الرسالة مرتين إضافيتين قبل أن تتأكد من أنها قد دونت رقم إد فيكتوري بطريقة سليمة - على الرغم من الانتظام التدريجي للأرقام التي يتكون منها الرقم

المستحيل نسيانه. يستولي عليها إحساس مغر بأن توقف الجهاز وتتصل بكانساس سيتي على الفور، لكنها تقرر بعد ذلك المرور على الرسائل الأربع عشرة الأخرى لترى إن كان نيك قد اتصل بها ثانية. وقد فعل. يوم الجمعة، ومرة أخرى يوم الأحد. «آمل ألا يكون الخوف قد انتابك لما قلته في المرة السابقة»، هكذا تبدأ الرسالة الثانية، «لكنني كنت أقصد كل كلمة فيها. لا يمكنني الانصراف عنك. أنت في أفكاري طوال الوقت، بينما يبدو أنك تخبرينني بأنك غير مهتمة - أي شيء يعنيه صمتك غير هذا؟ - سوف أقدّر هذا إذا قمت بالاتصال بي. إن لم يكن ثمة شيء آخر، فبإمكاننا التحدث عن كتاب جدتك. استخدمي رقم إد، الرقم الذي أعطيته لك من قبل: ٤٣٢١ - ٨٦٥ - ٨١٦. بالمناسبة، هذه الأرقام ليست اعتباطية. طلبها إد عن عمد. يقول إنها استعارة مجازية - لكنني لا أعرف لأي شيء. أعتقد أنه يريد مني أن أكتشف هذا بنفسي». الرسالة الأخيرة هي الأقصر في الرسائل الثلاث، يبدو أن نيك في ذلك الوقت قد يئس منها. «إنه أنا»، يقول، «امنحي الأمر فرصة أخيرة. من فضلك اتصلي، حتى ولو لتقولي إنك غير راغبة في التحدث».

تطلب روزا رقم إد، لكن لا أحد يرد على الطرف الآخر، وبعد أن تترك الهاتف يرن لما يزيد على عشر مرات، تستنتج أنه آلة قديمة، وغير مزود بجهاز رد تلقائي. من دون أن تأخذ وقتا لتختبر ما تشعر به (لا تعرف حتى ما تشعر به)، ترفع روزا سماعة الهاتف وهي مقتنعة بأن عليها واجبا أخلاقيا للاتصال ببوين، وأن ذلك يجب أن يتم بأسرع ما يمكن. تفكر في إرسال برقية، لكن عندما تتصل بالدليل وتطلب عنوان إد، تخبرها العاملة بأن رقمه غير مدرج في القائمة، الأمر الذي يعني أنها لا يمكنها إعطاء تلك

المعلومــة. تحــاول روزا الاتصال بمكتب إيفا مــرة ثانية، وهي تأمل أن تكــون زوجة نيك قد اتصلت الآن، لكن الســكرتيرة تخبرها بأنه ليست ثمة أخبار جديدة، وبينما يحدث هذا، تكون إيفا غارقة تماما في مأســاتها في كانساس سيتي، حتى أنها تنسى الاتصال بمكتبها لعــدة أيام، وفي الوقت الــذي تتصل فيه فعلا بالســكرتيرة، تكون روزا نفســها قد غادرت، ورحلت في طريقها إلى كانســاس ســيتي مســتقلة حافلة «جراي هاوند». لمــاذا تذهب؟ لأنها، على مدار تلك الأيام الفائتة، اتصلت بــإد فيكتوري لما يقرب من مئة مرة، ولم يرد أحد على الهاتف. لأنها في ظل عدم وجود أي اتصال آخر من نيك، جعلت نفســها تعتقــد وتصدق أنه في ورطة، ربما مشــكلة خطيرة تهدد حياته. لأنها شــابة ومغامرة ولا تعمل في الوقت الحالي (من بين أعمالها العمل رسّامة للرسوم التوضيحية) وربما - بإمكان المرء فقــط أن يتأمل في هذا - فهي متيمة بفكرة أن رجلا تعرفه مجرد معرفة سطحية اعترف لها بصراحة بأنه غير قادر على التوقف عن التفكير فيها، وأنها أوقعت رجلا في حبها من النظرة الأولى.

عودة إلى يوم الأربعاء السابق، إلى بعد الظهر، عندما صعد بوين ســلالم بنسيون إد وعُرض عليه العمل مساعدا في مكتب المحافظة التاريخيــة، عندئذ قمت باســتئناف تســجيل أحــداث فلتكرافت الكرونولوجية لهذا اليوم السابق.

ينتهي إد من «تزرير» بنطاله، يلقي بسيجارته البول مول المدخنة جزئيــا بعيدا، ويقود نيك عبر الســلالم إلى أســفل. يخرجان إلى برودة الربيع المبكرة بعد الظهر، ويواصلان الســير لتسعة أو عشرة شوارع، وينعطفان إلى اليسار، ينعطفان إلى اليمين، يشقان طريقهما ببطء خلال شبكة من الطرق الخربة حتى يصلا إلى ساحة للماشية

قرب النهر، الحد المائي الذي يفصل جانب الميسوري من المدينة عن جانب كانساس. يستمران في السير إلى أن يصبح الماء أمامهما مباشرة، لم يعد هناك المزيد من المباني على مرمى البصر ولا يوجد شيء آخر أمامهما عدا نصف دستة من مجموعات خطوط السكة الحديد، التي يمتد بعضها في موازاة البعض الآخر ويبدو أنها لم تعد صالحة للخدمة، في ضوء حالة القضبان المتأكسدة والعديد من الروابط المكسرة المكومة في كل مكان مع الحصى والقاذورات. تهب الريح العاتية خارج النهر بينما يحاول الرجلان تخطي المجموعة الأولى من القضبان، ولا يستطيع نيك التوقف عن التفكير في الريح التي كانت تعصف عبر شوارع نيويورك ليلة الاثنين، قبل أن يسقط المزراب مباشرة من المبنى ويكاد يودي بحياته. محشرج من إجهاد سيرهما الطويل، يتوقف إد فجأة في أثناء عبورهما المجموعة الثالثة من القضبان ويشير إلى أسفل في الأرض. مربع خشبي غير مطلي تركت عليه عوامل التعرية آثارها، مطمور في الحصى، نوع من الباب الأرضي أو باب مسحور أفقي (يفتح لأعلى)، وهو ينسجم من دون نشاز وبطريقة غير متطفلة مع المكان والبيئة من حوله فهو غير ظاهر إلى درجة أن نيك يشك في إمكان أن يلاحظه من تلقاء نفسه. من فضلك كن كريما بدرجة كافية وارفع ذلك الشيء بعيدا عن الأرض وضعه جانبا، يطلب منه إد. كنت سأفعل هذا بنفسي، لكنني أصبحت بدينا جدا هذه الأيام، لا أعتقد أنني يمكن أن أنحني إلى أسفل بعد ذلك من دون أن أسقط على الأرض.

ينفذ نيك طلب صاحب عمله الجديد، وبعد لحظة يهبط الرجلان سلما حديديا مثبتا إلى جدار إسمنتي. يصلان إلى عمق حوالي اثنتي عشرة قدما تحت الأرض. مستعينا بالضوء الساطع خلال

الباب المفتـوح فوق، يتبين نيك أنهما داخل ممـر ضيق، يواجهان بابا خشبيا عاريا. لا يرى نيك مقبضا أو يدا، لكن هناك قفلا في الجانب الأيمن من الباب في مستوى الصدر. يأخذ إد مفتاحا من جيبه ويدخله في فتحة القفل في أسفل الغطاء الخارجي. بمجرد تحـرر الآلة الزنبركية وإمسـاك القفل في يـده، يحرك الترباس بإبهامه ويسـحب النهاية المحررة لظهر القفل خلال عين المشـبك المثبت في الإفريز. إنها حركة سلسـة واحترافية متمرسة. يدرك نيك، بالتأكيد هذا نتاج زيارات كثيرة لهذا المخبأ الأرضي شـديد الرطوبة على مدار سـنوات. يعطي إد الباب دفعة صغيرة، وبينما يتأرجـح منفتحا يمعن نيـك النظر في الظـلام أمامه، غير قادر على رؤية شـيء. يلكزه إد برفق لينحيه جانبا، يجتاز العتبة، وبعد لحظة يسـمع نيك صوت طقطقة مفتاح إنـارة، ثم طقطقة ثانية، ثـم ثالثة، وربما حتى رابعة. في سلسـلة مـن الانقطاع والاتصال المتعاقـب للومضـات وطنين الذبذبـات، تبدأ عـدة صفوف من المصابيح الفلورسـنت في السـقف تدريجيا فـي الإضاءة، ويجد نيك نفسـه ينظر إلى مخزن كبير، مكان مغلق بلا نوافذ مساحته تقريبا خمسون قدما في ثلاثين. صفوف محكمة من أرفف الكتب ممتـدة على طـول الأرضية، تملأ المكان بالكامـل، أرفف معدنية رمادية، ترتفع حتى السـقف، الذي في مـكان ما على ارتفاع بين تسع أو عشر أقدام. لدى بوين انطباع بأنه قد دخل إلى ركام كبير لمكتبة سـرية، مجموعـة من الكتب المحظورة حيث لا أحد سـوى المتخصصين يمكن أن يُوثق بهم أن يقرؤوها.

مكتب المحافظة التاريخية، يقول إد، بتلويحة صغيرة من يده، ألق نظرة. انظر كما تحب، لكن لا تلمس شيئا.

الظروف عجيبة جدا وغريبة، مختلفة جدا عن أي شيء كان نيك يتوقعه، لم يكن باستطاعته أن يبدأ في التخمين بشأن ما هو مخبوء هنا ويمكن أن يحدث له. يمشي حتى نهاية الممر الأول ويكتشف أن الأرفف مكتظة بأدلة التلفون. المئات من أدلة التلفون، الآلاف من أدلة التلفون، تم ترتيبها أبجديا بحسب اسم المدينة ومصفوفة وفقا لترتيب زمني. يحدث أن يجد نفسه أمام الصف الذي يحتوي على بالتيمور وبوسطن. يفحص التواريخ على كعوب الأدلة، يرى أن أقدم أدلة بالتيمور يرجع إلى ١٩٢٧، هناك عدة فجوات بعد ذلك، لكن بدءا بعام ١٩٤٦ تتواجد المجموعة كاملة حتى السنة الحالية ١٩٨٢، أول أدلة بوسطن أكثر قدما، يرجع إلى ١٩١٩، لكن مرة أخرى هناك عدد من الإصدارات المفقودة حتى ١٩٤٦، في حين تبدأ جميع السنوات في الوضوح. على أساس هذا، وهو دليل ضعيف. يخمّن نيك أن إد بدأ اقتناء المجموعة في ١٩٤٦، في السنة التي تلت نهاية الحرب العالمية الثانية، والتي تصادف أن ولد فيها بوين نفسه. ستة وثلاثون عاما مكرسة لمهمة شاسعة تبدو بلا معنى، حيث تتطابق بالضبط مع مدة حياته هو.

أطلانطا، بافالو، سينسيناتي، شيكاغو، ديترويت، هيوستن، كانساس سيتي. لوس أنجلوس، ميامي، مينابوليس، أقاليم نيويورك الخمسة، فيلادلفيا، سانت لويس، سان فرانسيسكو، سياتل- كل مدينة كبيرة أو عملاقة موجودة أدلتها جنبا إلى جنب مع أدلة عشرات المدن الأصغر، المقاطعات الريفية في ألاباما، البلدات الضواحي في ضاحية كونيكتيكت، والأقاليم غير المتحدة في ماين. لكن أمريكا ليست نهاية المطاف. هناك أربعة من الأربعة وعشرين صفا مزدوجا من خزائن الكتب المعدنية العالية جدا خصصت لمدن وبلدات في

البلاد الأجنبية. هذه المحفوظات ليست كاملة أو تفصيلية كنظيراتها من الأدلة المحلية، لكن بالإضافة إلى كندا والمكسـيك، معظم الدول من غربي وشرقي أوروبا موجودة: لندن، مدريد، ستوكهولم، باريس، ميونخ، براغ، بودابسـت. لاندهاشـه. يرى نيك أن إد قد تمكن من الحصول على دليل تليفونات وارسو الذي يرجع إلى ١٩٣٧/١٩٣٨: Spis Abonentow Warszawskiej Sieci TELEFONOW. بينمـا يحارب نيك إغراء جذبه له من على الرف، يخطر له أن كل شخص يهودي تقريبا مدرج في ذلك الدليل قد مات منذ فترة طويلة - قتل قبل أن تبدأ مجموعة إد على الإطلاق.

تسـتمر الجولة لمدة عشـر دقائق أو خمس عشرة دقيقة، وأينما يذهب نيك، يكون إد في إثره بابتسامة صغيرة على وجهه، مستمتعا بإرباك زائره. عندما يصلان إلى الصف النهائي للأرفف في النهاية الجنوبيـة للحجرة، يقول إد في النهاية: الرجل متحير ومرتبك. إنه يسأل نفسه ما الذي يحدث بحق السماء؟

ليس ثمة طريقة أخرى للسؤال غير هذه. يجيب نيك.

هل توجد أفكار - أم فقط مزيد ومزيد من الحيرة والارتباك؟

لست متأكدا، لكنّ لديّ انطباع بأن الأمر ليس مجرد لعبة بالنسبة إليك. أعتقد أنني أفهم هذا كثيرا. أنت لست بالشخص الذي يجمع لأجل الجمع. أغطية الزجاجات، علب السـجائر، منافض السجائر الخاصـة بالفنادق، تماثيل زجـاج لأفيال. يقضي النـاس أوقاتهم يبحثون عن جميع أنواع المهملات وسـقط المتاع. لكن أدلة التليفون هذه ليست مهملات. إنها تعني شيئا ما بالنسبة إليك. هذه الحجرة تحتوي على العالم، يجيب إد، أو على الأقل، على جزء منه. أسـماء الأحياء والأموات. مكتب الحفظ التاريخي بيت للذاكرة، لكنه أيضا

ضريح لمن يعيشــون حاليا. بإحضار هذين الشــيئين معا في مكان واحد، أثبت لنفسي أن هذه البشرية لا تنتهي.

لا أعتقد أنني أفهمك.

رأيــت نهاية كل الأشــياء. رجل صعقه البــرق. نزلت في أعماق أحشــاء الجحيم، ورأيت النهاية. عندما تعود من رحـلة مثـل هـذه، لا يهم إلى متى ستعيش، فسوف يكون جزء منك ميتا دائما.

متى حدث هذا؟

أبريــل ١٩٤٥، كانت وحدتي في ألمانيــا، وكنا الفرقة التي قامت بتحرير داكاو. ثلاثون ألف هيكل عظمي يتنفســون. لابد أنك رأيت الصــور، لكن الصــور لا تخبرك بما كان عليــه الأمر في الحقيقة. يجب عليك أن تذهب إلى هناك وتشــمه بنفســك، يجب عليك أن تكون هناك وتلمسه بيديك. بشر فعلوا ذلك ببشر مثلهم، وفعلوا هذا بضمير مســتريح. كانت تلك نهاية البشــرية، أيها السيد ذو الحذاء الأنيق، وكنت أنا هناك لأكون شاهدا على هذا.

كم مكثت في المعسكر؟

شــهرين. كنت طباخا، لذلك أجيد تفاصيل الطبخ. كانت وظيفتي هــي إطعام الناجين. أنا متأكد من أنك قد قرأت قصصا عن كيف أن بعضــا منهم لم يكن في وســعه التوقف عن تناول الطعام. أشــخاص يموتــون جوعى. يتوقون إلى الطعام لفتــرات طويلة جدا، لم يكن في مقدورهــم التوقف عن التهــام المزيد. أكلوا حتــى انفجرت بطونهم، وماتوا. المئــات منهم. في اليوم التالي، جاءت إلــيّ امرأة وطفل على ذراعيهــا. كانت هذه المرأة قد فقدت عقلها، كان بإمكاني أن أرى هذا مــن الطريقة التي كانت تواصل بهــا عيناها الدوران في محجريهما، نحيفــة جدا، مصابة بأنيميا حادة، لم يكن في وســعي أن أفهم كيف

تمكنت من البقاء واقفة على قدميها. لم تطلب أي طعام، لكنها أرادت مني أن أعطي الطفل بعض اللبن. كنت سعيدا بخدمتي لها، لكن عندما ناولتني الطفل، رأيت أنه كان ميتا، كان ميتا منذ أيام. كان وجهه ذابلا ومسودا، أكثر سوادا من وجهي أنا، شيء ضئيل جدا لا يكاد يزن شيئا، مجرد جلد ذابل صديد جاف وعظام لا تكاد تزن شيئا. واصلت المرأة الإلحاح في طلبها للبن، ولذلك صببت بعضا منه على شـفتي الطفل. لـم أعرف ما الذي كان بإمكاني أن أفعله غير ذلك. صببت اللبن على شـفتي الطفل الميت، ثم استعادت المرأة طفلها - سعيدة جدا، سعيدة جـدا إلى درجة أنها راحـت تدندن، كانت تغنـي تقريبا، فعلا، كانت تتغنى بهذا النوع من الهديل السـعيد. لا أعرف إن كنت قد رأيت من قبل من هو أكثر سعادة منها في تلك اللحظة، ومضت مبتعدة وطفلها الميت على ذراعيها، وهـي تغني لأنها نجحت أخيرا في إعطاء طفلها بعض اللبن. وقفت هناك أشـاهدها بينما كانت تغادر المكان. ترنحت إلى الأمام لحوالـي خمس ياردات، ثم التوت ركبتاها، وقبل أن أتمكن من الجري إلى هناك وإمسـاكها كيلا تسـقط على الأرض، كانت قد سقطت ميتة في الطين. كان هذا هو الأمر الذي جعلني أبدأ في هذا. عندما رأيت هذه المرأة تموت، عرفت أنه كان يجب عليّ أن أفعل شيئا ما. لم يكن من الممكن أن أذهب فقط إلى البيت بعد الحرب وأنسـى الأمـر. كان يجب عليّ أن أحتفظ بذلك المكان في رأسـي، أن أواصل التفكير فيه كل يوم مادمت على قيد الحياة.

لا يزال نيك لا يستطيع المتابعة أو الفهم. يمكن أن يدرك ويستوعب شـناعة ما عاشـه إد، ويتعاطف مع العذاب والرعب المستمرين في مطاردتـه، لكن تلك المشـاعر التي وجدت متنفسـا لهـا في عـمل أو مشـروع مجنون لجمـع أدلة التلفون أمر يسـتعصي عليَّ فهمه.

يمكـــن أن يتخيل مئـــات من الطرق الأخرى لترجمة خبرة معســـكر الموت إلى عمل يبقى مســـتمرا مدى الحياة، لكـــن ليس هذا العمل الغريب تحت الأرض في هذا المكان الممتلئ بأسماء أناس من أنحاء العالـــم. لكن من هو ليحكم على عاطفة رجل آخر؟ يحتاج بوين إلى العمل، وهو مستمتع بصحبة إد، وليست لديه أي وساوس بخصوص قضاء الأســـابيع أو الأشهر المقبلة يساعد إد في إعادة ترتيب نظام تخزين الكتب عديم الفائدة في ما يبدو مثلما هو ذلك العمل. يصل الرجلان إلى اتفاق في شـــأن مســـألة الأجر، والساعات، وغيرها، ثـــم يتصافحان لتوثيق العقـــد. لكن نيك لا يزال فـــي وضع محرج لاضطراره لطلب مبلغ تحت الحســـاب من الدخل المستقبلي. يحتاج إلى ملابس ومكان للعيش، والدولارات الستون الباقية في محفظته لا تكفـــي لتغطية تلك النفقات. لكن رئيســـه الجديد، على مســـافة خطوة منه. هناك محل «النيات الحسنة» لا يبعد ميلا من هنا حيث نقف، يقول، ويمكن لنيك أن يشتري ملابس جديدة ببضعة دولارات فقط بعد الظهر. ليس شـــيئا فخما، بالطبع، لأن العمل عنده سوف يتطلب ملابس خاصة للعمل، ليست حلة عمل غالية، بالإضافة إلى ذلك، أن لديه بالفعل هذه الحلة الغالية التي يرتديها، وإذا شعر في أي وقت بالرغبة في الخروج إلى المدينة، كل ما ســـيتعين عليه فعله هو أن يعود إلى ارتدائها.

حُلَّت تلك المشكلة، يحل إد على الفور مشكلة السكن أيضا. هناك شـــقة ذات حجرة واحدة من بين ملحقات هذا المكان نفســـه، يخبر نيك، وإذا لم يرتعب بوين من فكرة قضاء الليالي تحت سطح الأرض، فعلى الرحب والســـعة يمكنه البقاء فيها ومن دون مقابل. يشير إلى نيك أن يتبعه، يتهادى إد أســـفل أحد الأكوام في المنتصف، متحركا

بحرص على عقبيه المتورمين المتقرحين حتى يصل إلى حائط من الطوب الرمادي في الحد الغربي من الحجرة. كثيرا ما أبقى هنا مع نفسي، يقول، وهو يضع يده في جيبه ويخرج منها مفاتيحه. إنه مكان مريح.

نظرا إلى أن الباب المعدني المثبّت في الجدار في مستوى السطح، ومن الظل الرمادي نفسه كالجدار نفسه، فلم يتمكن نيك من ملاحظته أبدا عندما سار قبل دقائق قليلة متجاوزا هذا المكان. مثل باب الدخول الخشبي في الطرف الآخر من الحجرة، ليس لهذا الباب أي مقابض أو مماسك، وينفتح إلى الداخل بدفعة خفيفة من يد إد. نعم، يقول نيك، بأدب عندما يخطو إلى الداخل، إنه مكان مريح، على الرغم من أنه يجد الحجرة كئيبة إلى حد ما. عارية ومؤثثة بأشياء بسيطة تماما مثل سكن إد في البنسيون. لكن كل الأشياء الأساسية موجودة هناك - باستثناء النافذة، بالطبع، كمكان للتطلع منه. سرير، ومنضدة، وكرسي، وثلاجة، ولوح تسخين، مرحاض بسيفون، دولاب ممتلئ بسلع معلبة. المكان ليس فظيعا جدا، حقا، وفي النهاية ما الاختيار الذي لدى نيك سوى قبول عرض إد؟ يبدو إد مسرورا برغبة بوين في البقاء هناك، وبينما كان يقفل الباب وأثناء عودة الرجلين مباشرة إلى حيث السلم الذي سيصعد بهما إلى السطح ثانية، يقول لنيك إنه بدأ في بناء الحجرة منذ عشرين سنة. عودة إلى خريف اثنين وستين، يقول، في منتصف أزمة الصواريخ الكوبية. اعتقدت أنهم كانوا سيسقطون أكبر الصواريخ فوق رؤوسنا، واعتقدت أنني كنت بحاجة إلى مكان للاختباء فيه تمام الاختباء. أنت تعرف، يمكن لك أن تسميه مكانا للاختباء من القنابل الذرّية والغبار الذري.

بالضبط. لذلك اخترقت الجدار وأضفت الحجرة الصغيرة. انتهت هذه الأزمة قبل أن أنتهي من إكمال الحجرة، لكنك لا تعرف أبدا، أليس كذلك؟ هؤلاء المجانين الذين يديرون العالم قادرون على فعل أي شيء.

يشعر نيك بدفقة فزع طفيف عندما يسمع إد يتحدث بهذه الطريقة. ليس لأنه لا يشاركه الرأي في حكام العالم، لكنه يتساءل الآن إن كان يتعاون مع شخص مختل قلق، غير متوازن مزعزع ومهووس. يخبل العقل. إنه احتمال أكيد، يقول لنفسه، لكن إد فيكتوري هو الرجل الذي ساقه القدر إليه، وإذا انتوى التقيد بمبادئ سقوط المزراب، فيجب عليه أن يستمر ويواصل في الاتجاه الذي سار فيه - بخيره وشره. وإلاّ، فإن رحيله عن نيويورك سيصبح علامة طفولية جوفاء. إذا لم يكن بمقدوره أن يقبل ما يحدث، أن يتقبله ويعانقه بتفاعل، فينبغي عليه أن يعترف بالهزيمة ويتصل بزوجته ليخبرها بأنه عائد إلى البيت.

في النهاية، يتضح أن هذه المخاوف في غير محلها. تمر الأيام، وبينما يعمل الرجلان معا في القبو أسفل قضبان السكة الحديد، يحملان أو يجرّان بمشقة أدلة التلفون ذهابا وإيابا عبر الحجرة في صناديق التفاح الخشبية المحملة فوق عربة يد بدائية عبارة عن زوج من أحذية التزلج ذات العجلات. يكتشف نيك أن إد لا يعدو أن يكون مجرد شخص راسخ الإيمان، رجل صادق الوعد. لا يطلب من مساعده أن يتحدث معه بوضوح أو يحكي له قصته أبدا، ويتزايد إعجاب نيك بذلك التعقل الحذر، خاصة في شخص ثرثار مثل إد، كائن ينبعث منه الفضول تجاه كل ما يتعلق بالعالم. بيد أن سلوكيات إد مهذبة جدا، في الحقيقة، إلى درجة أنه **حتى**

لم يسأل نيك عن اسمه أبدا. في وقت ما، يذكر بوين إلى رئيسه أن بإمكانه أن يناديه بـ «بيل»، لكنه فهم أن الاسـم مخترع، لم يتضايق إد كثيرا، مفضلا أن يخاطب موظفه برجل البرق، نيويورك، والسيد ذو الحذاء الأنيق، كان نيك راضيا تماما بهذا الترتيب. مرتديا ثيابا مختلفة حصل عليها من مخزن محل النيات الحسـنة (قمصان من الفلانيل، بنطلونات جينز كاكية اللون، جوارب بيضاء تيوب، وأحذية مطاطية خفيفة بالية)، يتسـاءل عن الناس الذين كانوا يمتلكون في الأصل الملابس التي يلبسـها الآن. يمكن أن تأتي الملابس المستعملة القديمة(البالـة أو المتـروكات) من مصدر أو مصدريـن، وقد يتم التخلص منها لسـبب أو سببين. يفقد الشـخص الاهتمام بالملبس ويتبرع به لمؤسسـة خيرية، أو بموت الشـخص، ويتخلص ورثته من ممتلكاته مقابل تخفيض ضريبي ضئيل. يهتم نيك بفكرة السير هنا وهناك مرتديا ملابس رجل ميـت. الآن بعد أن توقف عن الوجود، يبدو مناسـبا ارتـداء ملابس من دولاب إنسـان توقف عن الوجود بطريقة مماثلـة - كما لو أن ذلك العدم المزدوج يجعل محو ماضيه أشد تأكيدا، وأكثر دواما.

لكـن مع ذلك يجب أن يبقى بوين يقظا. فهو وإد يأخذان فترات راحة متكررة بينما يعملان، وفي كل مرة يقطعان عملهما يستمتع إد بتمضية الوقت في التحادث، قاطعا ملاحظاته في الغالب بجرعات مـن علب البيـرة. يعلم نيك عـن ويلامينا، زوجـة إد الأولى، التي اختفت فـي عام ١٩٥٣ مع بائع خمور من ديترويت، وعن روشـيل، خليفة ويلامينا، التي أنجبت له ثلاث بنات ثم ماتت بسـبب متاعب فـي القلب في ١٩٦٩، يجد بوين إد راويـة جذابا، لكنه تحفظ عن أي أسئلة محرجة يوجهها إلى إد - حتى لا يفتح الطريق ليُسأَل هو

بالتالي أي أسئلة عن نفسه. أقاما في ما بينهما ميثاقا من الصمت بألاّ يتطرق أحدهما إلى أسرار الآخر، وكثيرا ما كان نيك يرغب في معرفة إن كان إد فيكتوري هو الاسـم الحقيقي، على سـبيل المثال، أو أنه يمتلك هذا المكان التحت-أرضي الذي يؤوي مكتب المحافظة التاريخية أم وضع يده عليه ببسـاطة من دون أن يتم الإمسـاك به من جانب السـلطات، لا يقول شـيئا عن هذه الأمور ويرضي نفسه بالاستماع إلى ما يعرضه إد بنفسه بمحض إرادته. أخطر اللحظات هي عندما يكون نيك على وشـك أن يفلت منه لسانه، وفي كل مرة يحدث هذا، يحذّر نفسـه بان يبقى على حذره أكثر مراقبا ما ينطق بـه. ذات مرة بعد الظهر، عندما كان إد يتحدث عن خبراته كجندي في الحرب العالمية الثانية، يأتي على ذكر اسـم جندي شاب انضم إلى فرقته في أواخر أربعة وأربعين، جون تروس. كان يبلغ من العمر ثمانية عشـر عاما فقط، يقول إد، لكنه أسـرع وأذكى صبي رآه إد طوال حياته. إنه كاتب مشهور الآن، يواصل إد، ولا عجب عندما تفكر في كم كان ذهن ذلك الولد حادا. وهنا كان بوين على وشك الانزلاق إلى زلّة كارثية. أنا أعرفه، يقول، وعندما يرفع إد رأسه ويسأل كيف حال جون هذه الأيام، يخفي نيك على الفور آثار ما اقترفه بإيضاح العبارة. ليس بصفة شـخصية، يقول، كنت أقصد كتبه، قرأت كتبه، وعندئذ انتهى الموضوع عند ذلك الحد وانتقلا إلى التحدث في أمور أخرى. لكـن الحقيقة أن نيك يعمل مع جون وهو المحرر المسـؤول عما تم طبعه وما تحت الطبع من كتبه. منذ حوالي شهر واحد، في الحقيقة، انتهى من العمل فـي مجموعة من الأغلفة الجديدة التي تم تكليفـه بإعدادها خصيصا للطبعـات الورقية الغلاف الخاصة بروايات تروس. عرفه لسنوات، وكان السبب الرئيسي لتوقيعه عقد

العمل في الشركة التي يعمل بها (أو كان يعمل بها حتى أيام قليلة) هو أن روايات جون تروس كانت تنشر هناك.

يبدأ نيك في العمل مع إد صباح الخميس، ومهمة إعادة ترتيب أدلة التلفون ثقيلة جدا، ضخمة جدا في ما يتعلق بالتعامل مع الأوزان - حجم وثقل إصدارات لا تعد ولا تحصى من المجلدات ذوات ألوف الصفحات التي تُسحب من الأرفف، ونقلها إلى أماكن أخرى من الحجرة، ووضعها على أرفف جديدة - ذلك التقدم في بطء، أبطأ كثيرا مما كانا يضعانه في الحسبان. يقرران العمل بشكل متواصل خلال عطلة نهاية الأسبوع، وبحلول يوم الأربعاء من الأسبوع التالي (اليوم نفسه الذي تدخل فيه إيفا محلا لتصميم البوستر الذي سيعلن خبر زوجها المفقود، والذي يتفق أيضا أن يكون اليوم نفسه الذي تعود فيه روزا إلى نيويورك وتستمع إلى رسائل بوين الملهوفة على جهاز الرد التلقائي)، يصبح نيك أكثر قلقا على صحة إد إلى حد الإصابة بحالة من التوتر والضيق الشامل. السائق السابق البالغ من العمر سبعة وستين عاما، ووزنه على الأقل سبعة وستون رطلا. يدخن ثلاث علب من السجائر غير المفلترة يوميا ويعاني متاعب في السير، ومتاعب في التنفس ومتاعب بالغة في كل شريان من شرايينه المختنقة بالكوليسترول. صار بالفعل ضحية أزمتين قلبيتين حتى الآن، إن أموره ليست على ما يرام للقيام بالعمل الذي يحاولان أن يؤدياه هو ونيك حتى هبوط السلم يوميا يتطلب منه مجهودا ضخما من التركيز والإرادة، يستنفد قوته إلى درجة أنه كان يقدر بصعوبة بالغة على التنفس عندما يصل إلى أعلى أو إلى القاع صعودا أو هبوطا. كان نيك مدركا لهذا منذ البداية وكان يحث إد على أن يجلس ويستريح، مؤكدا له أنه قادر على القيام

بالعمل بمفرده، لكن إد رجل عنيد، رجل له رؤية، وبعدما يكون حلمه الخاص بإعادة ترتيب متحفه الخاص بأدلة التلفون قيد التنفيذ أخيرا، يتجاهل نصيحة بوين ويهب لمساعدته كلما تسنح الفرصة. صباح الأربعاء، تأخذ الأمور في النهاية انعطافة أكثر مأساوية. يعود بوين من رحلة في الطرف الآخر من الحجرة بأحد صناديق التفاح الفارغة يجره خلفه ويجد إد جالسا على الأرضية مائلا على إحدى خزائن الكتب. عيناه مغلقتان، ويده اليمنى تضغط بإحكام على قلبه.

آلام في الصدر. يقول نيك، وهو يصل بسرعة إلى التشخيص الواضح. ما مدى سوئها؟

فقط أمهلني دقيقة، يقول إد. سأكون على ما يرام.

لكن نيك يرفض ذلك القول كإجابة ويصر على اصطحاب إد إلى عيادة الطوارئ في أقرب مرفق طبي. بعد إبداء إشارة احتجاج قصير، يوافق إد على الذهاب.

ينقضي أكثر من ساعة قبل أن يجلس الاثنان في المقعد الخلفي لإحدى سيارات الأجرة في طريقهما إلى مستشفى القديس أنسلم الخيري. أولا، كان هناك عمل مضن لدفع جسم إد الضخم العريض إلى أعلى السلم وإخراجه من أسفل؛ ثم، هناك أيضا التحدي اليائس لاصطياد سيارة أجرة في ذلك الجزء المثير للاشمئزاز والمهجور من تلك المدينة. يجري نيك لمدة عشرين دقيقة قبل أن يتمكن من العثور على تلفون يعمل بالعملة، وعندما ينجح في النهاية في الاتصال مع شركة الأحمر والأبيض لسيارات الأجرة(التي كان إد يعمل بها من قبل)، تستغرق السيارة خمس عشرة دقيقة أخرى قبل أن تحضر. يطلب نيك من السائق أن يتجه إلى حيث قضبان السكة الحديد

قـــرب النهر. يلتقطـــان إد الذي خارت قواه، والذي كان يســـترخي ممددا بين قطع الخشـــب المحترقة جزئيا في ألم شـــديد (لكنه لم يفقد الوعي بعد)، حتى الآن يتحكم في نفســـه بدرجة تكفي ليطلق نكتتين، بينما يســـاعدانه في الدخول إلى سيارة الأجرة، والانطلاق إلى المستشفى.

تبـــرر هذه الطوارئ فشـــل روزا ليتمان فـــي الوصول إلى إد عن طريق الهاتف في ما بعد فـــي ذلك اليوم. بطاقة التعريف الخاصة بالرجل تبين أن اسمه فيكتوري، لكن رخصة قيادته وبطاقة الرعاية الطبية تبين أن اســـمه هو جونســـون، وقد عانى مـــن أزمته القلبية الثالثة. في الوقت الذي كانت روزا تتصل به من شقتها في نيويورك، كان بالفعل محتجزا في وحدة العناية المركزة في مستشفى القديس أنســـلم، وبناء على البيانات القلبية المكتوبة على الرسم البياني عند مؤخرة الســـرير، فإنه لن يتمكن من العودة إلى بنسيونه في أي وقت قريب. منذ ذلك الأربعاء وحتى تترك كانساس سيتي صباح السبت، تســـتمر روزا في الاتصال به طوال الوقت ليلا ونهارا، لكن لا يوجد أحد على الإطلاق هناك لسماع رنين الهاتف.

في سيارة الأجرة في الطريق إلى المستشفى، يفكر إد بالفعل في المســـتقبل، يعد نفسه لما تنبأ بأن يكون أخبارا سيئة، حتى لو تظاهر بأنه غير قلق. أنا رجل بدين، يقول لنيك. الرجال ذوو الأوزان الثقيلة لا يموتـــون أبدا. إنه أحد قوانين الطبيعة. يمكـــن للعالم أن يلكزنا، لكننا لن نشـــعر بشـــيء. حيث إن لنا كل هذا الحشو - لحمايتنا من لحظات مثل هذه.

يطلب نيـــك من إد أن يتوقف عن الـــكلام. ادَّخر قوتك، يقول، وبينمـــا يجاهد لاجتياز الألـــم الذي يكوي صدره واســـفل ذراعه

الأيسر وحلقه، يتحول بأفكاره إلى مكتب المحافظة التاريخية. ربما سـيتحتم عليّ قضاء بعض الوقت في المستشفى، يقول، ويحزنني التفكيـر في قطع العمل الذي بدأنـاه. يؤكد له نيك أنه راغب في مواصلة العمل بمفرده، وإد، متأثرا بمساعدته المخلصة، يغلق عينيه ليمنـع الدموع التي تتجمع فيهما عفويـا ويدعوه بالرجل الطيب. ثـم، لأنه ضعيف جدا للقيام بهذا بنفسـه، يطلـب إد من نيك أن يدس يده في جيوب بنطلونه ويخرج محفظته وسلسـلة مفاتيحه. يسـتخرجهما نيك من بنطلون إد البديـن، وبعد لحظة يطلب منه إد أن يفتـح المحفظة ويخرج النقود الموجـودة بداخلها. اترك لي عشـرين دولارا فقط، يقول، لكن خذ البقية لنفسك - تقدمة أجر مقابل خدمات يجري تقديمها - في ذلك الحين يعلم نيك أن اسم إد الحقيقي هو جونسون، لكنه يقرر بسرعة أن هذا الاكتشاف قليل الأهميـة ولم يدل بأي تعليـق. بدلا من ذلك، يقوم بعدّ المال، الذي يقترب من أكثر من ستمائة دولار ويضع الحزمة في الجيب الأيمن الأمامـي لبنطلونه. بعد ذلك، في ما يشـبه الابتهال اللاهث وهو يجاهد ليتكلم بألم، يخبره إد بوظيفة كل مفتاح في السلسلة: الباب الرئيسي للبنسـيون، باب غرفته في الطابق العلوي، صندوقه في مكتب البريد المحلي، القفل الخاص بالباب الخشبي للمكتب، وباب الشـقة تحت الأرض بينما يدس بوين مفتاح شـقته في السلسلة، يقول له إد إنه ينتظر شـحنة كبيرة من أدلة التلفون الأوروبية هذا الأسـبوع، لذلك يجب أن يتذكر نيك القيام بمراجعة مكتب البريد يوم الجمعة. يخيم صمت طويل بعد تلك الملاحظة، بينما ينسحب إد إلى داخل نفسـه ويحارب ليلتقط أنفاسـه مـرة ثانية، كان إد قبل أن يصلا إلى المستشـفى مباشـرة، قد فتح عينيه ليخبر نيك

أنه يرغب في أن يقيم نيك في غرفته التي في البنسيون ويرحب به فيها عندما يرحل هو. يفكر نيك في الأمر للحظة ثم يرفض العرض. هذا كرم شديد منك، يقول، لكن ليست هناك حاجة لتغيير أي شيء. أنا سعيد بالعيش في جُحري.

يتسكع في المستشفى لعدة ساعات، يريد التأكد من أن إد قد تجاوز مرحلة الخطر قبل أن يغادر المستشفى. جراحة في الصمام الثلاثي تم تحديد موعد لها في الصباح المقبل، وعندما ينصرف نيك من القديس أنسلم في تمام الثالثة، يثق بأنه عندما يعود لزيارته بعد ظهر الغد، سيكون في طريقه للشفاء الكامل. أو هكذا جعله أطباء القلب يعتقد. لا يوجد شيء يقيني في عالم الممارسة الطبية، هذا أقل ما يمكن قوله عندما تصبح المسألة سكاكين تقطع في أجسام المرضى، وعندما إدوارد إم. جونسون، المعروف أكثر باسم إد فيكتوري، يلفظ أنفاسه الأخيرة على سرير العمليات صباح الخميس، فإن طبيب القلب نفسه ذلك الذي عرض على نيك مثل هذا التشخيص المبشر يمكن ألاّ يفعل شيئا أكثر من الاعتراف بأنه كان على خطأ في بشارته.

في ذلك الوقت. لم يكن نيك في وضع يسمح له بالتحدث مع الطبيب وسؤاله لماذا لم يفعلها صديقه. أقل من ساعة بعد أن يعود إلى الأرشيف تحت الأرض يوم الأربعاء، يرتكب بوين أحد أخطاء حياته العظيمة، ولأنه يفترض أن إد سوف يعيش - ويستمر في هذا الافتراض حتى بعد وفاة رئيسه - ليس لديه أي فكرة عن مدى فداحة الكارثة التي ألحقها بنفسه فعلا.

كل من سلسلة المفاتيح والمبلغ النقدي اللذين أعطاهما له إد في الجيب الأمامي الأيمن لبنطلونه عندما يهبط السلم إلى مدخل

المكتب. بعدما يحل نيك القفل عن الباب الخشبي، يضع المفاتيح في الجيب الأيسـر من البنطلون الكاكي القديم المستعمل الذي اشتراه من محل النيات الحسـنة. يتصادف أن يكـون هناك ثقب كبير في ذلك الجيب، وتنزلق المفاتيح مباشرة من خلاله، قطعت المسافة إلى أسفل ساقي نيك، واستقرت عند قدمه. ينحني ويلتقطها، لكن بدلا مـن أن يضعها ثانية في الجيب الأيمن، يبقيها في يده، يحملها إلى المـكان الذي يعتزم بدء العمل فيـه، ويضعها على أحد الأرفف أمام صف أدلة التلفون - ذلك حتى لا يجعلها تحدث انتفاخا في بنطلونه وتحتـك بفخذه كلما ذهب هنا وهناك في روتينه من النقل والحمل، وجلوس القرفصاء والنهوض. كان جو المكان تحت الأرض رطبا على وجه الخصوص ذلك اليوم. يعمل نيك لنصف سـاعة، يأمل في أن التحرك أو التمرين سـوف يدفئه، لكن البرودة تسـتقر بعمق أكثر في عظامه، وفي النهاية يقرر أن ينسـحب إلى الشـقة في مؤخرة الحجـرة، التي تم تجهيزها بسـخان كهربائي قابـل للحمل. يتذكر المفاتيح، يعود إلى المكان الذي ترك فيه السلسـلة، يمسك بها ثانية في يده. لكن بدلا من أن يمضي مباشرة إلى الشقة، يبدأ في التفكير في دليل تلفون وارسـو الذي يرجع إلى عام ١٩٣٧/١٩٣٨الذي لفت انتباهه في أول مرة زار فيها المكتب مع إد. يسير إلى نهاية الحجرة ليبحث عنه، يرغب في أخذه معه إلى الشـقة لتفحصه أثناء راحته. مـرة ثانية، يضع المفاتيح على أحد الأرفف، لكن هذه المرة، ينسـيه الاسـتغراق في بحثه عن الدليل أن يأخذها معه بعدما يتعرف على مكان المجلد. في الظروف العادية، لم يكن ليتسبب هذا في مشكلة. كان سـيحتاج إلى المفاتيح لفتح باب الشقة، وبمجرد إدراكه لخطئه ونسيانه سوف يرجع لإحضارها. لكن ذلك الصباح، في غمرة الجنون

الذي تلا انهيار إد المفاجئ، ترك الباب مفتوحا، وبينما يمشـــي نيك نحــو ذلك الباب المفتوح الآن، وهــو يقلب في صفحات دليل تليفون وارسو ويفكر في بعض القصص الرهيبة التي حكاها له إد عن عام ١٩٤٥، يتشـــتت بدرجة تكفي لعدم تركيز انتباهه على ما يفعله. إذا كان قد فكر في المفاتيح على الإطلاق، فســـوف يكون موقنا أنه قد وضعها في جيبه الأيمن، ولذا يمضي مباشـــرة إلى الحجرة، يضيء الضوء العلوي، ويركل الباب مغلقا إياه خلفه - بذلك يحبس نفســـه فـــي الداخل. قام إد بتركيب هذا الباب ليكون ذاتي القفل، فبمجرد أن يدخل شـــخص تلك الحجرة ويغلق بابها، لا يمكنه الخروج ثانية إلاّ إذا استخدم مفتاحا لفتح الباب من الداخل.

لأنـــه يتصـــور أن المفاتيح في جيبه. لا يـــزال نيك غير مدرك لما فعله. يشغل السخان الكهربائي، يجلس على السرير، يبدأ في قراءة دليل تليفون وارسو بعناية بالغة، معطيا صفحاته الهشة التي صارت بنية اللون اهتمامه البالغ. تنقضي الســـاعات، وعندما يشـــعر نيك بالدفء بدرجة كافية للعودة إلى العمل، يدرك خطأه أخيرا. رد فعله الأول هو الضحك، لكن بينما يســـتوعب تدريجيا الحقيقة الفظيعة لما فعله بنفسه، يتوقف عن الضحك ويقضي الساعتين التاليتين في محاولة هستيرية لإيجاد طريقة للخروج من هناك.

هذا مخبأ ضد قنبلـــة هيدروجينية، وليس مجرد حجرة عادية، والحوائط المزدوجة معزولة بسمك أربعة أقدام، الأرضية الخرسانية تمتد تحته إلى مســـافة ســـت وثلاثين بوصة، وحتى السقف، الذي يعتقـــد بوين أنـــه المكان الأكثـــر عرضة للهجوم، مبنـــي بخليط من الجبس والأسمنت شديد الصلابة ليكون منيعا جدا. هناك فتحات تهويـــة بطول أعلـــى الجدران الأربعة، لكن بعـــد أن يتمكن بوين من

فصل إحدى النوافذ الشـبكية عن إطارها الضيق المثبتة فيه، يفهم أن الفتحة ضيقة جدا بالنسـبة إلى رجل ليزحف خلالها، حتى ولو كان رجلا صغيرا بعض الشيء مثله.

فوق سـطح الأرض، في شمس بعد الظهر المشرقة، تلصق زوجة نيك صور وجهه على جميع الجدران وأعمدة الإنارة في وسط البلد في كانسـاس سـيتي، واليوم التالي، عندما ينهض سـكان المنطقة الحضريـة الكبرى من أسـرتهم ويتوجهون إلـى مطابخهم لإعداد القهـوة ليتناولوها مع الإفطار، سـيصادفون الصورة على الصفحة السابقة في صحيفة الصباح: هل رأيت هذا الرجل؟

بعد أن اسـتنفده المجهود الذي بذله، يجلس بوين على السـرير ويحـاول بهدوء تقييم الوضع، وعلى الرغم من كل شـيء، يقرر أنه ليس هناك حاجة إلى الذعر. الثلاجة والدواليب بهما مخزون كاف مـن الطعام، هناك مخزون وفير من المـاء والبيرة في المتناول، وإذا ازدادت الأمور سـوءا، أكثر من هذا، يمكن الاقتصاد لأجل الصمود لأسـبوعين في بحبوحة نسبية. لكن لن تصل الأمور إلى تلك الفترة الطويلة، يقول لنفسـه، ولا حتى نصف تلك الفترة. سيكون إذ خارج المستشـفى خلال أيـام قليلة فقط، وبمجرد تحركه بما يسـمح له بهبوط السلم مرة ثانية، سيجيء إلى المكتب ويفك أسره.

بلا خيـار آخر متاح لديه، يسـتقر بوين فـي الداخل على أمل الخروج من حبسه الانفرادي، آملا في اكتشاف ما يكفي من الصبر والتحمل ليرفع مـن معنوياته إزاء مأزقه العبثي. يمضي الوقت في قـراءة مخطوطة «ليلـة التنبؤ» ويقرأ بعناية محتويـات دليل تلفون وارسو. يفكر ويحلم ويقوم بألف تمرين من تمارين الرياضة البدنية في اليوم. يضع خططا للمستقبل. يجاهد ألاّ يفكر في الماضي. على

الرغم من أنه لا يؤمن بالله، يقول لنفسه إن الله يختبره - وإنه يجب ألا يفشل في قبول بليته عن طيب خاطر ورباطة جأش.

عندما تصل حافلة روزا ليتمان إلى كانساس سيتي ليلة الأحد، يكون نيك في الحجرة منذ خمسة أيام. النجاة في الإمكان، يقول لنفسه، سوف يأتي إد في أي وقت الآن، بعد عشر دقائق من اعتقاده في تلك الفكرة، يتعطل مصباح الإضاءة العلوية عن العمل، وعندما يجد نفسه يجلس وحيدا في الظلام، يحدق في لفة السلك البرتقالية المتوهجة للسخان الكهربائي.

قال لي الأطباء إن شفائي معتمد على المحافظة على المواعيد المنتظمة والحصول على قسط كاف من النوم كل ليلة. كان العمل حتى الثالثة والنصف صباحا حركة ذهنية بالكاد، لكنني كنت أيضا مستغرقا تماما في الدفتر الأزرق لمتابعة تسلسل الأفكار والأحداث، وعندما زحفت إلى السرير إلى جانب جريس في الرابعة إلاّ ربعا، أدركت أنني من المحتمل أن أدفع ثمن حيودي عن نظامي المتبع. نزيف أنفي آخر، ربما، أو هجوم جديد من الرعشات، أو صداع طويل مكثف - شيء ما يكون كفيلا بلخبطة نظامي ويجعل اليوم التالي أصعب بدرجة كبيرة من معظم الأيام. لكن عندما فتحت عينيّ في التاسعة والنصف، لم أشعر بأي شيء سيئ عن المعتاد بالفعل عندما أستيقظ في الصباح. ربما الراحة ليست هي العلاج، قلت لنفسي، بل العمل. ربما كانت الكتابة هي التي ستجعلني معافى تماما مرة ثانية.

بعد نوبة غثيان جريس، افترضت أنها ستأخذ يوم الاثنين إجازة، لكن عندما مررت يدي إلى جهة اليسار لأرى إن كانت لا تزال نائمة، اكتشفت أن جانبها في السرير كان شاغرا. بحثت عنها في الحمّام، لكنها لم تكن هناك. عندما ذهبت إلى المطبخ، وجدت ملحوظة

موضوعة على المنضدة. أشعر أنني أفضل كثيرا، تقول، لذلك ذهبت إلى العمل. شكرا لكونك لطيفا معي جدا في الليلة الماضية. « أنت أعز الأحباب، يا سد، الفريق الأزرق بكل ما في الكلمة من معنى. ثم، بعد توقيع اسمها، أضافت تذييلا في أسفل الصفحة. أنا أنسى دائما. نفد الشريط اللاصق الذي لدينا، وأريد لف هدية عيد ميلاد أبي الليلة حتى تصل هذه الهدية في الميعاد. هل يمكن أن تشتري بكرة اليوم عندما تخرج لتتمشى؟

كنت أعرف أنه مجرد طلب صغير، لكن ذلك الطلب بدا أنه يرمز إلى أن كل شيء يسير على ما يرام مع جريس. عملت جريس كمصممة لدار نشر رائدة في نيويورك وإذا كان هناك شيء واحد تحتاج إليه شقتها، فسيكون الشريط اللاصق. جميع الموظفين الذين يؤدون أعمالا مكتبية تقريبا في أمريكا يسرقون من المكاتب. يسرقون بشكل روتيني، أقلاما جافة، وأقلام رصاص، ومظاريف، ومشابك ورق، وممامحي مطاطية، وقليلون منهم يشعرون بوخز ضمير مبهم على أعمال السرقة الصغيرة هذه. لكن جريس ليست واحدة من هؤلاء الناس. ليس لهذا علاقة بالخوف من أن يتم الإمساك بها: لم يخطر على بالها أبدا ببساطة أن تأخذ شيئا لا يخصها. ليس بسبب احترامها للقانون، ولا بسبب بعض الاستقامة المتزمتة، وليس لأن تعليمها الديني عندما كانت طفلة جعلها ترتعش بسبب كلمات الوصايا العشر، ولكن لأن فكرة السرقة كانت مخالفة لإحساسها بكينونتها، خيانة لكل غرائزها في ما يتعلق بكيف أرادت أن تعيش حياتها. ربما قد لا تؤيد المفهوم، لكن جريس كانت في ذاتها عضوا ثابتا متعصبا دائما للفريق الأزرق، وقد أسعدني اهتمامها إلى درجة أنها أثارت الموضوع ثانية في ملحوظتها. كانت هذه طريقة أخرى

لتقول لي إنها آسـفة على انفجارها الصغير في سيارة الأجرة ليلة السـبت، طريقة مميزة كليـة ومتحفظة من طرق الاعتـذار. إنها، وبكلمات قليلة، رائعة فعلا.

ابتلعت الأقراص الأربعة التي أتناولها كل صباح مع وجبة الإفطار، شربت بعض القهوة، وأكلت قطعتين من التوست، ثم سرت إلى نهاية الصالـة وفتحت باب حجـرة مكتبي. اعتقدت أنني سـأواصل مع القصة حتى موعد الغداء. في تلك اللحظة، سـأخرج وأقوم بزيارة أخرى إلى محل تشـانج - ليس فقط للبحث عن الشـريط اللاصق لأجل جريس، بل لشـراء أيّ دفاتر برتغاليـة لا تزال معروضة. لن يهمني أن تكون زرقاء. الأسود، والأحمر، والبني كلها ستؤدي الغرض تمامـا بالكيفية نفسـها، وأنا أريد الاحتفاظ بأكبـر قدر منها في حوزتي بقدر الإمكان. ربمـا ليس لأجل الوقت الراهن، لكن لتكوين مخزون متراكم منها للمشاريع القادمة، وكلما كانت فترة عودتي إلى محل تشانج طويلة، زادت فرصة نفادها.

حتى ذلك الحـين، لم تمنحني الكتابة في الدفتر الأزرق سـوى المتعة، إحساس بالتحليق وهوس من التحقق والامتلاء. كانت الكلمات تخـرج مندفعة مني كأنني كان يملى عليّ، أنسـخ جملا عن صوت يتحـدث بلغة بلورية كالأحلام، والكوابيس، والأفكار الحرة. لكن في صباح العشـرين من سبتمبر، بعد يومين من اليوم الذي نحن بصدد التحـدث عنه، أصبـح ذلك الصوت صامتا فجـأة. فتحت الدفتر، وعندما ألقيت بنظرة سريعة على الصفحة أمامي، أدركت أنني كنت ضائعـا، وأنني لا أعرف ما الذي كان يجب عليّ أن أفعله بعد ذلك. كنت قد قمت بوضع بوين في الحجرة. وقمت بإغلاق الباب وأطفأت الإضاءة، والآن ليست لديّ أية فكرة واضحة عن كيفية إخراجه من

هناك. قفزت العشرات من الحلول إلى ذهني، لكنها بدت لي جميعا مبتذلة، وآلية، ومملة. كان حبس نيك في مخبأ محصن ضد القنابل تحت الأرض فكرة شائقة بالنسبة إلي - مرعبة وغامضة في الوقت نفسه، خارج حدود كل تفسير منطقي - ولم أرغب في التخلي عنها. لكن نظرا إلى أنني دفعت بالقصة إلى ذلك الاتجاه، فقد تباعدت عن الافتراض الأصلي للتمرين. لم يعد بطلي يسير في المسار نفسه الذي تبعه فلتكرافت. ينهي هاميت حكايته نهاية كوميدية ملتوية وبارعة، وعلى الرغم من أن لديه جوا من الحتمية لهذا، وجدت ما انتهى إليه في النهاية صغيرا جدا ليتناسب مع ذوقي. بعد التجول لمدة سنتين، ينتهي فلتكرافت في سبوكين ويتزوج امرأة تقريبا مطابقة لزوجته الأولى. بينما يبلغ سام سبيد بريجيد أوشوجنيسي: «لا أعتقد أبدا أنه يدرك حتى أنه قد استقر بشكل طبيعي في النمط الرتيب نفسه الذي فرّ بعيدا عنه في تاكوما. لكن ذلك هو الجزء الذي أحببته فيه دائما. ضبط نفسه على أن عوارض المباني التي تحت التشييد تسقط، ثم لم يعد هناك مزيد من السقوط، فضبط نفسه على أن العوارض لا تسقط». جذاب، وسيمتري، وساخر - لكن ليس قويا بدرجة كافية لنوع القصة التي كنت مهتما بسردها. جلست إلى مكتبي لأكثر من ساعة والقلم في يدي، لكنني لم أكتب كلمة. ربما كان هذا هو ما كان يشير إليه جون عندما تحدث عن «قسوة» الدفاتر البرتغالية. تشعر أنك مرتبط بها لفترة، فائز بشعور سلطانك الخاص، بأنك سوبرمان ذهني تسرع خلال سماء زرقاء لامعة بعباءة ترفرف خلفك، ثم، ومن دون أي تحذير، تسقط لترتطم بالأرض. بعد كثير من الإثارة والتفكير المشتاق على أمل (حتى أنني أعترف بالأمل، إلى درجة تخيل أنني

قـــد أكون قادرا علـــى أن أحوّل القصة إلى روايـــة، الأمر الذي من الممكـــن أن يتيح لي بعض المال والبدء فـــي تحمل ما عليّ من أعباء نحو الأسرة)، شعرت بالاشـــمئزاز، والخجل من أنني سمحت لتلك الصفحات الســت المكتوبة على عجــل أن تضللني وتجعلني أعتقد أنني قد أدرت الأشياء فجأة لمصلحتي. كل ما كان عليّ القيام به هو التراجـــع إلى أحد الأركان. ربمـــا كان هناك مخرج، لكن في الوقت الحاضر لم يكن من الممكن أن أرى أيّ مخرج. الشـــيء الوحيد الذي كان بإمكاني رؤيته هذا الصباح كان بطلي الضئيل التعس جالسا في ظلام حجرته تحت الأرض، في انتظار شخص ما لإنقاذه.

كان الطقـــس دافئا في ذلك اليوم، ودرجة الحرارة ســـت درجات تحت الصفر، لكن الســـحب قد عادت، وعندما غادرت الشـــقة في الحادية عشـــرة والنصف، بدا أن المطر وشيك. لم أكلف نفسي عناء الرجوع إلى أعلى لإحضـــار مظلتي، على أي حال، رحلة أخرى إلى أعلى ثم إلى أســـفل مجموعات الدرج الثلاث يمكنها أن تستنفد من طاقتي الكثير، لذا قررت المخاطرة بهذا، وأنا أعتمد على الحظ وأن المطر سوف يمسك عن الهطول إلى ما بعد عودتي.

ســـرت في كروت ســـتريت بخطوة بطيئة، بدأت أشعر بالتراخي قليلا من أثر جلســـة عملـــي المتأخرة ليلا، وببعـــض الدوار القديم واللخبطـــة. اســـتغرق الأمر مني خمس عشـــرة دقيقة للوصول إلى بناية تقع بين شارعي كارول وبريزيدنت. كانت ورشة تصليح الأحذية مفتوحة، كمـــا كانت بالضبط صباح الســـبت، وكان بـــاب الخمارة مشـــرعا، لكن المحل الذي في الوســـط بينهما كان فارغا. قبل ثمان وأربعين ســـاعة فقط، كانت تجارة تشانج في أكمل حالاتها، بنافذة أماميـــة مزينة بأناقة، وفي الداخل مخزون وافر من ســـلع الأدوات

المكتبية، لكن الآن، وفقا لدهشـــتي المطلقة، اختفى كل شـــيء. وتم وضـــع قفل بوابة عبر الواجهة، وعندما حدقت خلال الفتحات التي على هيئة ماسات، رأيت لافتة صغيرة مكتوبة بخط اليد معلقة على النافذة: محل للإيجار ١١٤٣ - ٨٥٨ .

كنت في حيرة شـــديدة، وقفت هناك لفتـــرة أحدق في الحجرة الخالية. هل كانت التجارة تســـير بصورة سيئة إلى درجة أن تشانج قرر الانصراف عنها بشـــكل متهور؟ هل قام بجـــرد محله في نوبة جنـــون من الحزن والهزيمة، نقل أصناف قائمة الجرد بالكامل أثناء عطلة نهاية أســـبوع واحدة؟ لا يبدو ذلـــك ممكنا. للحظة أو اثنتين، تســـاءلت إن كنت قد تخيلت زيارتي إلى قصر الورق صباح السبت، أو أن التسلســـل الزمني في رأسي غير متتابع، يعني ذلك أنني كنت أتذكر شيئا ما كان قد حدث في وقت سابق جدا - ليس منذ يومين، بل منذ أسبوعين أو شهرين. دخلت إلى الخمارة وتحدثت مع الرجل الواقف خلف الكاونتر. من فضلك، كان مرتبكا مثلما كنت بالضبط. كان محل تشـــانج موجودا هنا يوم السبت، قال، وكان لا يزال هناك عندما كان في طريقه إلى البيت في الســـابعة مساء. «لا بد أن هذا قـــد حدث في تلك الليلـــة»، يواصل، «أو ربما أمـــس». أنا آخذ يوم الأحـــد إجازة. يمكنـــك التحدث مع رامون فهـــو الرجل الذي يكون موجـــودا يوم الأحد. عندما وصلت إلى هنا هذا الصباح، كان المكان خاليـــا تماما. غريب، يا صديقي ذلك غريـــب. بالضبط مثل تلويح أحد السحرة المتأنقين من أبناء المدن بعصاه السحرية، ثم بفففففف، في غمضة عين، اختفى الرجل الصيني».

اشـــتريت الشـــريط اللاصق من مكان آخر ثم ســـرت إلى محل لاندولفي لشـــراء علبة ســـجائر(بول مول، على شـــرف المرحوم إد

فيكتوري) وبعض الجرائد للقيــام بقراءتها أثناء الغداء. كان هناك مكان على مســافة نصف مربع ســكني من محــل الحلويات مكان يدعى «ريتاس»، مقهــى صغير مزعج، حيث كنت أمضي فيه معظم الوقت في فصل الصيف. لم أتواجد هناك منذ شهر تقريبا، وجدت أنه من الســار أن كلا من النادلة وعامــل الكاونتر قاما بتحيتي بود عندمــا مضيت إلى الداخــل. كنت منحرف المزاج فــي ذلك اليوم، شــعرت بأنه أمــر طيب أن أعرف أنني لم يطوني النســيان، طلبت ســاندويتش الجبن المطبوخ المعتاد الخاص بي وجلست مع الجرائد. أولا ذا تــايم، ثــم الديلي نيوز للرياضة (خســر الميتس مجموع كلتا مباراتين على التوالي يوم الأحد مع الكاردينالز)، وأخيرا إلقاء نظرة على النيوزداي. كنت متمرسا في إهدار الوقت في تلك الفترة، ومع عملي المتوقف، ولا شــيء عاجلا يدعوني للعودة إلى شقتي، لم أكن فــي عجلة للمغادرة، خصوصا أن المطر قد بدأ في التســاقط الآن وتذكرت كم كنت كســولا جدا إزاء صعود الســلالم لإحضار مظلتي قبل أن أمضي إلى الخارج.

لو لم أظل جالسا في ريتاس لفترة طويلة جدا، حتى أنني طلبت الســاندويتش الثاني وفنجان القهوة الثالــث، لما كنت قد رأيت أبدا المقال المطبوع في نهاية الصفحة الســابعة والثلاثين في النيوزداي. في الليلة الســابقة فقط، كنت قد كتبت عــدة فقرات عــن تجــربة إد فيكتوري في (داكو). على الرغم من أن إد كان شــخصية روائية، إلاّ أن القصــة التــي حكاها عن إعطاء اللبن إلــى طفل ميت كانت حقيقية. اســتعرتها منْ كتاب كنت قد قرأتــه ذات مرة عن الحرب العالميــة الثانية[١٥]، ومع أن كلمــات إد كانت لا تزال تتردد في أذني «كانــت تلك نهاية البشــرية»، صادفني هذا الخبر المكتوب بشــكل

غامض عن رضيع آخر ميت، رسالة أخرى من أحشاء الجحيم. في وسعي أن أستشهد بالمقال حرفيا لأنه موجود أمامي الآن. قمت بفصله عن الصحيفة. بعد الظهر منذ عشرين سنة وأنا أحمله معي في محفظتي منذ ذلك الوقت.

مولود في مرحاض، التخلص من طفل.

قمة الجنون، عاهرة محترفة (٢٢ عاما) أنجبت فوق مرحاض في «برونكس سرو»، ثم ألقت بطفلتها التي ماتت غرقا إلى صندوق القمامة الخارجية، كما قالت الشرطة أمس.

المرأة - وفق قول الشرطة - كانت تمارس البغاء مع شخص يدعى جون في نحو الساعة الواحدة من صباح أمس عندما غادرت الحجرة التي كانا يتقاسمانها في ٤٥٠ سايرس بي آي. ودخلت إلى الحمّام لتدخين بعض الكوكايين النقي. جلست فوق المرحاض، وجاءها المخاض، وشعرت بشيء ما يخرج منها»، قال الرقيب ميشيل رايان.

لكن الشرطة قالت إن المرأة - الغائبة عن الوعي بسبب المخدرات - كانت في ما يبدو غير واعية بأنها قد أنجبت.

بعد عشرين دقيقة، لاحظت المرأة الطفلة الميتة في فتحة المرحاض، لفتها في منشفة، وأسقطتها في صندوق القمامة. ثم عادت بعد ذلك إلى زبونها واستأنفت ممارسة البغاء، قال رايان. نشبت بعد ذلك بفترة قصيرة مشادة حول الأجرة، وقالت الشرطة إن المرأة طعنت زبونها في صدره في حوالي الواحدة والربع صباحا.

قالت الشرطة إن المرأة قد جرى التعرف عليها وأن اسمها كيشا وايت، وأنها هربت إلى شقتها في شارع ١٨٨ في ما بعد، عادت وايت إلى سلة المهملات واستعادت طفلتها. لكن، أحد الجيران رآها وهي تعود فاتصل بالشرطة.

عندما انتهيت من قراءة المقال للمرة الأولى، قلت لنفسي: هذه هي أسوأ قصة قرأتها في أيّ وقت. كان من الصعوبة بدرجة كافية استخلاص معلومات عن الرضيعة، لكن عندما وصلت إلى حادثة الطعن في الفقرة الرابعة من المقال، فهمت أنني كنت أقرأ قصة عن نهاية البشرية، حيث كانت تلك الحجرة في برونكس هي المكان عينه على وجه الأرض حيث فقدت الحياة البشرية معناها. توقفت للحظات قليلة، محاولا التقاط أنفاسي، محاولا إيقاف جسمي عن الارتعاش، ثم قرأت المقال مرة ثانية. هذه المرة، امتلأت عيناي بالدموع. كانت الدموع مفاجئة جدا، غير متوقعة إلى حد بعيد، إلى درجة أنني غطيت وجهي على الفور بيديّ لأتأكد من أن أحدا لن يرى الدموع. لو لم يكن المقهى مزدحما بالزبائن، ربما كان من الممكن أن أنهار في نوبة نشيج حقيقية. لم أذهب إلى ذلك الحد، لكن الأمر استغرق كل ذرة من قوتي لاستعادة رباطة جأشي.

سرت إلى البيت تحت المطر. بمجرد أن نزعت ملابسي المبتلة واستبدلت بها أخرى جافة، دخلت إلى حجرة مكتبي، وجلست إلى المكتب، وفتحت الدفتر الأزرق. ليس إلى القصة التي كنت أكتبها في وقت سابق، بل إلى الصفحة الأخيرة، الصفحة اليسرى النهائية المواجهة للغلاف الخلفي من الداخل. كانت المقالة قد تفجرت بعنف شديد في داخلي، شعرت بأنني كان يجب أن أكتب نوعا من الرد عليها، لتناول أو معالجة البؤس الذي أثارته إلى الذروة. واصلت الكتابة إلى نحو الساعة، أكتب من الخلف إلى الأمام في الدفتر، بدءا بصفحة ست وتسعين، ثم رجوعا إلى صفحة خمس وتسعين وهكذا. عندما انتهيت من كتابة خطبتي الحماسية الصغيرة، أغلقت الدفتر، ونهضت عن مكتبي، ومشيت إلى نهاية الصالة حيث المطبخ. صببت

لنفســـي كوبا من عصير البرتقال، وبينما كنت أعيد العلبة الكرتونية إلى الثلاجة، تصادف أن مرت عيناي ســـريعا على التلفون الذي كان موضوعــا على منضــدة صغيرة في ركن الحجرة. ما أثار دهشـــتي، كان الوميض الخاص بجهاز الرد التلقائي. لم تكن هناك أي رســـائل عندما عدت من الخارج بعد تناول غدائي في ريتا، والآن كانت هناك رسالتان. هذا غريب، ربما لا أهمية لذلك، لكنه غريب. كانت الحقيقة هي أنني لم أسمع رنين الهاتف. هل كنت مستغرقا تماما في ما كنت أفعله إلى درجة أنني لم أدرك الصوت؟ من الممكن هذا. لكن إذا كان الأمر كذلك، فســـتكون هذه هي المرة الأولى التي يحدث لي فيها مثل هـــذا. فهاتفنا له جرس ذو صوت عال بصفة خاصة، ودائما ما تنتقل الضوضاء منه إلى حجرة مكتبي - حتى عندما يكون الباب مغلقا.

كانت الرســـالة الأولى من جريس. كانت مسرعة للقيام بمقابلة عمـــل مهمة وحاســـمة ولن تتمكن من مغادرة المكتب حتى الســـابعة والنصف أو الثامنة. إذا أحسست أنا بالجوع، قالت، يجب أن أشرع في تناول العشاء من دونها، وسوف تقوم هي بتسخين البقايا عندما تعود إلى البيت.

كانت الرســـالة الثانية من وكيلة أعمالي، ماري سكلار. يبدو أن شـــخصا ما قد اتصل بهـــا لتوه من لوس أنجلوس، يســـأل إن كنت مهتما بكتابة ســـيناريو آخر، وأرادت مني أن أعيد الاتصال بها حتى تتمكن من تزويدي بالتفاصيل[١٦] اتصلت، لكنها أمضت فترة قبل أن تركز تفكيرها على ما يتعلق بالعمل. مثل جميع الآخرين الذين كانوا قريبـــين مني، بدأت ماري المحادثة بالســـؤال عن صحتي. يعتقدون جميعا أنهم كانوا سيفقدونني، وعلى الرغم من أنني كنت في البيت منذ أن عدت من المستشـــفى منذ أربعة أشـــهر وإلى الآن، فإنهم لا

يزالـون ليس بإمكـانهم الاعتـقـاد أنني كنت على قيد الحياة، لا يصدقون أنهم لم يدفنوني في أحد المدافن منذ مطلع العام.

«عال العال»، قلت. «نوبات هدوء قليلة ثم وهن بين الحين والآخر، لكن في الأساس أنا بصحة جيدة. أفضل وأفضل في كل أسبوع».

«هناك إشاعة بدأت تنتشر أنك قد بدأت كتابة شيء ما. صح أم خطأ؟»

«من قال لك هذا؟»

«جون تروس. اتصل هذا الصباح، وتصادف ذكر اسمك».

«هذا صحيح. لكنني لا أعرف إلى أين سأمضي بها حتى الآن. من المحتمل ألاّ تكون شيئا».

«دعنا لا نفترض هذا، أخبرت أصحاب الفيلم أنك قد بدأت كتابة رواية جديدة وربما لن تكون مهتما».

«لكنني مهتم. مهتم جدا. خصوصا إذا كان هناك مال حقيقي في الأمر».

«خمسون ألف دولار».

«يا إلهي. بخمسين ألف دولار بإمكان جريس وأنا أن نكون في مأمن من المخاطر والصعوبات».

«إنه مشروع غبي، يا سد. ليس من نوعية أعمالك على الإطلاق. إنه خيال علمي».

«آه، فهمت ما تقصدين. إنه ليس منهجي بالضبط في العمل، أليس كذلك؟ لكن هل نحن بصدد الحديث عن العلم الخيالي أم الخيال العلمي؟»

«وهل هناك اختلاف؟»

«أنا لا أعرف».

«إنهم يخططون لمحاكاة آلة الزمن».

«إتش. جي. ويلز؟».

«بالضبط. سيقوم بوبي هانتر بإخراجه».

«الرجل الذي يصنع أفلام الحركة والإثارة تلك ذات الميزانيات الكبيرة؟ وما الذي يعرفه عني؟»

«إنه معجب. في ما يبدو، فقد قرأ جميع كتبك وأحب فيلم تابيولا روزا».

«أفترض أنني أستحق التملق. لكنني حتى الآن لا أفهم. لماذا أنا؟ أقصد، لماذا أنا لهذا؟»

«لا تقلق، يا سد. سأعيد الاتصال بهم وأخبرهم بعدم الموافقة».

«أمهليني أولا يومين للتفكير. سأقرأ الكتاب وأرى ما سيحدث. أنت لا تعرفين أبدا. ربما سأتوصل إلى فكرة مثيرة».

«اتفقنا، أنت الرئيس. سأقول لهم إنك تفكر في الأمر. لا وعود، لكنك ترغب في التفكير مليا في الأمر قبل أن تقرر».

«أنا واثق تماما من أن هناك نسخة في الشقة، نسخة قديمة ذات غلاف ورقي اشتريتها عندما كنت في المدرسة الثانوية. سأبدأ في قراءتها الآن وأعيد الاتصال بك بعد يومين».

كانت النسخة ذات الغلاف الورقي بخمسة وثلاثين سنتا في عام ١٩٦١، وتضمنت روايتين من روايات ويلز المبكرة: «آلة الزمن» و«حرب الكواكب». كانت «آلة الزمن» تشغل أقل من مائة صفحة، ولن تستغرق أكثر من ساعة لإنهائها. وجدتها محبطة تماما بمعنى الكلمة، رديئة، عمل مكتوب على نحو شديد السوء، نقد اجتماعي متخف في صورة قصة مغامرة، أخرق، ثقيل الوطأة وتعوزه البراعة على كلا الصعيدين. لم يبد منه أنه يمكن لأي شخص أن يرغب في

إعداد مباشـــر لهذا الكتاب. تلك النســـخة صنعت بالفعل، وإذا كان بوبي هانتر هذا قد اطلع على عملي كما ادعى، فلابد إذن أنه يريد مني أن أذهب بالقصة إلى منطقة أخرى مغايرة، الهرب من الكتاب وإيجاد طريقة لعمل شيء ما جديد بالمادة. إذا لم يكن الأمر كذلك، فلماذا طلبني؟ هناك المئات من كتاب الســـيناريو الذين لديهم خبرة أكثر مني. بإمكان أي واحد منهم أن يترجم رواية ويلز إلى ســـيناريو مقبول - من الممكن في تصوري أن ينتهي إلى أن يبدو مشابها لفيلم رود تايلـــور - «يفيت ميميو» الذي رأيته وأنـــا ولد صغير، بمؤثرات خاصة أكثر إبهارا.

إذا كان هناك شـــيء قد اســـتحوذ عليّ في الكتاب، فهو التصور الضمني لمفهوم الســـفر في الزمن نفسه. ومع ذلك فقد شعرت بأن ويلز قد تمكن من إساءة فهم ذلك أيضا بطريقة ما. يرسل بطله إلى المستقبل، لكن كلما فكرت في الأمر أكثر، أصبحت مقتنعا أكثر بأن معظمنا سيفضل زيارة الماضي. كانت قصة تروس عن شقيق زوجته والعارض الثلاثي الأبعاد مثالا جيدا على كيفية بقاء الموتى متعلقين بنا بقوة. إذا أتيح لنا خيار الذهاب إلى الماضي أو المستقبل، فسأكون على الفور من الذين لن يترددوا بين الخيارين. سوف أفضل أكثر أن أجد نفســـي بين الناس الذين لم يعودوا على قيد الحياة عن الذين لم يولدوا بعد. فمـــع الكثير من الألغاز التي لم تُحل إلى الآن، كيف لا يشـــعر المرء بالفضول تجاه ما كان يبدو عليـــه العالم، لنقل، أيام ســـقراط، أو فرجينيا توماس جيفرسون أو مثل صهر تروس، كيف تقـــاوم الرغبة في إعادة مقابلة الناس الذيـــن فقدتهم؟ أن تتاح لك رؤية والدتك ووالدك في اليوم الذي التقيا فيه، على سبيل المثال، أو التحدث إلى أجدادك عندما كانوا أطفالا صغارا. هل يرفض شخص

تلك الفرصة مقابل لمحة سريعة من مستقبل مجهول ويصعب فهمه؟ رأى لومويل فلاج المستقبل في ليلة التنبؤ، وقد أدى هذا إلى دماره، إننا لا نرغب في معرفة متى سنموت أو متى سيخوننا الأشخاص الذين نحبهم. لكننا جوعى للتعرّف إلى الموتى قبل أن يصبحوا موتى، وأن نعاين الأموات ككائنات حية.

أفهم احتياج ويلز إلى أن يرسل بطلا إلى الأمام في الزمن لإثبات وجهة نظره عن ظلم النظام الطبقي الإنجليزي، الذي يمكن أن يبلغ أعنف مستوياته إذا وضع في المستقبل، لكن حتى في منحه الحق للقيام بذلك، تبقى مشكلة أخطر بكثير في الكتاب. إذا كان بإمكان رجل يعيش في لندن في نهاية القرن التاسع عشر أن يخترع آلة زمن، واستنادا إلى أن هناك أناسا آخرين سيتمكنون في المستقبل من القيام بالشيء نفسه، إن لم يكن بمفردهم، فبمساعدة مسافر الزمن، وإذا كان بإمكان أناس من الأجيال التي تنتمي إلى المستقبل أن يسافروا ذهابا وإيابا عبر السنوات والقرون، فإن الماضي والمستقبل كلاهما سوف يمتلئ بأناس لا ينتمون إلى الزمن الذي يقومون بزيارته. وفي النهاية، ستصبح الأزمنة كلها مشوهة فاسدة ملوثة، تعج بالمتطفلين والسائحين من أزمنة أخرى، وبمجرد أن يبدأ الأفراد الذين ينتمون إلى المستقبل بالتأثير في أحداث الماضي، ويبدأ أناس الماضي بالتأثير في أحداث المستقبل، فسوف تتغير طبيعة الزمن. وبدلا من كوننا نواصل التقدم في لحظات زمنية منفصلة تتحرك ببطء إلى الأمام في اتجاه واحد وحيد فقط، سوف تتفتت طبيعة الزمن وتتقوض إلى نوع من الضباب الهائل أو عدم الوضوح حين تتلاطم الأزمان كلها. الأمر بسيط، فبمجرد أن يبدأ شخص واحد في السفر عبر الزمن، فسوف يُدمر مفهوم الزمن الذي نعرفه.

ومع ذلك، فقد كان مبلغ الخمسين ألف دولار كبيرا، ولن أدع عيوبا منطقية هينة تقف في طريقي. وضعت الكتاب وبدأت في المشي جيئة وذهابا في أرجاء الشقة، أمشي إلى داخل الحجرات وخارجها، أمر بعيني سريعا على عناوين الكتب الموضوعة على الأرفف، أباعد بين الستائر وأتطلع عبر النافذة إلى الشارع المبتل، ولم أتمكن من إنجاز شيء لعدة ساعات. في تمام الساعة السابعة، دخلت إلى المطبخ لإعداد الوجبة التي ستكون جاهزة لجريس عندما تعود من مانهاتن. أومليت عيش الغراب، وسلطة خضراء، وبطاطس مسلوقة، وقرنبيط. إن مهارتي في الطبخ محدودة، لكنني عملت ذات مرة كطباخ للوجبات السريعة، وكانت لديّ موهبة خاصة في إعداد وجبات عشاء بسيطة وخفيفة. كانت المهمة الأولى هي تقشير البطاطس، وعندما بدأت في تقشير البطاطس وتجميع القشر فوق كيس ورقي بني، خطرت لي أخيرا حبكة القصة. كانت مجرد بداية فقط، مع العديد من الحواشي الخام ومجموعة كبيرة من التفاصيل تضاف في ما بعد، إلا أنني شعرت بالسرور لهذا. ليس لإحساسي بأنها كانت جيدة، بل لأنني ظننت أنها قد تنجح مع بوبي هانتر، الذي كان رأيه هو الرأي الوحيد المهم.

قررت أن يكون هناك مسافران في الزمن، رجل من الماضي وامرأة من المستقبل. سوف تتنقل الأحداث في ما بينهما ذهابا وإيابا إلى أن يشرعا في رحلتهما، ثم، في ثلث الفيلم، يتقابلان في الزمن الحاضر. لم أعرف بعد بما أسميهما، لذلك سأشير إليهما في الوقت الحاضر بجاك وجيل.

جاك شبيه بالبطل في كتاب ويلز، لكنه أمريكي وليس بريطانيا. إنه عام ١٨٩٥، يعيش جاك في مزرعة في تكساس، وعمره ثمانية

وعشــرون عاما، وهو ابن لبارون ماشــية راحل. جاك ثري مستقل، ليس لديه اهتمام بإدارة أعمال أبيه، يترك عملية إدارة المزرعة لأمه وأخته الكبرى، ويكرس نفسه للتجريب والبحث العلمي. بعد سنتين من العمل المتواصل القاســي والإخفاق، ينجح فــي بناء آلة الزمن. وينطلق في رحلته الأولى. ليس لآلاف السـنوات في المستقبل مثلما فعلت الشــخصية الويلزية، بل لثمان وســتين سنة فقط إلى الأمام، ويخرج من جهازه المتلألئ في نهار مشــمس وبارد في أواخر شــهر نوفمبر من عام ١٩٦٣.

تنتمي جيل إلى النصف الثاني من القرن الثاني والعشــرين. وفي ذلــك الوقت يكون الســفر في الزمن قد سُــيطر عليه، لكنه يُمارَس فقط بشــكل نادر، وقد وضعت قيود مشــددة على استخدامه. ولأن الحكومات أدركــت احتمالات التحطم والكــوارث المتعلقة به، فإنها تســمح لكل شــخص برحلة واحدة فقط في عمره أو عمرها. ليس للاستمتاع بزيارة اللحظات الأخرى في التاريخ، بل كشعيرة لتدشين وصول الشخص سن البلوغ. وعندما يصل الشخص إلى سن العشرين، يجرى احتفال على شرفه، وفي ذلك المساء نفسه يُرسل إلى الماضي للســفر حول العالم لمدة سنة واحدة ليشــاهد أجداده. تبدأ الرحلة قبل ميلاده بمائتي ســنة، تقريبا ســبعة أجيال في الماضي، ثم يبدأ تدريجيــا في رحلة العودة إلى الوطن والوقت الراهن. إن الغرض من الرحلة هــو تعليم الفرد التواضع والتعاطف، والتســامح مع زملائه ورفاقه. عن طريق المئات من الأفراد الســابقين، الأسلاف والجدود، الذين يلتقيهم المرء في الرحلة، سلسلة كاملة برمتها من الاحتمالات البشــرية ســتصل إلى نهاية عرضها أمام عينيه، وســوف يكشــف النقاب عن اليانصيب الجيني لكل شــخص. وســوف يفهم المسافر

أنه قد انحدر من وعاء ضخم من التناقضات، وأنه من بين أســلافه من هم شــحاذون وحمقى، قديســون وأبطــال، ذوو علل أو يتمتعون بالجمال، ذوو أرواح جميلة أو مجرمون من أهل العنف، محبون للغير أو لصــوص. أن يتعرض المرء لكثير من الحيوات في مثل هذه الفترة الزمنية القصيرة هو اكتساب جديد يضاف إلى المرء وإلى مكانته في العالم. يرى نفســه كجزء من شيء ما أكبر من ذاته، ويراها كمخلوق فردي مختلف، وكائنا غير مســبوق بمستقبله الذي لا مثيل ولا بديل له. ويفهم، في النهاية، أنه وحده المسؤول عما صار عليه.

ثمة قواعد معينة مفروضة طوال مدة الرحلة. ألا يجب ألا يكشف المرء عن هويته الحقيقية، ويجب ألا يتدخل في أفعال أي شــخص، ويجب يســمح لأي شــخص بدخول آلة الزمن. إن أي كسر لقاعدة مــن هذه القواعد معناه أن يعاني هذا الشــخص الإقصاء عن زمنه والعيش في المنفى بقية حياته.

تبــدأ قصة جيل في صباح يوم عيد ميلادها العشــرين. بمجرد انتهاء الحفلة، تودع والديها وأصدقاءها وتربط نفســها في نســخة مــن آلة الزمن الحكومية المخصصة لها. تحمل معها قائمة أســماء طويلة، دوسيه الأجداد الذين ستقابلهم في رحلتها. المزولة الموجودة فــي لوحة التحكم الخاصة بآلتها مضبوطة على ٢٠ نوفمبر ١٩٦٣، قبل مائتي ســنة بالضبط من ميلادها. تتفحص الأوراق لآخر مرة، وتدسها في جيبها ثم تدير محرك الماكينة. بعد عشر ثوان، مشحونة بتلويحات الوداع المصحوبة بالدموع من أصدقائها وعائلتها، تختفي الماكينة في لمح البصر، وتمضي جيل في طريقها.

تتوقــف آلة الزمن الخاصة بجاك فــي أحد المراعي في أطراف دالاس. إنه يوم السابع والعشرين من شهر ديسمبر، بعد خمسة أيام

مــن اغتيال كنيدي، وموت أوزوالد، بعــد أن أطلق عليه جاك روبي النار في ممر بدروم مجلس المدينة. خلال ست ساعات من وصوله، كان جاك قد قرأ ما يكفي من الجرائد واستمع بما يكفي إلى الراديو وبرامج التلفزيون ليســتوعب أنه قد وصل في وسط مأساة قومية. كان جاك قد عاش بنفســه في الفترة في أثناء اغتيال أحد الرؤساء (جارفيلد، في ١٨٨١)، ولديــه ذكريات مؤلمة من الصدمة والتخبط اللذين نجما عن الحادث. يتأمل الورطة لمدة يومين، ويتساءل إن كان لديه الحق الأخلاقي في تغيير حقائق التاريخ، وفي النهاية يســتنتج أن له ذلك الحق. ســوف يتخذ إجراء لمصلحة بلده، وسيفعل كل ما في وســعه لإنقاذ حياة كنيدي. يعــود إلى آلة الزمن الخاصة به في المرعــى، يضبط قرص الكرونومتر على اليــوم الموافق ٢٠ نوفمبر، ويســافر مرة ثانية عائدا إلى الماضي تســعة أيام. عندما يخرج من كابينة سفينته، يجد نفســه واقفا على مسافة تقل عن عشر أقدام من آلة زمن أخرى، نســخة لامعة مــن آلة الزمن الخاصة به، لكنها تنتمي إلى القرن الثاني والعشــرين. تخرج جيل وهي تشعر بالدوار قليلا وبنوع من عدم الاتــزان. عندما ترى جاك واقفا هناك، ينظر إليها وهو مخدّر تماما، تضع يدها في جيبها وتخرج قائمة الأسماء الخاصة بها قائلة اعذرني، يا سيدي، لكنني أتساءل إن كان بإمكانك أن تعرف أين يمكنني العثور على رجل يدعى لي هارفي أوزوالد.

لم أتخيل تفاصيل كثيرة بعد ذلك. أعرف أن جاك وجيل ســوف يقع كل منهما في حب الآخر (على رغم كل شيء، هذه هي هوليوود)، وأعرف أن جاك سيقنعها في النهاية بمساعدته على إيقاف أوزوالد عــن قتــل كنيدي. حتى لو خاطــرت جيل بأن تصبــح خارجة على القانون، وتســتحيل عليها العودة إلى زمنها، ســوف ينصبان كمينا

لأوزوالد في الصباح قبل عشرين ثانية فقط من دخوله مستودع تكساس للكتب المدرسية ومعه بندقيته، يقومان بتقييده، ويحتجزانه كرهينة لعدة ساعات. ومع ذلك، وعلى الرغم من مجهوداتهما، لا يتغير شيء. سيتم إطلاق النار على كنيدي ويقتل، ولن يتغير التاريخ الأمريكي فاصلة واحدة. أوزوالد، المنصّب ذاتيا كمغفل، كان يقول الحقيقة، سواء قام بإطلاق النار على الرئيس أو لا، فهو لم يكن المسلح الوحيد المتورط في المؤامرة.

ولأن جيل لم يعد بإمكانها الآن العودة إلى بيتها، ولأن جاك يحبها ولا يقوى على تحمل فكرة تركها، يختار أن يبقى معها، في عام ١٩٦٣ في المشهد الأخير من الفيلم، يدمر كل منهما آلة الزمن الخاصة به، ويدفنها في المرعى. ثم، وتشرق الشمس أمامهما، يسيران في صباح الثالث والعشرين من شهر نوفمبر، شابين تنازلا عن ماضيهما، متأهبين لمواجهة المستقبل معا.

كانت الفكرة نوعا من القمامة البحتة، بالطبع، فنتازيا قذرة من أردأ نوع، لكنها تبدو كفيلم ممكن بالنسبة إلي، وكان ذلك هو كل ما كنت آمل في إنجازه: تسليم شيء ما يتناسب ويتماشى مع الصيغة التي يريدونها. لم يكن الأمر نوعا من الدعارة إلى حد كبير من جانبي بقدر ما كان ترتيبا ماليا، ولم تكن لديّ أي أفكار أخرى لقبولي الأجر مقابل أن أجتهد في العثور على وعاء أجمع فيه بعض النقود المطلوبة بشدة. كان يوما قاسيا كالصخر بالنسبة إلي، بدءا بفشلي في التقدم في القصة التي كنت أود أن أنجزها، ثم اهتزازي لاكتشاف أن محل تشانج قد انهارت تجارته، ثم المقال المفزع الذي قرأته في الجريدة في أثناء تناول طعام الغداء. لم يكن هناك شيء آخر إذن، وقد خدم التفكير في آلة الزمن كعامل تشتيت غير مؤلم،

وعندمـــا دخلت جريس مـــن الباب في الثامنـــة والنصف، كنت في حالة معنوية جيدة نسبيا. كانت المائدة جاهزة، وزجاجة خمر أبيض تبـــرد في الثلاجة، وكان الأومليت جاهزا لصبه في المقلاة. أظن أن جريس كانت مندهشـــة قليلا لانتظاري لها، لكنها لم تدل بأي تعليق في ما يتعلق بهذا الشـــأن. بدت مرهقة، وتحت عينيها دوائر داكنة وفي حركتها ثقل معين. بعدما ســـاعدتها على خلع معطفها، مضيت بها إلى المطبخ مباشـــرة وأجلســـتها إلى المائدة، وقلت لها: «تناولي طعامـــك، لا بد أنك تتضورين جوعـــا»، ووضعت بعض الخبز وطبق سلطة أمامها، ثم اتجهت إلى الموقد للبدء في عمل الأومليت.

جاملتني على الطعام الـــذي أعددته لها، لكنها من ناحية أخرى لم تقل شـــيئا أثناء الوجبة. كنت سعيدا برؤيتي لشهيتها وقد عادت إليها، لكنها في الوقت نفســـه بدت في مكان آخر، أقل حضورا عن المعتاد. عندما أخبرتها بمهمة خروجي للبحث عن الشريط اللاصق والإغلاق الغامض لمحل تشـــانج، بدت كأنها تنصت بالكاد لما أقوله. كانت تحدوني الرغبة في إبلاغها بالعرض الخاص بالسيناريو، لكن لم أشـــعر بأن تلك هي اللحظة المناســـبة. ربما بعد العشاء، فكرت، ثم، بمجرد أن نهضت أنا وكنت على وشك البدء في تنظيف المائدة، رفعت رأسها إليّ وقالت، «أظن أنني حامل، يا سد».

صرّحـــت بالخبر فجأة في عفوية شـــديدة، لـــم أعرف ما الذي أفعله سوى أن أهوى على الكرسي.

«لقد مرت ســـتة أســـابيع تقريبا منذ دورتي الأخيرة. أنت تعرف كم أنا منتظمة. وقد انتهيت إلى ذلك بالأمس فقط. أي شـــيء آخر ممكن أن يعني هذا؟»

«لا يبدو عليكِ أنكِ سعيدة لهذا».

«لا أعـــرف ما الذي أشـــعر بـــه. لقد تحدثنا كثيـــرا عن إنجاب الأطفـــال، لكن يبدو لي أن هذا هو أســـوأ وقت ممكن لحدوث هذا الشيء».

«ليس بالضرورة. إذا أظهرت نتيجة الاختبار شيئا إيجابيا، فسوف نحسب الأمر. هذا هو ما فعله الآخرون جميعا. لسنا أغبياء. سنجد طريقة».

«الشقة صغيرة جدا، وليست لدينا أموال، وسوف أضطر للتوقف عن العمل لثلاثة أشـــهر أو أربعة. لو كنت في كامل صحتك، لما كان شيء من هذا يهم. لكنك حتى لست كذلك هذه اللحظة».

«جعلتـــك تحملين، أليس كذلك؟ من يقول إنني لســـت بصحتي؟ ليس هناك شيء خطأ في أدائي على أي حال».

ابتسمت جريس. «إذن فأنت تصوت بنعم».

«أنا موافق بالطبع».

«هذا يعني أن واحدا منا نعم والآخر لا. كيف ســـنخرج من هذه الورطة؟»

«لا يمكن أن تكوني جادة».

«ما الذي تعنيه؟»

«الإجهاض. إنكِ لا تفكرين في التخلص منه، أليس كذلك؟»

«أنا لا أعرف. إنها فكرة بشـــعة، لكنها قد تكون الأفضل لتأجيل إنجاب أطفال لفترة».

«الأشـــخاص المتزوجون لا يقتلون أبناءهم، عندما يحب أحدهم الآخر».

«إن ما تقوله لشيء فظيع، يا سدني. إنني لا أحبه».

«قلتِ في الليلة الســـابقة، (فقط اســـتمر في حبي، وكل شـــيء

ســيتولى الاهتمام بنفسه تلقائيا). وهذا هو ما أحاول القيام به. أن أحبك وأعتني بكِ».

«ليســت لهذا علاقة بالحب. إنه متعلق بمحاولة اكتشاف ما هو أفضل لكلينا».

«لقد كنتِ تعرفين بالفعل، أليس كذلك؟»

«أعرف ماذا؟»

«أنكِ حامل. لم تكوني تعتقدين أنك قد تحملين. وقد اكتشــفت بالفعل أنك قد صرت كذلك. متى قمتِ بالاختبار؟»

للمرة الأولى منذ أن عرفتها، تشــيح جريس بوجهها عني عندما تتحدث إليّ، غير قادرة على أن تنظر إليّ، توجه كلماتها إلى الحائط. فقد أمســكت بها متلبسة بالكذب، وكان الأمر مهينا تقريبا إلى حد أكبــر من أن تتحمله هي. قالت: «صباح الســبت»، كان صوتها غير مسموع تقريبا، بصعوبة أعلى من الهمس.

«لماذا لم تقولي لي وقتها؟»

«لم أستطع».

«لم تستطيعي؟»

«لقد كنــت فزعة جدا. لم تكن بي رغبة فــي تقبل الأمر، وكنت بحاجة إلى فترة من الوقت لاســتيعاب الخبر. أنا آسفة يا سد. أنا حقا آسفة».

واصلنــا حديثنــا لمدة ســاعتين آخريين، وفــي النهاية أضعفت مقاومتهــا، ظللــت أضغط عليها حتى استســلمت ووعــدت بإبقاء الطفل. ربما كان هذا هو أسوأ صراع خضناه معا في أي وقت. فمن الناحيــة العملية التفضيلية، كانت جريــس على صواب في ترددها بشأن الحمل، لكن المعقولية نفسها التي أسست عليها شكوكها بدت

مثيـرة لبعض الخوف المرضي وغيـر المنطقي في داخلي، فواصلت الانقضـاض عليها بمجادلات عاطفية واسـعة كانت تعني الشـيء القليـل. عندما وصل الأمر في النهاية إلى آخر الأشـياء وهو المال، ذكرت لها أمر السـيناريو والقصة التي أضع خطوطها الرئيسة في الدفتر الأزرق، متجنبا أن أضيف أن المشروع الأول لا يعدو كونه طلبا مبدئيا تحت الدراسـة، أو وعدا غير واضح بالمرة لعمل مسـتقبلي، وأن المشروع الثاني قد تعطل بالفعل. وإذا لم يحالف التوفيق كليهما، قلت، فسـوف أقدم طلبا بوظيفة للتدريس في كل قسـم مخصص للكتابة الإبداعية في أمريكا، وإذا لم يظهر شـيء هناك، فسـأعود إلى تدريس التاريخ في المدرسـة الثانوية، وأنا أعرف بشـكل جيد تمامـا أنني حتى الآن ليسـت لديّ القدرة على التحمل الجسـدي للقيام بعمل نظامي. بعبارة أخرى، كذبت عليها. كان هدفي الوحيد هو أن أثنيها عن إجهاض الطفل، وكنت راغبا في التسـاهل مع أي نـوع من الكـذب أو التضليل للدفاع عن قضيتي. كان السـؤال هو لماذا. ففي الوقت نفسـه الذي كنت أمطرها فيه بوابل من مبرراتي اللانهائية وقسـوة بلاغتي الفعالة، مدمـرا كل مقولة من مقولاتها الهادئـة، العقلانية تمامًا، كنت أتعجب لماذا كنت أحارب بقوة هكذا. في أعماقي لم أكن متأكدا بالمرة من استعدادي لأن أصبح أبا، وكنت أعـرف أن جريس كانت على حق في ادعائها بأن التوقيت كان غير مناسـب، وأننا ينبغي ألا نبدأ في التفكير في الأطفال حتى أتعافى بشكل تام. مرّت أشهر قبل أن أفهم بالفعل ما كان مستغلقا عليّ في تلك الليلة. لم يكن الأمر متعلقا بإنجاب طفل بل كان متعلقا بي أنا. منذ أن قابلت جريس عشـت في خوف قاتل من أنني قد أخسرها. فقد خسـرتها مرة قبل زواجنا. وبعد أن سـقطت مريضا وتحولت

إلى شـــبه مقعد، استسلمت تدريجيا لنوع من فقدان الأمل في نهاية العمر، قناعة خفية بأنها ســـتكون أفضل حالا من دوني. وارتباطنا معا بطفل ســـيمحو هذا القلق ويمنعها من رغبتها في الرحيل عني. بشكل عكسي من ناحيتها، كان الجدال من جانبها ضد وجود الطفل دليلا على أنها أرادت الرحيل، وعلى أنها كانت بالفعل تتسـلل بعيدا عني. ذلك يفسّـر لماذا كنت مســتثار المشاعر في تلك الليلة، في ما أعتقد، وقد دافعت عن نفســي بقسوة كأي محام ملتو مخادع، حتى وصــل الأمر، في دفاعي شــديد الدناءة، إلى حـد إخراج قصاصة الجريدة الشـنيعة تلك مــن محفظتي وإصراري علــى أن تقرأها: مولود في مرحــاض، التخلص من طفل. عندمــا وصلت إلى نهاية المقال، رفعت جريس رأســها إليّ والدموع تملأ عينيها وقالت: «هذا ليس عدلا، يا ســدني. ما علاقة هذا... هذا الكابوس بحالتنا؟ إنك تحدثني عن أطفال ماتوا في داكو، عن أزواج لا يمكن أن يكون لديهم أطفال، والآن تطلعني على هذه. ماذا بك؟ إنني أحاول فقط لم شمل حياتنا معا بأفضل طريقة أستطيعها. ألا تفهم هذا؟»

في الصباح التالي، استيقظت مبكرا وأعددت الإفطار لنا، وحملت صينية الطعام إلى حجرة النوم في تمام السابعة، قبل دقيقة واحدة عما تم ضبط جرس المنبه عليه. وتركت الصينية مؤقتا فوق الخزانة المنخفضة، وقمت بتعطيل جرس المنبه، ثم جلست على السرير بجوار جريس. في اللحظة التي فتحت فيها عينيها، وضعت ذراعيّ حولها وبدأت في تقبيل خدها، ، ورقبتها، وكتفها، وأنا أضغط رأسي عليها وأعتــذر عن الأشــياء الحمقاء التي قلتها في الليلــة الماضية. قلت لهــا إنها حرة في أن تعمل ما تريده، وأن القرار لها، وأنني ســأقف مســاندا لأي قرار ســتتخذه. جريس الجميلة، التي لــم تبد أبدا

منتفخة، أو متورمة الوجه، أو متعبة دامعة، أو غائمة العينين في الصباح، التي دائما ما تنهض من النوم بخفة ورشاقة جندي في معسكر تدريب أو طفل صغير، نهضت من أعمق نوم إلى يقظة تامة في بضع ثوان، ولفت ذراعيها حولي واحتضنتني بالمثل، ولم تنطق بكلمة، لكن قامت بإصدار سلسلة من الأصوات الصغيرة الخفيضة المهمهمة من قاع حنجرتها تعني بها أنها قد سامحتني، وأن الخلاف كان قد أصبح بالفعل وراء ظهرنا.

قدمت لها إفطارها بينما بقيت هي في السرير. أولا عصير البرتقال، ثم فنجان من القهوة به قدر من اللبن، وبعد ذلك بيضتان مسلوقتان لمدة دقيقتين ونصف الدقيقة وشريحة من التوست. كانت شهيتها جيدة، وليست هناك علامات غثيان أو إعياء الصباح، وبينما كنت أشرب قهوتي وأتناول قطعة التوست الخاصة بي، اعتقدت أنها لم تبد من قبل أكثر روعة عما كانت عليه في تلك اللحظة، قلت لنفسي: زوجتي كائن مضيء، فليقتلني البرق فورا لو نسيت في أيّ وقت كم أنا محظوظ أن أجلس بجانبها الآن.

قالت جريس: «لقد حلمت حلما غريبا، واحد من تلك السباقات السخيفة، المختلطة الذي يواصل فيه أحد الأشياء تغيره إلى شيء آخر. لكنه واضح جدا، أكثر واقعية من الواقع، لو كنت تعرف ما أعنيه».

«هل بإمكانك تذكره؟».

«معظمه، على ما أعتقد، لكنه أخذ في التضاؤل بالفعل. لم يعد بإمكاني أن أرى البداية، لكن في إحدى مراحله، كنا، أنت وأنا، مع والديّ، وكنا نبحث عن مكان جديد للإقامة فيه» .

«شقة أكبر، على ما أعتقد».

«كلا، ليس شــقة بل منزل. كنا نمضي بالســيارة هنا وهناك في مدينة ما. ليســت نيويورك أو تشارلوتســفيل، بل مكان آخر، مكان لم يســبق لي أن زرته من قبل. وقــال والدي إننا يجب أن نتأكد من توجهنــا إلى بلوبيرد أفنيو(طريق الطائــر الأزرق). من أين تفترض أنني استخرجت ذلك العنوان؟ بلوبيرد أفنيو».

«أنا لا أعرف. لكنه اسم لطيف».

«هذا هو ما قلته في الحلم بالضبط. قلت إنه اسم لطيف».

«هل أنت واثقة من أن هذا الحلم قد انتهى؟ ربما لا نزال نائمين، ونحلم معا».

«لا تكن ســخيفا. كنا نمضي في سيارة والدي، وأنت جالس إلى جواري في المقعد الخلفي، وقلت لوالدتي «إن هذا اسم لطيف».

«وبعد ذلك؟»

«توقفنــا أمام منزل قديم. كان مكانا كبيــرا، قصرا، بالفعل، ثم مضينــا نحن الأربعــة إلى الداخل وبدأنا نعايــن هنا وهناك. كانت جميــع الحجرات فارغة، ولا يوجد بها أثاث، لكنها كانت شاســعة، كقاعات المتحف أو ملاعب كرة الســلة، وكان بوســعنا سماع صدى أقدامنــا يتردد قبالة الجدران. ثم قرر والدي الصعود على الســلم لإلقاء نظرة على الطابق الثانــي، لكنني أردت النزول إلى البدروم. فــي البداية، لم ترد أنت أن تنزل معي، لكنني أخذت يدك وجررتك نوعا ما معي. وقد اتضح أنه مثل الطابق الأرضي تقريبا - حجرات فارغــة واحدة تلو الأخــرى - لكن بالضبط فــي منتصف الحجرة الأخيرة كان هناك باب مســحور في الأرضية. جذبته بقوة لأفتحه ورأيت أنه كان هناك ســلم يؤدي إلى المســتوى الأدنى. بدأت أهبط الســلم، وفي تلك المرة تبعتني أنت علــى الفور. كنت فضوليا تماما

مثلما كنت أنا وقتها، وكان الأمر كما لو أننا كنا في مغامرة. تعرف، كنا كطفلين يستكشفان منزلا غريبا، وكنا فزعين قليلا، لكننا في الوقت نفسه كنا مستمتعين بما نفعله».

«كم كان يبلغ طول السلم؟»

«لا أعرف، نحو عشر أقدام أو اثنتي عشرة. شيء مثل هذا».

«عشر أقدام أو اثنتا عشرة... وبعد ذلك؟»

«وجدنا أنفسنا في حجرة. أصغر من تلك التي في الأعلى، وسقفها منخفض كثيرا. وكان المكان كله ممتلئا بأرفف الكتب. أرفف معدنية، لونها رمادي، كتلك التي تستخدم في المكتبات. بدأنا نطالع عناوين الكتب، واتضح أنك أنت مؤلفها كلها، يا سد. المئات والمئات من الكتب، وكان اسمك مكتوبا على كعب كل كتاب «سدني أور».

«مرعب».

«كلا، على الإطلاق. شعرت بأنني فخورة جدا بك. بعدما ألقينا نظرة إلى الكتب لبرهة، بدأت أتجول هنا وهناك مرة ثانية، وفي النهاية وجدت بابا. فتحته، وفي الداخل كانت هناك حجرة النوم الصغيرة الممتازة تلك. مترفة جدا، بها سجاد فارسي ناعم ومقاعد وثيرة، ولوحات على الجدران، وبخور يحترق على المائدة، وسرير بوسائد من الحرير ولحاف أحمر من الساتان. ناديت عليك، وفي اللحظة التي دخلت فيها، ألقيت بذراعي حولك. ومع كل هذه اللهفة أخذت أنت تحضنني بشوق، لا أعرف إلى متى واصلنا هذا.

لكن في وقت ما سمعنا صوت سيارة والدي وهي تمضي مبتعدة. لم يضايقنا هذا. وقلنا سوف نلحق بهما في ما بعد، ثم بدأنا نعيد الكرّة ثانية. وبعدما انتهينا. نعست لفترة، وعندما أفقت كنت أنت

تقف عند الباب، تشد المقبض، وتبدو يائسا قليلا. وتساءلت: «ما الأمر»، وقلت أنت: «يبدو كأننا قد حُبِسنا هنا».

«هذا هو أغرب شيء سمعته في أي وقت».

«إنه مجرد حلم، يا سد. والأحلام كلها غريبة».

«لم يسبق لي أن تكلمت في أثناء نومي، أليس كذلك؟».

«ما الذي تعنيه؟»..

«أعرف أنك لا تدخلين حجرة مكتبي أبدا. لكن إذا فعلتِ، وإذا حدث وقمت بفتح الدفتر الأزرق الذي اشتريته يوم السبت، فسترين أن القصة التي كنت أكتبها مشابهة لحلمك. السلم الذي يؤدي إلى حجرة تحت الأرض، خزانات الكتب الخاصة بالمكتبة، حجرات النوم الصغيرة في المؤخرة. وبطلي المحبوس في تلك الحجرة حتى الآن، ولا أعرف كيف أخرجه».

«عجيب».

«إنه أكثر من عجيب. إنه ليصيب بالقشعريرة».

« الشيء الغريب، أن هذا هو ما انتهى به الحلم. كانت على وجهك تلك النظرة المعبرة عن الخوف، لكن قبل أن اتمكن من القيام بأي شيء لمساعدتك، استيقظت. وكنت أنت هناك على السرير وذراعاك حولي، وتعانقني بالطريقة نفسها التي عانقتني بها في الحلم. كان شيئا رائعا. شعرت كما لو أن الحلم لا يزال مستمرا، حتى بعدما استيقظت».

«إذن فأنت لا تعرفين ما الذي حدث لنا بعدما انغلقت الحجرة علينا».

«لم أصل إلى أبعد من ذلك. لكن كان علينا أن نجد طريقا للخروج. لا يمكن أن يموت الناس في أحلامهم، أنت تعرف. حتى

إذا كان الباب مغلقا، فشيء ما كان سيحدث حتى نخرج. هـذا هو ما عليه الأمر. مادمت تحلم، هناك مخرج دائما».

بعـد مغادرة جريـس إلى مانهاتن، جلسـت إلى آلتـي الكاتبة وأخـذت أعمل فـي معالجتي لفيلم بوبي هانتـر. حاولت اختصار الملخص لأربع صفحات، لكنني انتهيت إلى كتابة سـت، فقد أدركت أن بعـض المسـائل بحاجة إلى مزيد من الإيضاحـات، ولم أرد أن تكون هناك أي ثغرات في القصة. أولا، إذا كانت رحلة الاسـتطلاع محفوفـة بكثير من المخاطـر واحتمال التعرض لمثـل تلك العقوبة القاسـية، فلماذا سـيرغب أي شـخص في المخاطرة بالسفر إلى الماضـي؟ قررت أن أجعل الرحلة اختيارية، أو شـيئا يقوم به المرء بإرادته، وليس بالإكراه أو الإلزام. ثانيا، بالنسـبة إلى شـيء آخر، كيف سيعرف الناس الذين ينتمون إلى القرن الثاني والعشرين متى يكون المسـافر قد كسـر القواعد؟ قمت باختراع شـعبة معينة من الشـرطة الوطنية تتولى أمر الاهتمام بهذا. يجلس وكلاء السـفر عبر الزمن فـي المكتبات للانكباب على قـراءة الكتب، والمجلات، والجرائد، وعندما يتدخل مسافر شاب في أفعال ماضية لشخص آخر، تتغير الكلمات الموجودة في الكتب. اسـم، لي هارفي أوزوالد، على سـبيل المثال، يختفي فجـأة من كل عمل لـه علاقة باغتيال كينيـدي. بتخيل هذا المنظر، فهمت أن تلـك التغييرات من الممكن أن تتحـول إلى تأثير بصري مذهل: مئات الكلمات التي تتدافع من كل جانب، وتعيد ترتيب نفسـها على الصفحات المطبوعة، تتحرك ذهابا وإيابا مثل حشرات صغيرة مجنونة.

عندما انتهيت من الكتابة على الآلة الكاتبة، أعدت قراءة الملخص مرة واحدة، وأصلحت بعض أخطاء مطبعية في الكتابة، ثم مشـيت

إلى نهاية الصالة حيث المطبخ واتصلت بوكالة سكلار. كانت ماري مشغولة باتصال آخر، لكنني أخبرت مساعدتها بأنني سأكون في مكتب الوكالة خلال ساعة أو ساعتين لتسليم المخطوطة، قالت: «حدث هذا بسرعة»؟

«نعم، أظن ذلك»، «لكنك تعرفين ما عليه الأمور يا أنجيلا. عندما تسافرين في الزمن، فليس لديك ثانية واحدة لتخسريها».

ضحكت أنجيلا من تعليقي الواهن وقالت: «حسنا»، «سأخبر ماري بأنك في طريقك. لكن لا داعي للاستعجال الشديد، أنت تعرف. بإمكانك أن تضعه في صندوق البريد وتوفر على نفسك عناء المشوار».

«لا تثقي في البريد، يا سيدتي»، وأنا أثقلها بخنّتي التي لراعي بقر من أوكلاهوما. «لم ولن أفعل هذا أبدا».

بعد إنهائنا المكالمة، رفعت السماعة مرة ثانية عن جهاز التليفون واتصلت برقم تروس. كان مكتب ماري في الطريق الخامس بين شارعي ١٢ و١٣، ليس بعيدا عن مسكن تروس، فخطر لي أنه قد يكون مهتما بالتقائنا وتناول الغداء. كنت أريد أن أعرف أيضا الحالة التي كانت عليها ساقه. فنحن لم نتحدث منذ مساء السبت، وكان وقتا مناسبا لمعرفة حالته والاطمئنان عليه ومعرفة آخر التقارير عن صحته.

«لا شيء جديد»، قال. «ليست أسوأ مما كانت عليه، لكن ليس هناك تحسّن. وصف الطبيب دواء مضادا لمسببات الالتهاب، وعندما أخذت أول قرص أمس الأول، انتابني رد فعل سيئ: تقيؤ، دوار بالرأس، آثار جانبية واضطرابات. مازلت أشعر بالإنهاك قليلا من جراء هذا كله».

«ســـأمضي إلى مانهاتن لفترة قصيرة لرؤية ماري ســـكلار، وقد فكـــرت أن أتوقف في طريقـــي لرؤيتك بعدما أنتهـــي. ربما نتناول الغداء أو شيئا من هذا، لكن لا يبدو أن تلك هي اللحظة المناسبة».

«لماذا لا تأتي غدا؟ من المؤكد أنني ســـأكون في حالة جيدة غدا. على الأقل سأكون مع هذه اللعنات بشكل أفضل».

غادرت الشقة في الحادية عشرة والنصف إلى شارع «بيرجين»، حيث ســـافرت بالقطار (إف) المتجه إلى مانهاتن. كانت هناك عدة اختـــلالات غريبة علـــى امتداد الطريق - توقـــف طويل في النفق، انقطـــاع للتيار عن الأنوار في المركبة لمســـافة أربع محطات، عبور بطـــيء غير معتاد من محطة شـــارع يورك إلـــى الجانب الآخر من النهر - وعندما وصلت إلـــى مكتب ماري، كانت قد غادرته بالفعل لتنـــاول الغداء. تركت المعالجة مع أنجيلا، البدينة، ماكينة التدخين التـــي تتولى الرد على التليفونات وإرســـال الـــرزم والطرود، والتي فاجأتني بنهوضها عن مكتبهـــا وتقبيلها لي قبلتي وداع إيطاليتين، متعاقبتين على هيئة نقرة واحدة على كل خد. «من السيّئ جدا أنك متزوج»، همست. «أنت وأنا كان من الممكن أن نشكل تآلفا موسيقيا معا، يا سد».

كانـــت أنجيلا تمزح دائمـــا كفرس تحب العلاقـــات، وبعد ثلاث سنوات من الممارسة المتقنة، توصلنا بوضوح إلى روتين للتعامل بشكل مهذب. حاولـــت المحافظة على طرف اللعبة الخاص بي، فأعطيتها الإجابة التي كانت تبحث عنها. «لا شـــيء يدوم»، قلت. «فقط ابقي هنا، أيتها السيدة الملائكية، وعاجلا أو آجلا سوف أكون حرا».

لم يكن هنـــاك مبرر للعودة إلى بروكلين على الفور، لذلك قررت القيام بتمشـــيتي الخاصة بفترة بعد الظهـــر في «فيليج»، ثم أتناول

وجبة مختصرة من الطعام في مكان ما قبل أن أستقل مترو الأنفاق إلى المنزل. اتجهت غربا من الشـــارع الخامس، ومشـــيت على طول الشارع الثاني عشر، بأحجاره السمراء الجميلة والصغيرة، وأشجاره الصغيرة المرتبة المعتنى بها، وبمرور الوقت كنت قد تجاوزت «المدرسة الجديدة» واقتربت من الطريق الســادس، كنــت غارقا في التفكير بالفعــل. كان بوين لا يزال محبوســا في الحجــرة، ومع المضامين المقلقلة في حلم جريس والتي لا تزال تتردد في رأســي، خطرت لي عدة أفكار جديدة بشــأن القصة. ضاع مني الطريق الذي سأمضي فيــه بعد ذلك، وطوال الثلاثين أو الأربعين دقيقة التالية تجولت في الشــوارع هنا وهناك كرجل أعمى، كنــت في تلك الحجرة الموجودة تحت الأرض في كانســاس ســيتي أكثر مما كنت في مانهاتن، فلم أسترشــد في سيري ســوى بأدنى ملاحظة للأشــياء المحيطة بي. لم يحدث إلاّ بعدما وجدت نفســي في شــارع هدسون، وأنا أنسل متجاوزا النافذة الأمامية لـ «حانة الحصان الأبيض»، توقفت قدماي أخيرا عن التحرك. اكتشــفت أن شــهيتي قد تعاظمت، وبمجرد أن أدركت هذه الحقيقة، انتقل تركيز انتباهي من رأســي إلى معدتي. كنت مستعدا للجلوس وتناول وجبة الغداء[١٩].

كنت قد ذهبت إلى «الحصان الأبيض» في الماضي مرات عدة، لكن ذلك لم يحدث منذ عدة ســنوات، وفي اللحظة التي فتحت فيها الباب، كنت سعيدا أن أرى أنه لم يتغير شيء. البار الخشبي نفســه كما كان عليه الحال في الســابق ممتلئا برائحة الدخان، بالمناضد نفســها المجروحــة بالعلامات والكراســي المتأرجحة، نشارة الخشــب نفسها على الأرضية، والســاعة الكبيرة نفسها على الحائط الشــمالي. كانت المناضد كلها مشــغولة، لكن كان

هناك مكانان شاغران عند البار. اندسست في أحد المقعدين وطلبت هامبورجر وكوبا من البيرة. نادرا ما أشرب في أثناء النهار، لكن وجودي في «الحصان الأبيض» جعلني في حالة من الحنين (تذكر كل الساعات التي قضيتها هناك في أواخر سنوات مراهقتي وأوائل العشرينيات من عمري)، فقررت أن أتناول شرابا في صحة الأيام الخالية. بعد أن انتهيت من تسوية الطلبات مع الجرسون حدث أن أمعنت النظر في الرجل الذي كان يجلس إلى يميني. فقد رأيته لكن من الخلف عندما دخلت إلى الحانة، رجل رفيع في جاكيت بني منحن على مشروبه، وشيء ما في ما يتعلق بوضعه الخاص في جلسته فجّر إشارة صغيرة في رأسي، في ما يتعلق بما لا أعرفه. التعرف على ملامحه، ربما. أو ربما شيء ما أكثر إبهاما: ذكرى رجل آخر في جاكيت بني كان يجلس هنا في المكان نفسه قبل سنوات، قطعة صغيرة جدا إلى حد التفاهة، شظية من الماضي القديم. كان رأس هذا الرجل دائما منكسا إلى أسفل، وكان يتأمل كوبه طويلا، وكان كوبه ممتلئا حتى منتصفه بالإسكوتش أو البوربون. كان بإمكاني فقط أن أرى وجهه من الجانب، وكان محجوبا بشكل جزئي بمعصمه الأيسر، لكن لم يكن هناك شك في أن الوجه يخص شخصا كنت قد اعتقدت أنني لن أراه مرة ثانية. إنه إم. آر. تشانج.

«السيد تشانج»، قلت. «كيف حالك؟».

استدار تشانج عندما ذكر اسمه، وكان يبدو حزينا وربما سكران بعض الشيء. في البداية، لم يبد أنه قد تذكر من أنا، لكن وجهه راح يبتهج تدريجيا. «آه»، قال. «السيد، سدني. السيد سدني، أيها الرجل الرائع».

«لقد عدت إلى محلك بالأمس»، قلت، «لكن كل شيء قد اختفى. ما الذي حدث؟».

«مشـــكلة كبيرة»، أجاب تشانج، وهو يهزّ رأسه ويأخذ رشفة من مشـــروبه، من الواضح أنه كان على وشـــك البكاء. «لقد رفع المالك الإيجـــار عليّ. أخبرته أن لديّ عقدا للإيجار، لكنه ضحك وقال إنه سيســـتولي على البضائع مع مارشـــال المدينة إذا لـــم تصله النقود صبـــاح يوم الاثنين. لذلك أوقفت العمل في محلي مســـاء الســـبت وحزمت بضاعتي وغـــادرت. كل رجال المافيا في تلك المنطقة. إنهم يردونك قتيلا إذا لم تتجاوب معهم».

«يجب أن تستأجر محاميا وتقاضيه».

«لا داعي للمحامي. فهذا يحتاج إلى مال كثير جدا. سأبحث عن مكان جديد غدا. ربما في كوينز أو مانهاتن. لا داعي لبروكلين مرة ثانية. أخفق «قصر الورق». الحلم الأمريكي الكبير أخفق».

لم يكن من اللائق أن أســـمح لنفســـي بأن أستسلم للشفقة، لكن عندما عرض عليّ تشانج أن يبتاع لي شرابا، لم أجرؤ على رفضه. لم يكن احتســـاء الإســـكوتش في الواحدة والنصف بعد الظهر في قائمـــة العلاج الطبي المفروض عليّ. ولكي يزداد الأمر ســـوءا، الآن وبعد أن صرت أنا وتشانج صديقين ونتجاذب أطراف محادثة عميقة شعرت بأنني مجبر على رد المجاملة فطلبت المشروبين ثانية. وهذا معناه كأس من البيرة واثنتين من الإســـكوتش المضاعف في غضون ساعة تقريبا. لم يكن هذا كافيا لبلوغي درجة السكر الكامل، لكنني كنت أســـبح بلطف في ذلك الوقت، وباحتياطيّ نقودي المعتاد الذي صار يتآكل تدريجيا كلما مر الوقت علينا، ســـألت تشانج عددا من الأســـئلة الشـــخصية عن حياته في الصين وكيف جاء إلى أمريكا،

وهو أمر لم يكن من الممكن أن أفعله لو لم أكن تحت تأثير الشراب. أصابني كثير مما قاله بالارتباك. قدرته على التعبير عن نفسه باللغة الإنجليزية كانت تتراجع كلما ازداد تناوله للكحول، لكن في تدفق القصص سمعت منه عن طفولته في بكين، والثورة الثقافية، وهروبه المحفوف بالمخاطر من البلد عن طريق هونج كونج، وهو التطور البارز بصفة خاصة في حياته، بدليل أنه حكى عنه في وقت مبكر من المحادثة.

«كان أبي مدرس رياضيات»، قال، «خدم في مدرسة بكين المتوسطة رقم ١١. عندما جاءت الثورة الثقافية، اعتبروه، كعضو في «الجماعة السوداء»، شخصا بورجوازيا رجعيا. وفي يوم من الأيام أمر طلبة الحرس الأحمر الجماعة السوداء بسحب جميع الكتب من المكتبة ماعدا تلك التي كتبها الرئيس ماو. ضربوهم بالأحزمة لجعلهم يقومون بهذا. هذه كتب سيئة، قالوا. تنشر الرأسمالية والأفكار الرجعية المعادية، ويجب أن تحرق. حمل أبي ومدرسو الجماعة السوداء الآخرون الكتب إلى أرض الملعب. صاح فيهم رجال الحرس الأحمر وضربوهم حتى يقوموا بهذا. حملوا أحمالا ثقيلة واحدا تلو الآخر، حتى أصبح لديهم جبل كبير من الكتب. وأشعل رجال الحرس الأحمر النار فيه، وأخذ أبي في البكاء. ولهذا السبب ضربوه بأحزمتهم. ثم أصبح الحريق كبيرا وباعثا للحرارة، ثم دفع رجال الحرس الأحمر أفراد الجماعة السوداء مباشرة إلى حافة النار. جعلوهم يخفضون رؤوسهم وينحنون إلى الأمام. قالوا إنهم أرهقوا بسبب حرائق الثورة الثقافية العظيمة. كان يوما حارا في شهر أغسطس، والشمس فيه فظيعة. أصابت القروح وجه أبي وذراعيه، وغطت الجروح والكدمات كل أنحاء ظهره. في البيت،

صرخت أمي عندما رأته. كان أبـــي يصرخ، ونحـن جميعا نصـرخ، يا سيد سدني. في الأسبوع التالي، اعتقل أبي، وأرسلنا جميعا إلى الريـــف للعمل كفلاحين. هذا هو الوقت الـــذي تعلمت فيه أن أكره بلدي، الصين. منذ ذلك اليوم، بدأت أحلم بأمريكا. عشت في حلمي الأمريكـــي الكبير وأنا في الصين، لكن ليس هناك حلم في أمريكا. فهذا البلد ســيئ أيضا. الشيء نفســـه في كل مكان. الناس جميعا أشرار وفاسدون. الدول كلها شريرة وفاسدة[٢٠].

بعدما انتهيت من تناول شرابي الثاني«الكاتي سارك»، هززت يد تشـــانج وأخبرته أن الوقت قد حان لأنصرف. إنها الثانية والنصف، قلت، ويجب عليّ أن أعود إلى «كوبل هيل» لأتسوق قبل العشاء. بدا تشـــانج وقد أصيب بخيبة أمل. لم أكن أعرف ما الذي كان يتوقعه مني، لكن ربما اعتقد أنني كنت قد عقدت العزم على مرافقته طوال اليوم.

«لا توجد مشكلة»، قال أخيرا. «سأوصلك بسيارتي إلى البيت».

«هل لديك سيارة؟».

«بالطبع. لدى الجميع سيارات. ألا تمتلك واحدة؟».

«لا. إنك فعلا لست بحاجة إلى سيارة في نيويورك».

«تعال، يا ســـيد سدني. لقد طيبت خاطري وجعلتني سعيدا مرة ثانية. سأوصلك الآن إلى البيت».

«كلا شـــكرا. لا ينبغي على رجل في حالتك أن يقود سيارة. إنك سكران جدا».

«سكران؟».

«لقد احتسيت الكثير من الشراب».

«هراء. إم. آر تشانج صاح وواع تماما كالقاضي».

ابتســمت عندما سمعت تلك العبارة الأمريكية القديمة، وعندما رآني مبتســما، انفجر تشــانج فجــأة في نوبة مــن الضحك. كان الانفجار نفســه المتقطع الذي ســمعته منه في محله يوم الســبت. ها-ها-هــا. ها-ها-ها. ها-ها-ها. وجــدت في طريقته للضحك نوعــا من المرح المضطرب، جافة ومملــة بطريقة ما، ليس بها رنين جودة الإيقــاع الحيوية التي عادة ما يســمعها المرء عندما يضحك الناس. ولإثبات وجهة نظره، وثب تشــانج بســرعة عن كرسي البار وبدأ يروح بالقاعة جيئة وذهابا، لبيان قدرته على الاحتفاظ بتوازنه والسير في خط مستقيم. وبعدل تام، كان يجب عليّ الاعتراف بأنه قــد اجتاز الاختبار. كانت تحركاته ثابتة وغير متكلفة، وبدا أنه كان مسيطرا على نفســه تماما. وأدركت أنه لم يكن هناك إمكان لإثناء هــذا الرجل عن إصراره علــى توصيلي إلى البيــت، وكان إصراره قد تحول إلى ســبب عاطفي وسلامة نية؛ فاستسلمت على مضض وقبلت عرضه.

كانت الســيارة واقفة في مكان قرب الناصية في شارع بيري، ســيارة بونتياك حمراء جديدة وســريعة بإطارات ذات أشرطة بيضــاء في جوانبها الخارجية وســقف متحرك ضد الشــمس. أخبرت تشانج باعتقادي أنها تبدو مثل ثمرة طماطم طازجة من جيرسي، لكنني لم أسأل كيف يتفق التصريح بإخفاق أمريكي مع اقتناء مثل هذه الســيارة مرتفعة الثمن. بفخر واضح، فتح بابي أولا وأرشــدني إلى المقعد الأمامــي. ثم، نقر على غطاء المحرك بينمــا كان يلف من أمامها، ثم صعــد فوق الرصيف وفتح الباب الآخر. وبمجرد استقراره خلف عجلة القيادة، التفت إليّ وابتسم ابتسامة عريضة، وقال «بضاعة متينة».

«نعم، رائعة جدا»، أجبت.

«كـن على راحتك، يا سـيد سـدني. المقاعد تميل إلـى الوراء. تتحـرك إلى الوراء حتـى آخرها». مال وأراني مـكان ضغط الزر، وكمـا هو متوقع، بدأ المقعد يتراجع إلـى الوراء، إلى أن توقف عند زاويـة بمقدار خمس وأربعين درجة. «بهذه الطريقة»، قال تشـانج، «من الأفضل دائما الركوب بشكل مريح».

لم يكن بإمكاني أن أخالفه الرأي، وفي حالة السـكر التي كنت عليهـا قليلا وجدت أنـه من اللطيف أن أكون فـي وضع مخالف للوضـع العمودي. أدار تشـانج محـرك السـيارة، وأغلقت عينيّ للحظة، محاولا تخيل ما سـتحتاج إليه جريس للعشاء ذلك المساء، وأي طعـام ينبغي عليّ أن أشـتريه عندما أرجع إلى بروكلين. وقد اتضـح أن ما فعلته كان خاطئا، فبدلا من أن أفتح عينيّ مرة ثانية لأرى إلى أين كان يمضي تشـانج، سـقطت في النـوم على الفور، بالضبط كأي سـكران يفقد الوعي من الشرب في حفلة طعام أو شراب في منتصف اليوم.

لم أستيقظ حتى توقفت السيارة وأطفأ تشانج المحرك. مفترضا أنني عدت إلى كابل هيل، كنت على وشـك أن أشكره على توصيلته وأفتح الباب عندما أدركت أنني كنت في مكان آخر: شـارع تجاري مزدحـم في منطقة غير مألوفة، لاشـك في أنهـا بعيدة عن محل إقامتي. عندما اعتدلت في جلستي لإلقاء نظرة متفحصة، رأيت أن معظم العلامات واللافتات كانت باللغة الصينية.

«أين نحن؟» سألت.

«أبشر، ابتهج»، قال تشانج. «الحي الصيني رقم ٢».

«لماذا أحضرتني إلى هنا؟».

«وأنا أقود السيارة، خطرت لي فكرة رائعة. ناد صغير لطيف في المربع التالي، مكان جيد للاسترخاء. فأنت تبدو متعبا، يا سيد سد. سأصحبك إلى هناك، وستشعر بتحسن».

«ما الـــذي تتحدث عنه؟ إنها الثالثة والربع، ويجب عليّ أن أصل إلى البيت».

«نصف ســاعة فقط. أدخلك عالم المتعة، أعدك. ثم أوصلك إلى البيت. اتفقنا؟».

«أنـــا لا أفضل هــذا. فقط أوصلنـــي إلى أقــرب محطة مترو، وسأذهب إلى البيت بنفسي».

«من فضلك. فهذا مهم جدا بالنســبة إلي. ربما فرصة عمل، أنا بحاجة إلى نصيحة من رجل ذكي مثلك. أنت ذكي جدا يا سيد سد. بإمكاني أن أثق بك».

«أنا ليســت لديّ أي فكرة عما تتحدث عنـــه. أولا تريد مني أن أسترخي. ثم تريدني أن أعطيك النصيحة. أي الأمرين تريد؟»

«كليهما. كل الأشياء معا. ترى المكان، وتسترخي، ثم تقول لي بعد ذلك ما رأيك. أمر بسيط جدا».

«نصف ساعة فقط؟».

«لا أكثر وربما كان ذلك أفضل. كل شيء على حسابي، مجانا. ثم أوصلك إلى كوبل هيل، في بروكلين. اتفقنا؟».

كان عصر ذلك اليوم قــد أصبح غريبا بكل معنى الكلمة، لكنني ســمحت لنفســي بأن يقنعني بالذهاب معه. ليس بإمكاني فعلا أن أشرح الســبب. حب الاســتطلاع، ربما، لكنه أيضا كان من الممكن أن يكــون العكس تماما، شــعور باللامبالاة التامة. كان تشـــانج قد بدأ يضغط على أعصابي ويصيبني بالتوتر، ولم يعد بوســعي تحمل

المزيد من توسـله المسـتمر، خصوصا في محبسي الضيق في تلك السيارة السخيفة التي يقتنيها. لو كان نصف ساعة أخرى من وقتي سـيرضيه، اعتقدت أنه سـيكون من المفيد التظاهر بالتعاون. لذا خرجـت من السـيارة البونتياك وتبعته إلى نهايـة الطريق المزدحم بكثافة، وأنا أستنشـق الأبخرة والأدخنة اللاذعة والروائح الحريفة النفاذة لمحلات السمك وأرفف الخضراوات المرصوصة والممتدة على طول المربع. عند أول ناصية، انعطفنا إلى اليسـار، ومشينا حوالي مائة قدم، ثم انعطفنا إلى اليسـار مرة ثانية، ودخلنا زقاقا ضيقا به مبنى صغير من الطـوب المحروق الرمادي قرب نهايته، بيت صغير من طابق واحد بلا نوافذ وسـقفه مسـطح. كان نموذجا كلاسيكيا للسرقة بالإكراه، لكنني لم أشعر بأدنى قدر من التهديد. كان تشانج فـي حالة مزاجية مبتهجة جدا، وبعزمه المعتاد على تحقيق غرضه، بدا مصمما على الوصول إلى وجهتنا النهائية.

عندمـا وصلنا إلى بيت مبنـي بالطوب الأصفر المحروق، ضغط تشـانج إصبعه على جرس الباب. وبعد ثوان قليلة، انفتح الباب عن فرجة أطل برأسه منها رجل صيني في الستينات من عمره. أومأ بنوع من التقدير عندما رأى تشانج، تبادلا جملا قليلة باللغة الماندارينية، ثم سـمح لنا بالدخـول. اتضح أن ما أطلق عليه نادي الاسـترخاء هو محل صغير للعمل بالسـخرة. عشـرون امرأة صينية يجلسـن إلى مناضـد عليها ماكينات خياطة، يقمن معا بحياكة أثواب زاهية الألوان، مصنوعة من مواد خام صناعية رخيصة. لم ترفع أي واحدة منهن بصرها لتنظر إلينا عندما دخلنا، وقد أسـرع تشانج متجاوزا إياهن بأسـرع ما في وسـعه، يتصرف كما لو كـن غير موجودات. واصلنا سـيرنا، ونحن نشـق طريقنا حول المناضد حتى وصلنا إلى

باب في مؤخرة الحجرة. فتحه لنا الرجل العجوز، ومضينا، تشـــانج وأنا، إلى داخل المكان الذي كان شديد السواد، ومظلما جدا مقارنة بأضواء الورشة الفلورسنت خلفنا، لدرجة أنني في البداية لم أتمكن من رؤية أي شيء.

بمجرد أن تكيفت عينـــاي قليلا، لاحظت بعض اللمبات الخافتة ذات القـــوة الكهربائيـــة المنخفضة تتألق في أماكـــن مختلفة في كل مكان في الحجرة. وكانت كل واحدة منها مثبت فيها مصباح له لون مختلــف - أحمر، وأصفر، وأرجوانـــي، وأزرق - وللحظة فكرت في الدفاتر البرتغالية التي كانت في محل تشانج الذي أفلس. وتساءلت إن كانت تلك الدفاتر التي رأيتها يوم الســبت كانت لا تزال موجودة، وإن كانت لا تزال، هل كان سيرغب في بيعها لي. وضعت في ذهني ملحوظة أن أسأله عنها قبل أن ننصرف.

بعد وقـــت قصير، قادني إلى كرســـي طويل أو مقعد، شـــيء ما مصنوع من الجلد أو الجلد الصناعي الملتف حول قاعدته وله ملمس وسائدي ناعم كالقطيفة. جلست، وجلس تشانج إلى جواري، وأدركت أننا كنا في شـــيء ما يشبه البار، بار ذو شكل بيضاوي مصقول كان يحتل مركز الحجرة. كانت الأمور قد أصبحت واضحة بالنســبة إلي في ذلك الوقت. كان بإمكاني أن أتبين بضعة أشـــخاص يجلسون في مقابلنا، رجلان يرتديان حلتين وربطتي عنق، وآخر آســـيوي يرتدي مـــا بدا أنه قميص هاوايي، واثنتان أو ثلاث من النســـاء، لم تبد أي منهن مرتدية أي ملابس. آه، قلت لنفســـي، إذن فهذا هو المكان. ناد للجنس. غريب بدرجة كافية، عندئذ فقط لاحظت أن هناك موسيقى تعزف في الخلفية، مقطوعة ناعمة تصدح، انبعثت من اســـتريو غير مرئي. اجتهدت في تمييز الأغنية، لكنني لم أتمكن من التعرف عليها.

شيء من نسخة موساك من إصدار لألبوم جماعي قديم للروك أند رول، ربما تكون للبيتيلز، فكرت، لكن ربما لا تكون كذلك.

«حسنا، يا سيد سد»، قال تشانج، «ما رأيك؟».

قبل أن أتمكن من الرد عليه، ظهر جرسون أمامنا وسألنا عن طلبنا. ربما كان هو الرجل العجوز الذي فتح لنا الباب في وقت سابق، لكني كنت غير متأكد. من الممكن أن يكون أخاه، أو ربما قريبا له من درجة أخرى له حصة في المشروع. مال تشانج وهمس في أذني. «لا توجد كحوليات»، قال. «بيرة خالية من الكحول، سفن آب، كولا. من الخطر جدا بيع المسكرات في مكان مثل هذا. فليست هناك رخصة ببيع المشروبات الروحية». الآن وبعدما عرفت الإمكانات المتاحة، فقد اخترت الكولا. واختار تشانج الشيء نفسه.

«مكان جديد وممتاز»، استمر بائع الأدوات المكتبية السابق. «افتتح يوم السبت فقط. إنهم لا يزالون يعملون على تسوية الخلافات، لكنني أرى احتمالا كبيرا هنا. إنهم يسألون إذا كنت أرغب في الاستثمار كشريك صغير».

«إنه مكان سيء»، قلت. «هل أنت واثق بأنك تريد التورط في أعمال غير قانونية؟»

«إنه ليس هكذا. إنه ناد للاسترخاء به نساء يساعدن الرجال الكادحين على أن يشعروا بأنهم أفضل».

«إنني لن أتجادل معك في فروق تافهة مثل هذه. إذا كنت شديد التحمس لهذا، امض قدما. لكنني كنت أظن أنك قد أفلست».

«المال ليس مشكلة على الإطلاق. إنني أقترض. لو ظل ربح الاستثمار أعلى من فائدة القرض، فإن كل شيء يكون على ما يرام».

«لو».

«لو هذه قليلة الشأن جدا لا تكاد تذكر. إنهم يجدون فتيات رائعات متألقات للعمل هنا. ملكة جمال العالم، مارلين مونرو، نجمة الشهر. فقط النساء الأكثر سخونة، وإثارة. لا يمكن لرجل أن يقاوم. انظر، سأريك».

«كلا شكرا. إنني رجل متزوج. لديّ كل شيء أحتاجه في البيت».

«كل الرجال يقولون هذا».

وقبل أن أتمكن من إيقافه، استدار تشانج بكرسيه وأصدر إشارة إيمائية بيده. تطلعت بنفسي إلى ذلك الاتجاه فرأيت خمسة أو ستة أكشاك أو حجرات كوكتيل مصفوفة في مستوى الجدار نفسه، شيء فاتني أن التفت إليه عندما دخلت القاعة أول مرة. تجلس نساء في ثلاثة من هذه الأكشاك، من الواضح أنهن في انتظار زبائن، لكن الأكشاك الأخرى كانت ستائرها مغلقة، على الأرجح لأن النساء اللاتي يشغلن هذه الأماكن كن مشغولات بالعمل. نهضت واحدة من هؤلاء النسوة عن مقعدها وجاءت تمشي في اتجاهنا. «هذه هي الأفضل»، قال تشانج، «أجملهن على الإطلاق. إنهم يدعونها الأميرة الأفريقية».

ظهرت امرأة طويلة سوداء من الظلام. كانت ترتدي عقدا من اللؤلؤ وحجر الراين[٢١]، وترتدي حذاء أبيض بارتفاع الركبتين، وحزام رقص ستربتيز أبيض رقيقا. كان شعرها مصففا على هيئة ضفائر معقدة، ومزينا بحلقات كالأساور في الأطراف كانت تطلق رنينا مثل أجراس الرياح عندما كانت تتحرك. كانت مشيتها رشيقة ومتراخية وواثقة الخطوة - نوع ملكي من المشية التي تبرر بلا شك لماذا

سُميت بالأميرة. بمرور الوقت كانت على مدى ست أقدام من البار، فهمت لماذا لم يكن تشانج مبالغا. كانت امرأة جميلة بشكل مذهل - ربما أجمل امرأة رأيتها من قبل. ومع ذلك لا تتجاوز العشرين من عمرها، أو ربما الثانية والعشرين. بدا جلدها أملس جدا ومغريا بشدة، وجدت أن مقاومة لمسه أمر مستحيل تقريبا.

«قولي مرحبا لصديقي»، أمرها تشانج. «سوف أسوي الحساب معك فما بعد».

استدارت إليّ وابتسمت، كاشفة عن مجموعة مدهشة من الأسنان البيضاء. «صباح الخير، يا عزيزي»[٢٢] ، قالت. «هل تتحدث الفرنسية؟»..

«كلا، أنا آسف. أتحدث الإنجليزية فقط».

«اسمي مارتين»، قالت بلكنة كريبولية[٢٣] رصينة.

«أنا سدني»، أجبت، ثم حاولت إحداث إقحام في المحادثة، سألتها من أي بلد أفريقي جاءت.

ضحكت. «لست من أفريقيا! هايتي». نطقت الكلمة الأخيرة في ثلاثة مقاطع، ها - يي - تي. «مكان سيئ»، قالت «دوفالييه، مقبض للنفس جدا. المكان هنا ألطف».

أومأت برأسي، ولم تكن لديّ فكرة عما سأقوله بعد ذلك. أردت أن أنهض وأغادر قبل أن أوقع نفسي في مشكلة، لكنني لم أستطع التحرك. فقد كانت الفتاة فائقة، ولم يكن بوسعي التوقف عن التطلع إليها.

«تو في دانسير أفيك موا؟»، قالت. «هل تريد أن ترقص معي؟».

«لا أعرف. ربما. لست راقصا بارعا جدا».

«أتريد شيئا آخر؟».

«لا أعـرف. حسـنا، ربمـا شـيئا واحدا... إذا لـم يكن طـلبه شيئا كثيرا».

«شيء واحد؟».

«كنت أتساءل... هل تمانعين بشدة لو لمستك؟».

«تلمسني؟ بالطبع. هذا سهل. المسني في أي مكان تريده».

سألت مارتين بكم أنا مدين لها، لكنها أشاحت وجهها عني وقالت إن صديقـي قد تولى بالفعل هذا الأمر. قبلتني عندما قلت لها إلى اللقاء، نقرة صغيرة ودودة على الخد، ثم باعدت أنا بين السـتائر ورجعت إلى البار للبحث عن تشـانج. لم يكن هناك. ربما وجد امرأة لنفسـه وهو بالفعل معها في كشك آخر، يختبر المؤهلات المهنية لواحدة من موظفاته في المسـتقبل. لم أزعج نفسي بالبقاء في المكان لاكتشاف الأمر. سرت حـول البار مرة واحـدة، فقط للتأكد من أنني لم أَسْـهُ عن وجوده، ثم وجدت الباب المؤدي إلى مصنع الملابس واتجهت إلى البيت.

لقد كانت تجربة يندم الإنسان عليها، وبدأ الأسف يعتريني خلال ثـوان، فقد تصاعد الأسـف متحولا إلى خجل وندم. كان الشـيء الوحيد الذي أردته هو الخروج من هناك بأقصى سرعة ممكنة.

الصباح التالي، يوم الأربعـاء، قدمت الإفطار لجريس مرة ثانية في السـرير. لم تكن هناك محادثة عن الأحلام هذه المرة، ولم يأت أحدنـا على ذكر الحمل أو ما كانـت تخطط لعمله فيما يتعلق بهذا الشـأن. كانت المسـألة لا تزال معلقة حتى الآن، لكن بعد سـلوكي المشين في «الملكات» في اليوم السابق، شعرت بالإحراج الشديد إزاء طرحي للموضوع. ففي غضون مسافة زمنية قليلة لا تزيد عن ستة وثلاثين ساعة، انقلب الأمر بالنسبة إلي من إنسان مدافع بغرور عن حقائق أخلاقية إلى زوج ذليل يشعر بالذنب.

ومع ذلك، حاولت المحافظة على مظهر جيد، وعلى الرغم من أن جريس كانت هادئة على نحو غير عادي ذلك الصباح، لا أعتقد أنها شكت في أن ثمة شيئا خطأ. أصررت على القيام بتوصيلها إلى محطة المترو، أمسكت بيدها لمسافة أربعة شوارع كاملة حتى محطة شارع بيرجين، وفي معظم هذا المشوار تحدثنا عن أمور عادية: غلاف خارجي كانت تعمل في تصميمه لكتاب عن التصوير الفوتوغرافي الفرنسي في القرن التاسع عشر، ومعالجة الفيلم التي قمت بتسليمها في اليوم السابق والمال الذي كنت آمل في أن يأتي من ورائها، وما سنتناوله على العشاء هذه الليلة. لكن، عند المربع السكني الأخير، غيّرت جريس فجأة نبرة المحادثة. أمسكت بيدي بإحكام وقالت: «إننا نثق أحدنا بالآخر، أليس كذلك، يا سد؟».

«نحن كذلك بالطبع. لم نكن لنقدر على التعايش معا لو لم نكن كذلك. إن فكرة الزواج بأكملها قائمة على أساس الثقة».

«من الممكن أن يمر الناس بأوقات صعبة، أليس كذلك؟ لكن هذا لا يعني أن الأمور لا يمكن أن يكتب لها النجاح في النهاية».

«نحن لا نمر الآن بوقت عصيب يا جريس. لقد خضنا ذلك بالفعل، ونحن الآن في سبيلنا إلى استجماع قوانا، ولم شملنا مرة ثانية».

«إنني سعيدة لأنك قلت هذا».

«وأنا سعيد لأنك سعيدة. لكن لماذا؟».

«لأن هذا هو ما أعتقده أنا أيضا. بغض النظر عما يحدث للطفل، فسيكون كل شيء بيننا على ما يرام. سننجح في تحقيق هذا».

«لقد نجحنا بالفعل. وصلنا إلى شارع إيزي، يا صغيرتي، وهنا سنتوقف».

توقفت جريس عن المشــي، ووضعت يدها خلف رقبتي، وجذبت وجهي إلى وجهها لتقبلني. «أنت الأفضل يا سدني»، قالت، ثم قبلتني مــرة ثانية إضافية (فوق البيعة). «بغض النظر عما يحدث، لا تنس هذا أبدا».

لــم أفهــم ما الذي كانت تتحــدث عنه، لكن قبــل أن أتمكن من ســؤالها عما كانت تعنيه، فكّت نفســها من بين ذراعيّ وبدأت تعدو نحــو المترو. وقفــت حيث كنت على الرصيــف، أراقبها وهي تقطع الياردات العشــر الأخيرة. ثم وصلت إلى الدرجة الكبيرة، أمســكت بالدرابزين، واختفت أسفل السلالم.

عندما عدت إلى الشقة، شغلت نفسي على مدار الساعة التالية، أقتل الوقت حتى تفتح وكالة ســكلار في التاسعة والنصف. غسلت أطباق الإفطار، ونظمت الســرير، ورتبت حجرة المعيشــة، ثم عدت إلى المطبــخ واتصلت بماري. كان الســبب الظاهري هو التأكد من أن أنجيــلا قد تذكــرت وأعطتها أوراقي، لكنني أعلــم أنها فعلت، كنت في الواقع أتصل لأعــرف رأي ماري فيما كتبت. «عمل جيد»، قالــت، من دون أن تبدو ســعيدة بصورة كبيــرة ولا محبطة للغاية. لكن، حقيقة أنني كتبت الخطوط العريضة بسرعة بالغة، قد مكنتها من القيام باتصالات تجارية فائقة الســرعة، وبمثابة المعجزة، وقد جعلهــا هذا متدفقة بالإثارة. في تلك الأيام، قبل ظهور آلة الفاكس، والبريد الإلكتروني، والخطابات الســريعة، قامت بإرسال المعالجة إلى كاليفورنيا مع ســاع خاص، الأمر الذي يعني أن عملي قد سافر بالفعــل عبر البلد علــى طائرة الليلة الماضيــة. «كان يجب عليّ أن أرســل عقدا إلى عميل آخر في لــوس أنجلوس»، قالت ماري، «لذا اســتأجرت ساعي خدمات ليأتي إلى المكتب في تمام الثالثة. قرأت

معالجتك بعد الغداء مباشرة، وبعد نصف ساعة كان الرجل قد حضر لتسلّم العقد. «هذا أيضا سيجري إيصاله إلى لوس أنجلوس»، قلت، «لذا ستأخذ هذا معك أيضا». ولذلك ناولته مخطوطتك، وهكذا سافرت مخطوطتك، هذا ما حدث بالضبط. المفروض أن تكون على مكتب هانتر في ظرف ثلاث ساعات».

«رائع»، قلت. «لكن ماذا عن الفكرة؟ هل تعتقدين أن لها فرصة في القبول؟»

«لقد قرأتها لمرة واحدة فقط. لم يكن لديّ وقت كاف لتفحصها، لكنها بدت جيدة بالنسبة إلي، يا سد. ممتعة جدا، مكتوبة بشكل رائع. لكنك لا تعرف أبدا هؤلاء الناس في هوليوود. أتصور أنها معالجة معقدة جدا بالنسبة إليهم».

«لذا لا ينبغي عليّ أن أحلق بآمالي».

«لا يمكن أن نقول هذا. فقط لا تعوّل عليها كثيرا، هذا كل شيء».

«لست أعوّل عليها. لكن سيكون المال لطيفا، أليس كذلك؟»

«حسنا، لديّ فعلا بعض الأنباء السارة لك فيما يتعلق بأمر المال. وفي الحقيقة، كنت سأتصل بك توا، لكنك سبقتني إلى الاتصال. قدمّ ناشر برتغالي عرضا لروايتيك الأخيرتين».

«برتغالي؟».

«لقد نشرت «صورة ذاتية» لك في إسبانيا بينما كنت في المستشفى. أنت تعرف هذا، لقد أخبرتك. وكانت التعليقات والمقالات جيدة جدا. والآن البرتغاليون مهتمون».

«هذا جيد. أعتقد أنهم يعرضون شيئا ما في حدود ثلاثمائة دولار».

«أربعمائة لكل كتاب. لكن بإمكاني بسهولة أن أرفع الرقم إلى خمسمائة».

«امضي في الأمر يا ماري. بعد خصم مصاريف الوكالة والضرائب الأجنبية، سأنتهي بالحصول على ما يقرب من أربعين سنتا».

«صحيح. لكن على الأقل سيُنشر عملاك باللغة البرتغالية. ما الخطأ في ذلك؟»

«لا شيء. بيسوا هو واحد من كتابي المفضلين. طردوا سالزار ولديهم الآن حكومة محترمة. ألهم زلزال لشبونة فولتير فكتب كانديد. وساعدت البرتغال في طرد الآلاف من اليهود خارج أوروبا أثناء الحرب. إنه بلد هائل. بالطبع، لم يسبق لي الوجود هناك من قبل، لكن هذا هو المكان الذي أعيش فيه الآن. سواء أحببته أو لا. البرتغال بلد ممتاز. الطريقة التي مرت بها الأمور خلال الأيام القليلة الماضية، كانت بسبب البرتغال».

«ما الذي تتحدث عنه؟».

«إنها قصة طويلة. سأخبرك بها في وقت آخر».

وصلت إلى شقة تروس في الوقت المناسب تماما، في الواحدة بالضبط. بينما كنت أرن الجرس، خطر لي إنه كان ينبغي عليّ أن أتوقف في مكان ما في هذا الحي وأشتري وجبتي غداء سريع لكلينا، فقد نسيت أمر مدام دوماس، المرأة التي من المارتينيك التي تدير البيت. كانت الوجبة قد أعدت بالفعل، وقُدمت إلينا في حجرة جون الصغيرة في الدور الثاني، الحجرة نفسها التي كنا قد تناولنا فيها العشاء الصيني مساء يوم السبت. كان المفروض أن ألاحظ أن مدام دوماس لم تكن في نوبة عملها ذلك اليوم. كانت ابنتها، ريجاين، هي التي فتحت الباب وقادتني إلى الطابق العلوي حيث

يوجد السيد جون. تذكرت أن تروس قد أطلق عليها صفة «من المبهج النظر إليها»، والآن بعدما رأيتها بنفسي، كنت مجبرا على الاعتراف بأنني وجدتها جذابة بشكل ملحوظ أيضا - شابة صغيرة طويلة ذات قوام متناسق وجلد أسمر متألق وعينين يقظتين لماحتين. بالطبع، ليس هناك حزام رقص ستربتيز أو حذاء جلدي طويل، لكن كانت هذه هي ثاني امرأة سوداء في الثانية والعشرين من عمرها تتحدث الفرنسية قابلتها خلال يومين، ووجدت أن التكرار متضارب، ولا يطاق تقريبا. لماذا لم تكن ريجاين دوماس فتاة قصيرة عادية وبسيطة، ذات بشرة سيئة وظهرها محدودب؟ ربما لم تكن ذات جمال مريع يوقف القلب كالذي تتمتع به مارتين من هايتي، لكنها كانت مخلوقا فاتنا بسبب منها هي ذاتها، وعندما فتحت الباب وابتسمت لي بطريقتها الودودة الواثقة والمعتدة بنفسها، شعرت بما يشبه التوبيخ، ورد ساخر نابع من ضميري القلق. كنت أفعل كل ما في وسعي كيلا أفكر فيما حدث في اليوم السابق، بحيث أنسى هفوتي المحزنة وأطرحها وراء ظهري، لكن لم يكن ثمة هرب مما فعلته. فقد برزت مارتين إلى الحياة مرة ثانية على هيئة ريجاين دوماس. كانت مارتين موجودة في كل مكان الآن، حتى هنا في شقة صديقي في شارع بارو، شقته البعيدة عن عالم النساء المشبوهات في ذلك المبنى الحجري الرديء في «الملكات».

بعكس المظهر الأشعث الذي كان عليه ليلة السبت، بدا جون في مظهر لائق هذه المرة. كان شعره ممشطا، وخصلات لحيته قد اختفت، ويرتدي قميصا مغسولا ومكويا أخيرا وجوربا نظيفا. لكنه لا يزال مشلول الحركة على أريكته، ساقه اليسرى مسندة فوق جبل من الوسائد والبطانيات، وبدا أنه في حالة من الألم كبيرة - في

حالة ســيئة تماما كما كان في الليلة السابقة، إن لم يكن أسوأ. لكن المظهــر الحليق الذي بــدا عليه كان مفاجأة لــي. عندما أحضرت ريجاين الغداء على الصينية في الطابق العلوي (ساندويتشات ديك رومي، وســلطة، ومياه فوارة)، بذلت كل ما وسعي كي أتجنب النظر إليها. وكان معنى هــذا تركيز انتباهي على جون، وعندما تفحصت ملامحه بعنايــة أكثر، رأيت أنه كان منهكا جــدا، وفي عينيه نظرة غائــرة جوفاء وشــحوب أو امتقاع مزعج في جلــده. ترك الأريكة مرتــين أثناء تواجدي هناك، وفي كلتا المرتين كان يبحث عن عكازيه يناور لكي ينقل نفسه إلى وضع الوقوف. من النظرة التي بدت على وجهه عندما لمست قدمه اليسرى الأرض، أدركت أن أقل ضغط على الوريد لابد أنه كان غير محتمل.

ســألته متــى كان من المفترض أن يصبح في حالة أحســن، لكن جون لم يشــأ التكلم عن هذا الأمر. لكنني ظللت وراءه حتى اعترف فــي النهاية بأنه لم يطلعنا على كل شــيء ليلة الســبت. لم أرغب في إزعاج جريس، قال، لكــن الحقيقة أنه كانت هناك جلطتان في ســاقه، وليســت جلطة واحدة. الأولى كانت في وريد سطحي. وقد تحللت تقريبا الآن ولم تعد تشكل أي تهديد، على الرغم من تسبيبها غالبية ما أشــار إليه جون من «عدم الراحة». وكانت الجلطة الثانية قابعــة في وريد داخلي عميق، وكانت تلك هي التي أقلقت الطبيب. الجرعات الضخمة لتذويب الجلطة وتخفيف التجلط قد وصفت له، وكان من المقرر أن يقوم جون بفحص في سان فينسنت يوم الجمعة. ولــو كانت النتائج أقل من المقبولة، فإن في مخطط الطبيب إدخاله المستشــفى وإبقاؤه هناك حتى تختفي الجلطة. من الممكن أن يكون التجلــط الوريدي قاتلا، قال جون. لو هربت الجلطة، من الممكن أن

ترحل خلال مجرى الدم وتنتهي في الرئة، مسببة جلطة رئوية وموتا مؤكدا تقريبا. «إن الأمر يشبه السير بقنبلة صغيرة في ساقي»، قال. «لو هززتها يمينا أو يسارا كثير جدا، من الممكن أن تنسفني». ثم أضاف، «لا تنطق بكلمة من هذا إلى جريس. هذا بيني وبينك تماما. هل فهمت؟ ولا كلمة وحيدة لعينة».

بعد هذا بوقت قصير، بدأنا نتحدث عن ابنه. ليس بإمكاني أن أتذكر ما الذي قادنا إلى تلك الحفرة الباعثة على اليأس واللوم الذاتي، لكن عذاب تروس كان ملموسا، وكل قلقه المتعلق بساقه لم يكن شيئا مقارنة بخيبة الأمل التي كان يشعر بها بخصوص جاكوب. «لقد فقدته»، قال. «بعد الأعمال المحزنة التي قام بها أخيرا، فلن أصدق أبدا أي كلمة أخرى يقولها لي».

حتى الأزمة الأخيرة، كان جاكوب طالبا في إس.يو.إن.واي. في بفالو. كان جون على معرفة بأعضاء كثيرين في قسم اللغة الإنجليزية هناك (كان واحد منهم، وهو تشارلز روثيشتاين، قد نشر دراسة طويلة عن رواياته)، وبعد كارثة جاكوب، ومجموع درجاته الذي يقترب من درجات الرسوب في المدرسة الثانوية، استغل قدرا من نفوذه واستعان ببعض معارفه لكي يُقبل الولد. سار الفصل الدراسي الأول بشكل معقول جدا، وقد نجح جاكوب في اجتياز كل مقرراته، لكن في نهاية الفصل الثاني تدهورت درجاته على نحو سيئ جدا حتى أنه وضع تحت نظام المراقبة الأكاديمية الصارمة. كان بحاجة إلى المحافظة على المستوى «ب» في المتوسط لتجنب حرمانه المؤقت، لكن في الفصل الدراسي في الخريف الخاص بطلبة السنة الثانية غاب عن حضور فصول الكثير من المواد، قام بالقليل من التكليفات والواجبات أو لم يقم بشيء منها على الإطلاق، وطُرد

من الفصل الدراسي وأجَّل تسجيله إلى الفصل الدراسي التالي. رجع إلى أمه في إيست هامبتون، حيث كانت تعيش مع زوجها الثالث (في البيت نفسه الذي شبّ فيه جاكوب مع زوج أمه الذي يحتقره كثيرا، وهو تاجر أعمال فنية يدعى رالف سينجلتون)، ووجد وظيفة لنصف الوقت في مخبز محلي. كما أنه كوّن فرقة روك مع ثلاثة من أصدقاء المدرسة الثانوية، لكن كان هناك الكثير من التوترات والمشاجرات في ما بينهم حتى انفضت الفرقة بعد ستة أشهر. وأخبر والده بأنه لا يرى جدوى من الكلية ولا يريد الرجوع إليها، لكن جون تمكن من مناقشته وإقناعه عن طريق عرض حوافز مالية معينة: علاوة أو مصروف مشجع، جيتار جديد إذا حافظ على ارتفاع درجاته في الفصل الدراسي الأول، ميني باص فولكس فاجن لو أنهى السنة الدراسية بتقدير متوسط «ب». وافق الولد على هذا، وفي أواخر شهر أغسطس عاد إلى بافلو ليمثل دور الطالب مرة ثانية - بشعر أخضر، وصف من الدبابيس المشبكة تتدلى من أذنه اليسرى، ومعطف أسود طويل. كان عصر التفاهة «البَنك» في أوج ازدهاره بين الشباب وقتها، وقد انضم جاكوب إلى نادي الغضب للمنشقين من الطبقة الوسطى الذي كانت قاعدته باستمرار في اتساع. كان من «الهيبي»، ومواكبا لأحدث صيحة في كل أساليب الحياة، ولم يكن متجاهلا من أي شخص.

التحق جاكوب بالفصل الدراسي فعلا، قال جون، لكن بعد أسبوع، من دون أن يحضر فصلا واحدا، عاد إلى مكتب التسجيل وسحب نفسه من المدرسة. وبالتالي أعيدت إليه الرسوم، وبدلا من أن يرسل الشيك إلى أبيه (الذي أمده بالمال في المقام الأول)، صرفه من أقرب بنك، ووضع ثلاثة آلاف دولار في جيبه، واتجه جنوبا إلى نيويورك.

وفقا لآخر ما وردني، إنه يعيش في مكان ما في إيسـت فيليج. وإذا كانت الإشـاعات المنتشـرة عنه صحيحة، فإنه يكون قد تمادى في تعاطي الهيروين - وهو على هذه الحال منذ أربعة أشهر.

«من قال لك هذا؟» سألته. «كيف عرفت أنه صحيح؟».

«اتصلت بي إليانور أمس صباحا. كانت تحاول معرفة شـيء ما من جاكوب، فـرد زميله في الحجرة على التلفون. زميله السـابق، ينبغي عليّ أن أقول هذا. وقال لها إن جاكوب قد ترك المدرسة منذ أسبوعين».

«والهيروين؟».

«أخبرها عـن هذا أيضًا. ليس هناك سـبب يجعله يكذب فيما يتعلـق بأمر مثل هذا. وفقـا لما قالته إليانور، فقـد بدا قلقا جدا. أنا لسـت مندهشا لهذا، يا سـد. فقد كنت أرتاب دائما في تعاطيه المخدرات. لكنني لم أكن أعرف بالضبط أنه كان بهذا السوء».

«ما الذي ستفعله بخصوص هذا؟».

«أنـا لا أعرف. فأنت من اعتاد على العمل مع الأطفال. ما الذي يمكنك أن تفعله؟»

«إنك تسـأل الشـخص غير المناسـب. فكل طلبتي كانوا فقراء، مراهقين سودا ينتمون إلى مناطق متهالكة متداعية وعائلات مفككة ومحطمة. الكثيرون منهم يتناولون المخدرات، لكن مشاكلهم لا تمت بصلة إلى مشكلة جاكوب».

«تعتقـد إليـانور أننا ينـبغي علينـا أن نخـرج للبحـث عنه. لكنـني لا يمكنني أن أتحرك. إنني ملتصق بهذه الأريكة بسبب ساقي».

«سـأقوم بهذا نيابة عنك إذا أحببت. وهذا لا يعني أنني لسـت مشغولا نوعا ما هذه الأيام».

«لا، لا، أنا لا أرغب في أن تتورط في هذا. إنها ليست مشكلتك. ستقوم إليانور وزوجها بهذه المهمة. على الأقل هذا هو ما قالته. لكنك لا تعرف، في ما يتعلق بها، إن كانت تعني هذا فعلا أم لا».

«وماذا عن زوجها الجديد؟».

«أنا لا أعرف. لم أقابله قط. الشيء الغريب، أنني لا أستطيع تذكر اسمه. كنت مستلقيا هنا ومحاولا التفكير فيه، لكنني لم أوفق أبدا. اسمه الأول «دون» شيء ما، على ما أظن، لكنني لست واثقا».

«وما الخطة بمجرد عثورهما على جاكوب؟».

«إخضاعه لبرنامج علاج من الإدمان».

«لكن هذه الأشياء غير رخيصة. من الذي سيتولى دفعها؟»

«أنا، بالطبع. إن إليانور تتقلب في النعيم والثراء هذه الأيام، لكنها بخيلة جدا بشكل لعين، إنني لن أضايق نفسي حتى بسؤالها. لقد سلب مني الولد ثلاثة آلاف دولار، ويجب عليّ الآن أن أدفع مبلغا آخر ليتعافى. إذا أردت أن تعرف الحقيقة، أشعر بالرغبة في انتزاع رقبته. أنت محظوظ لأنك ليس لديك أطفال، يا سد. إنهم رائعون عندما يكونون صغارا، لكن بعد ذلك يحطمون قلبك ويجعلونك بائسا. خمسة أقدام، الحد الأقصى. يجب عدم السماح لهم بأن ينموا ويكبروا ويزداد طولهم أكثر من هذا».

بعد تعليق جون الأخير، لم أتمكن من التوقف أو التراجع عن إطلاعه على أخباري. «ربما لن أكون بلا أطفال لفترة أطول من هذا»، قلت. «ليس واضحا ما الذي سنفعله بشأنه حتى الآن، لكن جريس حامل حاليا، قامت بعمل الاختبار يوم السبت».

لم أكن أعرف ما الذي كنت أتوقع من جون أن يقوله، لكن حتى

بعد شكواه الموجعة عن آلام الأبوة، اعتقدت أنه سينجح في النطق ببعض التهاني السطحية اللامبالية. أو على الأقل يتمنى لي الحظ السعيد ويحمسني للقيام بدور أفضل من الذي قام به هو. شيء ما، على أي حال، بعض الكلمات القليلة التي تشعرني بأنه قد سمع مني شيئا. لكن جون لم ينبس بكلمة. فقد بدا للحظة منكوبا مصدوما، كما لو أنه قد أُخبر لتوه عن موت شخص كان يحبه، ثم أشاح بوجهه بعيدا عني، وفجأة أدار رأسه يمنة ويسرة على الوسادة وهو ينظر مباشرة في استقامة إلى ظهر الأريكة.

«جريس المسكينة»، دمدم.

«لماذا تقول هذا؟».

أعاد جون رأسه ببطء نحوي، لكنه توقف في منتصف المسافة، رأسه على امتداد الأريكة، وعندما تكلم أبقى على تحديقه مثبتا على السقف. «فقط إن مضيّها في هذا سيكون كثيرا جدا»، قال، «وهي ليست قوية بالقدر الذي تعتقده. إنها بحاجة إلى الراحة».

«ستفعل بالضبط ما هي راغبة في عمله. القرار في يدها».

«إنني أعرفها منذ فترة أكبر بكثير مما تعرفها. الطفل هو آخر شيء تحتاجه الآن».

«لو كانت ستتم هذا الأمر، فقد فكرت في أن أطلب منك أن تكون العراب. لكنني لا أظن أنك ستهتم بذلك. ليس بسبب ما تقوله الآن».

«فقط لا تخسرها، يا سد. هذا كل ما أطلبه منك. إذا تداعت الأمور، فسيكون الأمر كارثة بالنسبة إليها».

«إنها لن تتداعى. وأنا لن أخسرها. لكن حتى لو فعلت، ما أهمية هذا بالنسبة إليك؟».

«جريس هي محل اهتمامي. إنها محل اهتمامي دائما».

«أنت لست والدها. ربما تعتقد أنك هذا في بعض الأحيان، لكنك لست كذلك. بإمكان جريس الاهتمام بشؤونها. لو قررت الحصول على طفل، فلن أوقفها. بل في الحقيقة سأكون سعيدا. فإنجاب طفل منها سيكون تقريبا أفضل شيء حدث لي على الإطلاق».

كان هذا أقرب نقاش متطرف وممتد وقع بين جون وبيني في أي وقت. كانت لحظة إحباط بالنسبة إلي، وبينما كانت كلماتي الأخيرة معلقة بتحد في الهواء، تساءلت إن كانت المحادثة بسبيلها أن تتخذ منعطفا أكثر فظاعة وشناعة. لحسن الحظ، تراجع كلانا قبل أن تتطور حمى الغضب بيننا أكثر، مدركين أن أحدنا كان على وشك أن يدفع الآخر إلى قول أشياء كنا سنندم عليها لاحقا - أشياء لا يمكن أن تنمحي من الذاكرة أبدا، بغض النظر عن كم الاعتذارات التي سنقولها بعد أن تهدأ ثائرتنا.

بحكمة شديدة، اختار جون تلك اللحظة للذهاب إلى الحمّام. بينما كنت أراقبه وهو يعاني من المعالجة الشاقة لسحب نفسه بعيدا عن الأريكة ثم وهو يعرج عبر الحجرة، انصرف عني كل العداء فجأة. كان يعيش تحت تهديد مفرط للغاية. كانت ساقه تقتله، وكان في صراع مع الأخبار الفظيعة المتعلقة بابنه، فكيف لا أستطيع مسامحته على التحدث بكلمات قليلة خشنة؟ في ضوء خيانة جاكوب واحتمال تعاطيه المخدرات، كانت جريس الابنة المعشوقة تماما، والتي لم تخذله قط، وربما كان هذا هو سبب صلابة وعناد جون في الدفاع عنها، وتدخله في أمور هي في النهاية لا تخصه. كان غاضبا من ابنه، نعم، لكن هذا الغضب كان مشحونا أيضا بجرعة ضخمة وحقيقية من الإحساس بالذنب. يعرف جون أنه قد

تخلى تقريبا عن مسـؤولياته كأب. فطلاقـه من إليانور عندما كان جاكوب في عمر سنة ونصف، وقد سمح لها بنقل الطفل من نيويورك عندما استقرت في إيست هامبتون مع زوجها الثاني في عام ١٩٦٦ بعـد ذلك، لم ير جون الولد إلاّ قليـلا: يقضيان أحيانا عطلة نهاية أسبوع في المدينة، رحلات قليلة إلى نيو إنجلاند وساوث وست أثناء العطلات الصيفية. ما يمكن أن يطلق عليه المرء وبصعوبة شـديدة أبا مساهما في خلق المشكلة بشكل فعلي، ثم، بعد وفاة تينا، اختفى من حياة جاكوب لمدة أربع سنوات، لم يره في المرحلة من سن الثانية عشـرة إلى السادسة عشـرة إلاّ مرة أو مرتين فقط. الآن، وهو في العشـرين، تحول هـذا الابن إلى فوضوي تام، وسـواء إن كان هذا خطأه أم لا، فإن جون يلوم نفسه على الكارثة.

كان قد ذهب من الحجرة منذ عشر دقائق أو خمسة عشر دقيقة. عندما عاد، ساعدته في الجلوس على الأريكة مرة ثانية، وأول شيء قالـه لي لم تكـن له أي علاقة بما كنا نتحدث عنـه منذ قليل. بدا أن النزاع قد تلاشـى أثناء رحلته إلى نهاية الصالة وأضحى بشكل واضح في طي النسيان.

«كيف حال فلتكرافت؟» سأل. «هل أحرزت أي تقدم؟»

«نعم ولا»، قلت. «كتبت كعاصفـة لمدة يومين، لكنني تعطلت بعد ذلك».

«والآن تعيد التفكير فيما يتعلق بالدفتر الأزرق».

«ربما. لم أعد متأكدا من معرفتي بما أفكر فيه».

«كنت متسرعا جدا في المرة السابقة، بدوت مثل كيميائي مجنون. أول رجل يحول الرصاص إلى ذهب».

«حسـنا، كانـت تجربـة رائعة. فـي أول مرة اسـتخدمت فيها

الدفتر الأزرق، أخبرتني جريس بأنني لم أكن موجودا هناك على الإطلاق».

«ما الذي تعنيه؟».

«إنني اختفيت. أعرف أن لهذا وقعا سخيفا، لكنها طرقت بابي بينما كنت أكتب، وعندما لم أجب عليها أطلت برأسها داخل الغرفة، وتقسم أنها لم ترني».

«لابد أنك كنت في مكان آخر في الشقة. ربما، في الحمّام».

«أعرف رأيك. وهذا هو ما تقوله جريس أيضا. لكنني لا أتذكر أنني ذهبت إلى الحمّام. لا أتذكر أي شيء خلا الجلوس إلى مكتبي والكتابة».

«ربما لا تتذكر أنت هذا، لكن ذلك لا يعني أنه لم يحدث. ينزع المرء إلى الشرود الذهني قليلا عندما تنساب الكلمات وتتدفق. أليس هذا صحيحا؟».

«صحيح. بالطبع صحيح. لكن بعد ذلك حدث شيء ما مشابه، يوم الاثنين. كنت في حجرتي أكتب، ولم أسمع جرس التلفون. وعندما نهضت عن مكتبي وذهبت إلى المطبخ، كانت هناك رسالتان على الماكينة».

«هكذا؟».

«لم أسمع الجرس. إنني أسمع التلفون دائما عندما يرن».

«كنت في غير كامل انتباهك، ضائعا في ما كنت تفعله».

«ربما. أنا لا أعتقد هذا. شيء ما غريب قد حدث، ولا أقوى على فهمه».

«اتصل بطبيبك، يا سد، وحدد موعدا لفحص رأسك».

«أعرف، إن الأمر كله متعلق برأسي. لا أقول إنه ليس كذلك، لكن

منذ أن اشــتريت ذلك الدفتر، وكل شيء صار مضطربا أو فاشلا. لست بمقدوري أن أقول إن كنت أنا الذي يستخدم الدفتر أو الدفتر هو الذي يستخدمني. هل يعني ذلك أي شيء؟».

«قليلا. لكنه ليس بالكثير».

«جيــد، دعني أوضــح الأمر بطريقــة أخرى. هل ســمعت في أي وقت عن كاتبة تدعى ســيلفيا ماكســويل؟ روائيــة أمريكية من العشرينيات».

«لقــد قرأت عــدة كتب لســيلفيا مونرو. نشــرت مجموعة من الراويات في العشرينيات والثلاثينيات. لكن ليست ماكسويل».

«هل سبق لها أن كتبت كتابا يدعى ليلة التنبؤ؟».

«كلا، لا علــم لي بذلــك. لكنني أعتقد أنها كتبت شــيئا ما في عنوانه وردت كلمة ليل، ليل هافانا، ربما. أو ليل لندن، ليس بوسعي أن أتذكر. لن تكــون معرفة الأمر صعبة على الإطلاق. فقط أذهب إلى المكتبة وابحث عنها».

شيئا فشيئا، انحرفنا بعيدا عن الدفتر الأزرق وبدأنا نتناقش في مسائل أكثر عملية. المال، في المقام الأول، وكيف آمل في حل مشاكلي المالية من خلال كتابة ســيناريو فيلم لبوبي هانتر. أخبرت جون عن المعالجة التــي قمت بها، أعطيته ملخصا ســريعا عن الحبكة التي أعددتها لنســختي من آلة الزمن، لكنه لم يبد كثيرا من الاستجابة. ماهر، أعتقد أنه قال هذا، أو شــيئا يشــبه المجاملــة العابرة غير المتحمســة، فشــعرت فجأة بالغباء، والإحراج، كما لو أن تروس قد نظــر إليّ كشــخص هابط رخيص يحاول ترويــج بضاعته على من يعــرض أعلى ثمن. لكنني كنت مخطئا فــي ترجمة رد فعله المكتوم على أنه الاســتهجان. وكان في الحقيقة قد تفهم أي وضع حرج كنا

فيه، وتبين أنه كان يفكر، محاولا التوصل إلى خطة لمساعدتي.

«أعــرف أن الأمر فيــه قدر من الحمق»، قلــت، «لكن إذا رحبوا بالفكرة، فسنكون ميسورين مرة ثانية ونتمكن من سداد ديوننا. وإن لم يفعلوا، فســنظل في الديون. أكــره الاتكال على مثل هذه الآمال الواهية، لكنها الحيلة الوحيدة التي لديّ في جعبتي».

«ربمــا لا»، قال جــون. «لو لم ينجح ذلــك الموضوع الخاص بآلة الزمن، ربما تقدر على كتابة ســيناريو آخر. إنك جيد في هذا النوع مــن الكتابة. لو ظلت ماري وراءك تدفعك بقــوة كافية، فإنني واثق بأنك ستجد شخصا ما يرغب في أن يدفع مقدارا نقديا وافرا».

«إن الأمــر لا يمضي بهذه الطريقة. إنهم يأتون إليك، فلا تذهب أنت إليهم. إلاّ إذا كانت لديك فكرة أصيلة، بالطبع. لكن هذه الفكرة ليست عندي».

«هذا هو ما أتحدث عنه. ربما تكون عندي فكرة تصلح لك».

«فكرة فيلم؟ كنت أعتقد أنك ضد كتابة الأفلام».

«منذ أســبوعين، وجدت صندوقا فيه بعض أشــيائي القديمة. قصص كتبتها في فترة مبكرة، رواية نصف مكتملة، مســرحيتان أو ثلاث. مادة قديمة، كتبتها عندما كنت في طور المراهقة والعشرينيات من عمري. ولم ينشــر أيّ منها من قبل. ولحســن الحظ، يجب أن أضيــف أنني عندما انتهيت من قــراءة القصص، وجدت واحدة لم تكن ســيئة إلى حد كبير. ومازلت غير راغب في نشــرها، لكن إذا أعطيتهــا لك، ربما تكون قادرا على إعادة التفكير فيها كفيلم. ربما سيساعدك اســمي. لو أخبرت منتج الفيلم أنك مقتبس قصة غير منشــورة لجون تروس، ربما ســيلقى هذا قدرا من الاهتمام. أنا لا أعرف. لكن حتى لو لم يعيروني أي اهتمام، فهناك عنصر أو مكوّن

بصري قوي للقصة. أعتقد أن الصور سوف تطرح نفسها كي يتم تصويرها بطريقة طبيعية جدا وجميلة».

«بالطبع اسمك سيساعد. سيحدث اختلافا هائلا».

«حسنا، اقرأ القصة، ودعني أعرف رأيك. إنها مسوّدة أولى فقط - خام غير مصقولة ومضطربة جدا - لذا لا تحكم على النثر بقسوة شديدة. وتذكر، أنني كنت بالكاد أكبر من طفل عندما كتبتها. أصغر بكثير منك الآن».

«ما الذي تدور حوله؟».

«إنها قطعة غريبة، لا تشبه أعمالي الأخرى على الإطلاق، لذلك فقد تندهش كثيرا في البداية. أظن أنني كنت سأسميها حكاية رمزية سياسية. إنها تدور في دولة خيالية في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، لكن بالفعل هي عن السنوات الأولى من خمسينيات القرن العشرين، ماكارثي، وهيواك(٢٤)، والفزع من الشيوعية - كل الأشياء البغيضة التي كانت مستمرة في تلك الفترة. الفكرة هي أن الحكومات دائما بحاجة إلى أعداء، حتى عندما لا تكون في حالة حرب. لو لم يكن لديك عدو حقيقي، اصنع واحدا وانشر الإشاعة. هذا يخيف المواطنين، وعندما يكون الناس في حالة خوف أو فزع، ينزعون إلى عدم الحياد عن الطريق».

«وماذا عن الدولة؟ هل هي بديل لأمريكا أم شيء آخر، بلد ما آخر؟».

«إنها جزء من أمريكا الشمالية، وجزء من أمريكا الجنوبية، لكن لكل منهما تاريخ مختلف كلية عن تاريخ الآخر. عودة إلى الفكرة، أنشأت القوى الأوروبية كلها مستعمرات في العالم الجديد. تطورت المستعمرات إلى دول مستقلة، ثم، شيئا فشيئا، بعد مئات السنوات

من الحروب والمناوشات، يندمجون تدريجيا في حلف كبير. السؤال هو: ما الذي سيحدث بعد تكوين الإمبراطورية؟ أيّ عدو ستخترعه لإفزاع الناس بدرجة كافية تكفل بقاء الحلف موحدا؟».

«وما الإجابة؟».

«تتظاهر أنك على وشك التعرض لغزو من جانب البرابرة المتوحشين. فقد قام الحلف بالفعل بطرد هؤلاء الناس خارج أراضيهم، لكنك الآن تنشر إشاعة عن أن جيشا من الجنود المناوئين للحلف قد عبر إلى أرض البدائيين ليؤجج ثورة بين الناس هناك. وهذا ليس صحيحا. فالجنود يعملون لمصلحة الحكومة. إنهم جزء من المؤامرة».

«من الذي يحكي القصة؟».

«رجل أُرسل للتحقيق في الإشاعات. يعمل مع فرع الحكومة غير المتورط في المؤامرة، وينتهي الأمر به إلى اعتقاله وتوجيه تهمة الخيانة إليه. ولجعل الأمور أكثر تعقيدا، يهرب الضابط المسؤول عن الجيش المزيف مع زوجة الراوي».

«الخداع والفساد في كل مكان».

«بالضبط. تدمير الإنسان بسبب براءته».

«هل تحمل عنوانا؟».

«إمبراطورية العِظام». إنها ليست طويلة جدا. خمس وأربعون صفحة أو خمسون - لكن هناك ما يكفي لاستخلاص فيلم منها، على ما أعتقد. خذ قرارك. إذا أردت استخدامها، سأمنحك مباركتي. وإن لم ترد، ارمها إذن في صندوق القمامة، وسننسى كل ما يتعلق بأمرها».

غادرت شقة تروس وأنا أشعر بالانغمار في كرمه وانعقاد اللسان

مــن فرط الامتنان، ولا حتى العــذاب القليل لاضطراري إلى توديع ريجاين في الطابق الســفلي كان من الممكن أن يقلل من ســعادتي. كانت المخطوطة في الجيب الجانبي لمعطفي، محفوظة في ظرف من مادة المانيلا، وأبقيت يدي عليه بينما كنت أســير إلى مترو الأنفاق، وأنا في لهفة شــديدة لفتحه والشروع في القراءة. كان جون خلفي دائما مشجعا لي ولما أقوم به من عمل، لكنني أعرف أن هذه الهدية الثمينة أو الهبة مرتبطة بجريس أكثر من شــخصي. كنت المشــلول المدمر جزئيا المســؤول عن الاهتمام والعناية بها، وإذا كان هناك أي شيء بإمكانه أن يفعله لجعلنا نقف على أقدامنا مرة ثانية، فإنه كان سيرغب في القيام به - إلى الدرجة التي يتبرع فيها مثلا بمخطوطة غير منشــورة لهذا الغرض. لم تكن هناك سوى فرصة ضعيفة جدا لأن ينتج من تلك الفكرة أي شــيء، لكن ســواء كان بالإمكان تحويل قصتــه إلى فيلم أم لا، فقد كان أهم شــيء هو اســتعداده للمضي إلى ما هو أبعد من الحدود العادية للصداقة وإشــراك نفســه في شــؤوننا. بإيثار متجرد، من دون التفكير في أي منفعة أو اســتفادة مما يفعله.

كانت الســاعة بالفعل قد تجاوزت الخامســة عندما وصلت بها إلى محطة شــارع وســت فورث. كان وقت الذروة فــي أوج زحمه، وبينمــا كنــت أهبط مجموعتين مــن درجات الســلالم المؤدية إلى الرصيف إف المؤدي إلى وســط المدينة، ممسكا بالدرابزين بإحكام لكي لا أتعثّر، انتابني شــعور باليأس مــن الحصول على مقعد في عربة المترو. سيكون هناك حشــد وتدافع من الركاب العائدين إلى بروكلين. وكان معنى هذا أنني ســأضطر إلى قراءة قصة جون وأنا واقف، ونظرا إلى أن هذا ســيكون صعبا جــدا إلى حد كبير، فقد

هيأت نفسي للجهاد من أجل مسافة صغيرة إضافية إذا اضطررت إلى ذلك. عندمـا انفتحت أبواب القطار، تجاهلت آداب السـلوك الخـاص بمترو الأنفاق وانزلقت مخترقـا تزاحم الركاب الهابطين، ودخلـت العربة قبل أي شـخص آخر على الرصيـف، لكن هذا لم يفدني بأي شيء. فقد جاء حشد من الناس منهمرا خلفي. فدُفعت إلى منتصف العربة، وبمرور الوقـت أغلقت الأبواب وغادر القطار المحطة، كنت محشورا بين العديدين من الناس إلى درجة أن ذراعيّ كانتـا ملتحمتين في جانبيّ، مـن دون أي مجال للوصول إلى جيبي وإخـراج المظروف. كان كل ما باسـتطاعتي عملـه هو ألاّ اصطدم برفاقـي من الركاب بينما كنا نهتز ونترنح في طريقنا خلال النفق. وفـي لحظة معينـة، نجحت في رفع يدي بعيدا بقـدر كاف لتعليق أصابعي في أحـد البارات العلوية، لكـن كان هذا هو أقصى مدى ممكن للحركة بالنسبة إلي نظرا إلى الظروف. خرج قلة من الركاب فـي المحطـات التي تلت، وفـي كل مرة يخرج فيهـا راكب، يتدافع شـخصان بالمناكب لاحتلال مكان ذلك الشـخص. المئات الذين لم يتمكنوا من الركـوب ظلوا واقفين على الرصيف في انتظار القطار التالي، ومنذ بداية الرحلـة وحتى نهايتها، لم تتح لي فرصة واحدة لإلقاء نظرة على القصة. عندما وصلنا إلى محطة شـارع بيرجين، حاولت إرجاع يدي إلى الخلف لتحسس المظروف، لكنني اصطدمت مـن الخلف، واعتصرت من الجانبين الأيسـر والأيمن، وبينما درت حول محوري المركزي استعدادا لمغادرة العربة، توقف القطار فجأة، انفتحت الأبواب، ودُفعت بقوة إلى الرصيف قبل أن أتمكن من معرفة إن كان المخطوط لا يزال في جيبي. لم يكن المظروف هناك. حملني اندفاع الحشـد المغادر لمسافة ست أو سبع أقدام، وعندما مرّ وقت

كاف كي أستدير وأشق طريقي عائدا إلى العربة، كانت الأبواب قد أغلقت بالفعل وكان المترو يتحرك مرة ثانية. ضربت قبضتي على نافذة عابرة، لكن محصّل التذاكر لم يعرني أدنى انتباه. انسلّ المترو إف إلى خارج المحطة، وبعد ثوان قليلة كان قد اختفى.

كنت مدانا في ارتكابي زلّات تركيز مشابهة منذ عودتي إلى البيت من المستشفى، لكن لم تكن إحداها أكثر سوءا ولا أكثر إيلاما من هذه. بدلا من الاحتفاظ بالمظروف في يدي، دفعت به بحماقة داخل جيب صغير كان صغيرا جدا عليه ليحتويه، والآن أضحت مخطوطة جون ملقاة على أرضية عربة المترو المتجهة إلى كوني إيلاند، وليس هناك شك في أن نصف الأحذية والنعال الخشنة قد داستها ولطختها في ضاحية بروكلين. كان خطأ فادحا لا يغتفر. فقد عهد جون إليّ بالنسخة الوحيدة من قصته غير المنشورة، والمخطوط في حد ذاته، مع أخذ الأهمية الأكاديمية لهذا العمل في الاعتبار، ربما كان يستحق مئات الدولارات، وربما آلاف الدولارات. ما الذي سأقوله له عندما يسألني عن رأيي في المخطوط؟ كان جون قد قال ينبغي عليّ أن أقذف به في القمامة إذا لم يعجبني، لكن هذه كانت فقط طريقة مبالغ فيها للانتقاص من قيمة عمله، مزحة. بالطبع سيرغب في استعادة مخطوطته سواء أعجبتني أم لا. ليست لديّ فكرة عن كيفية القيام بإصلاح الأمر. لو فعل بي أحد ما فعلته الآن مع تروس، أعتقد أن غضبي كان سيكفي لخنقه.

كان انحطاط معنوياتي من جرّاء هذه الخسارة هو ما اتضح أنه كان البداية فقط لليلة طويلة وصعبة. عندما عدت إلى البيت وصعدت مجموعات درجات السلالم الثلاث إلى الشقة، اكتشفت أن الباب كان مفتوحا - ليس ببساطة مفتوحا جزئيا، بل مدفوعا إلى

الخلف حتى نهايته ويقف مستندا إلى الحائط. أول ما فكرت فيه أن جريس قد جاءت إلى البيت مبكرا، وربما كانت تحمل لفافات وحزما وأكياس بقالة ملء ذراعيها، ونسيت إغلاق الباب خلفها. لكن عندما ألقيت بنظرة واحدة سريعة على حجرة المعيشة، فهمت أن ما حدث لا يمت بصلة إلى جريس. فقد اقتحم شخص ما الشقة، وفي الأغلب عن طريق صعوده على سلم الإطفاء ثم فتح نافذة المطبخ بعتلة. كانت الكتب ملقاة ومبعثرة في أنحاء الأرضية، واختفى تلفزيوننا الصغير الأبيض والأسود، وصورة جريس الفوتوغرافية التي كانت موضوعة دائما على رف المدفأة مُزّقت إلى قطع صغيرة وبُعثرت على الأريكة. كانت إشارة قاسية بشكل ملحوظ، هكذا شعرت، تقريبا هجوم شخصي. عندما اقتربت من خزانة الكتب لتفحّص الأضرار، رأيت أن أكثر الكتب قيمة هي فقط التي اختفت: نسخ روايات بتوقيع تروس وعدد آخر من الكتاب الأصدقاء، بالإضافة إلى نصف دستة من الطبعات الأولى التي أُعطيت لي كهدايا على مدار السنين. هاوثورن، ديكنز، هنري جيمس، فيتزجيرالد، والاس ستيفنز، إميرسون. أيا كان من سرقنا فهو ليس بلص عادي. إنه على دراية نوعا ما بالأدب، وقد ركز على الثروات القليلة التي كنا نمتلكها.

بدا أن حجرة مكتبي لم تمس، لكن حجرة النوم جرى تفتيشها بشكل دقيق ومنظم. فقد سُحب كل درج من الخزانة القصيرة، والمرتبة جرى قلبها، والرسم الليثوجرافي لبرام فان فيلد الذي كانت جريس قد اشترته من معرض «ماجيت» في باريس أوائل السبعينيات اختفى من مكانه على الحائط فوق سريرنا. عندما تفحصت جيدا محتويات أدراج الخزانة، اكتشف أيضا أن صندوق

مجوهرات جريس لم يكن موجودا . لم تكن تمتلك الكثير، لكن زوج الأقراط المصنوع من حجر القمر الذي ورثته عن جدتها كان في ذلك الصندوق، بالإضافة إلى أسورة فاتنة من أيام طفولتها والعقد الفضي الذي أعطيته لها في عيد ميلادها الفائت. الآن غريب من قد سرق هذه الأشياء، وشعرت بهذا كاغتصاب قاس لي ولا معنى له، سلب وحشي لعالمنا الصغير.

لم نعمل ضد السرقة من قبل ولا تأمين على البيت، وكنت كارها الاتصال بالشرطة للإبلاغ عن الاقتحام. اللصوص لم يسبق الإيقاع بهم أبدا، ولم أجد أيّ سبب لمواصلة أو متابعة ما أصابني بالإبلاغ عنه، فهو حالة مستحيلة الحل، لكن قبل اتخاذي لهذا القرار كان يجب عليّ أن أكتشف إن كان أحد آخر في المبنى قد تمت سرقته أم لا . كانت هناك ثلاث شقق أخرى في هذا المبنى ذي الواجهة الحجرية السوداء - واحدة فوقنا واثنتان أسفل منا - بدأت بالهبوط إلى الأرضي والتحدث مع السيدة كاراميلو، التي تتقاسم واجبات المراقبة مع زوجها، وهو حلاق متقاعد كان يقضي معظم وقته في مشاهدة التلفزيون والمراهنة على مباريات كرة القدم. لم تُمس شقتهما، لكن السيدة كاراميلو تضايقت لسماعها أخباري بصورة كانت كافية لاستدعائها السيد كاراميلو، الذي جاء إلى الباب يجر ساقيه منتعلا خفيه وبالكاد أطلق تهيدة عندما جرى إخباره بما حدث. «ربما واحد من هؤلاء المدمنين الملاعين»، قال. «يجب أن تضع قضبانا على نوافذك، يا سد. ليست هناك طريقة أخرى لمنع الرعاع من التسلل إلى الداخل».

المستأجران الآخران استُثنيا أيضا من السرقة. بدا أن الجميع كان لديهم قضبان على نوافذهم الخلفية باستثنائنا، ولذلك كنا

هدفا منطقيا - فنحن الغبيان الواثقان اللذان لم يزعجا أنفسهما باتخاذ الاحتياطات المناسبة. شعروا جميعا بالأسف علينا، لكن الرسالة الضمنية كانت تعني أننا كنا نستحق ما حدث لنا.

عدت إلى الشقة، وإن أكثر فزعا الآن، بهدف أن أتفحص الفوضى في حالة مزاجية أكثر هدوءا. بشكل متتابع وفجأة، تقافز أمام عينيّ كل التفاصيل التي أغفلتها في وقت سابق، وكان أن ضاعفت من الآثار المؤلمة لعملية السطو. المصباح الرأسي الموجود على يسار الأريكة قُلِبَ على الأرض وتحطم، المزهرية ملقاة على السجادة وقد تحطمت، وحتى التوستر غير المجدي الذي يبلغ ثمنه تسعة عشر دولارا قد اختفى من مكانه على كاونتر المطبخ. اتصلت بجريس في مكتبها، أردت إعدادها لتلقي الصدمة، لكن لم يجب أحد، وبدا لي هذا دليلا على أنها قد انصرفت بالفعل وكانت في طريقها إلى البيت. ولأنني لم أكن أعرف ما الذي بإمكاني أن أفعله غير ذلك، فقد بدأت تسوية الشقة. لابد أن الساعة وقتها كانت حوالي السادسة والنصف، وعلى الرغم من أنني كنت أتوقع أن تدخل جريس من الباب في أي لحظة، فقد عملت بشكل منتظم لأكثر من ساعة، قمت بكنس الحطام، وإعادة الكتب إلى الأرفف، وقلب المرتبة ووضعها على السرير مرة ثانية، وإعادة الأدراج مرة ثانية إلى أماكنها في الخزانة. في البداية، كنت سعيدا بإحرازي للكثير من التقدم أثناء عدم تواجد جريس التي لم تأت بعد. كلما كان بإمكاني بفاعلية أكثر أن أنظم المكان، قل الارتباك الذي كانت ستكون عليه الشقة عندما تدخلها. لكن في ذلك الوقت كنت قد انتهيت مما شرعت في القيام به، ومع ذلك لم تأت جريس إلى البيت. كانت الساعة وقتها السابعة وخمس وأربعين دقيقة، مرت

مـــدة طويلة تفوق الوقت الذي كان مـــن الممكن أن يتعطل فيه المترو ويبرر فشـــلها في الوصول إلى بروكلين. من الصحيح أنها كانت في بعض الأحيان تعمل لوقت متأخر، لكنها كانت تتصل دائما لتخبرني بموعد مغادرتها المكتب، ولم تكن هناك رســـالة منها على جهاز الرد التلقائي. اتصلت برقمها في هويست وماكديرموت مرة ثانية، فقط لأتأكـــد، لكن لم يجب أحد للمرة الثانية. لم تكن في عملها، لم تأت إلـــى البيت، وكل ما يتعلق بعملية الســـطو المفاجئـــة بدا بلا أهمية، بدا بمنزلة أزمة صغيرة مـــن الماضي البعيد. كانت جريس مفقودة، وبمرور الوقت ودوران الساعة لتصبح الثامنة وما بعد الثامنة، وكنت بالفعل قد دخلت في حالة من الذعر الشامل والمحموم.

أجريت عددا من الاتصالات - بأصدقاء، وزملاء، وحتى بقريبتها «للـــي» في كونيكتيكت - لكن الشـــخص الأخير الذي اتصلت به هو فقط من كانت لديه معلومات ليعطيني إياها. كان جريج فيتزجيرالد هو مدير القســـم الفني في هويست وماك ديرموت، ووفقا لما قاله. اتصلت جريس بالمكتب بالضبط بعد التاســـعة صباحا لتخبره بأنها لـــن تتمكن من الحضور إلـــى العمل اليوم. كانت في حزن شـــديد، لكن شـــيئا ما عاجلا قد حدث لها تطلـــب اهتمامها الفوري به. لم تقل ما هو هذا الشـــيء، لكن عندما ســـألها جريج إن كانت على ما يـــرام، ترددت جريس فيما يبـــدو قبل أن ترد. «أظـــن هذا»، قالت أخيرا، وجريج، الذي كان على معرفة بها لســـنوات وكان مغرما جدا بهـــا (وهو الرجل المرح الذي أحـــب نصف حب أجمل زميلة له)، قد وجد ردها محيرا. «ليست هي»، كانت العبارة التي استخدمها، على ما أعتقد، لكن عندما ســـمع نبرة الفـــزع المتزايد في صوتي، حاول طمأنتـــي بأن أضاف أن جريـــس قد أنهت المحادثـــة بإخباره بأنها

ستعود إلى المكتب غدا صباحا. «لا تقلق، يا سدني»، واصل جريج. «عندما تقول جريس أنها ستفعل شيئا ما، تفعله فعلا. عملت معها لمدة خمس سنوات، ولم تخذلني مرة».

ظللت جالسا طوال الليل أنتظرها، كدت أجن من الفزع والحيرة. قبل أن أتحدث إلى فتزجيرالد، كنت قد أقنعت نفسي أن جريس قد أصابها ضرر بطريقة ما عنيفة - سلب، تحرش، صدمتها شاحنة أو سيارة أجرة، راحت ضحية لأحد الأمور الوحشية الكثيرة التي من الممكن أن تصيب امرأة بمفردها في شوارع نيويورك. بدا كل هذا مستبعدا الآن، لكن إذا لم تمت أو تتعرض لخطر جسدي، فما الذي حدث لها، ولماذا لم تتصل بي لتخبرني بمكانها؟ ظللت أراجع وأفحص المحادثة التي دارت بيننا ذلك الصباح في طريقنا إلى المترو، محاولا فهم شيء من غرابة تصريحاتها الانفعالية عن الثقة، متذكرا القبلات التي أعطتها لي وكيف، من دون تمهيد، تحررت من ذراعيّ وراحت تعدو على امتداد الرصيف، من دون أن تكلف نفسها عناء الالتفات والتلويح لي مودعة قبل أن تختفي في السلالم. كان هذا سلوك شخص قد توصل إلى قرار عفوي متهور ومفاجئ، شخص قد عزم على شيء ما لكنه لا يزال ممتلئا بالارتياب والشكوك، كانت مهتزة جدا في قرارها إلى درجة أنها لم تجرؤ على لمحة واحدة إلى الوراء، خشية أن تدمر نظرة أخرى لي إصرارها على أي مما كانت قد خططت للقيام به. شعرت أنني أفهم هذا إلى حد كبير، لكن فيما وراء تلك الجزئية لا أعرف شيئا. أصبحت جريس فراغا بالنسبة إلي، وكل فكرة عنها كانت تتحول بسرعة في تلك الليلة إلى قصة، دراما صغيرة رهيبة قائمة على أعمق قلق لي على مستقبلنا - الذي بدا أنه قد تحول بسرعة إلى

لا مستقبل على الإطلاق.

جاءت جريس إلى البيت بعد السابعة بدقائق قليلة، وبعد ساعتين تقريبا من استسلامي لحقيقة أنني لن أراها مرة ثانية. كانت ترتدي ملابس مختلفة عن تلك التي كانت ترتديها في الصباح السابق، وبدت منتعشة وجميلة، بأحمر شفاه فاتح، وعينين مزينتين على نحو ممتاز، وأثر من مسحوق أحمر على خديها. كنت جالسا على الأريكة في حجرة المعيشة، وعندما رأيتها تدخل الشقة فوجئت للغاية إلى درجة أنني لم أقو على النطق بشيء، حرفيا كنت غير قادر على إخراج أي كلمة من فمي. ابتسمت لي جريس، بهدوء، وبتألق، مستغرقة تماما في ذاتها - ثم مشت إلى حيث كنت أجلس وقبلتني في شفتي.

«أعرف أنني أوصلتك إلى الجحيم»، قالت، «لكنني كنت مضطرة إلى هذا. لن يحدث ثانية في أي وقت، يا سدني. أعدك».

جلست بجانبي وقبلتني ثانية، لكنني لم أقو على إجبار نفسي على وضع ذراعي حولها. «كان يجب عليك أن تخبريني بمكانك»، قلت، وأنا مفزوع من الغضب والقسوة في صوتي. «كفاكِ صمتا، يا جريس، يجب عليك أن تتكلمي».

«لا أستطيع»، قالت.

«بلى تستطيعين. بل يجب عليك».

«صباح أمس، قلت إنك تثق بي. استمر في ثقتك بي، يا سد. هذا هو كل ما أطلبه منك».

«عندما يقول الناس هذا، فهذا يعني أنهم يخفون شيئا. دائما. إنه كالقانون الرياضي، يا جريس. ما الأمر؟ ما الذي تخفينه عني؟».

«لا شيء. احتجت فقط إلى أن أكون بمفردي أمس، هذا كل

شيء. احتجت إلى وقت للتفكير».

«جيد. امضي وفكري. لكن لا تعذبيني بعدم إخبارك لي بمكانك».

«أردت أن أفعل، لكنني لم أستطع. لا أعرف لماذا. كان الأمر كما لو كان يجب عليّ أن أتظاهر بعدم معرفتك بعد ذلك. لفترة قصيرة فقط. كان شيئا بغيضا، لكنه ساعدني، ساعدني فعلا».

«أين قضيت الليلة؟».

«لم يكن الأمر هكذا، صدقني. كنت بمفردي. أخذت غرفة في فندق جراميرسي بارك».

«أيّ طابق؟ وما هو رقم الغرفة؟».

«أرجوك، يا سد، لا تفعل ذلك. ليس هذا من الصواب في شيء».

«بإمكاني الاتصال بهم وتبين الأمر، أليس كذلك؟».

«بإمكانك بالطبع. لكن هذا سيعني أنك لا تصدقني. وعندئذ سنكون في ورطة. لكننا لسنا كذلك. هذا هو كل ما في الأمر. إننا جيدان وبخير معا، وحقيقة أنني هنا الآن تثبت هذا».

«افترضت أنك كنت تفكرين في الطفل ...».

«من بين أمور أخرى، نعم».

«أي أفكار جديدة؟».

«مازلت على السور. مازلت غير متأكدة إلى أي الطريقين أقفز».

«قضيت عدة ساعات مع جون أمس، ويعتقد أنك يجب أن تقومي بإجهاض. كان مصرا جدا على هذا الأمر».

بدت جريس مندهشة ومنزعجة في الوقت نفسه. «جون؟ لكنه

لا يعرف أنني حامل».

«أنا أخبرته».

«آه، يا سدني. لم يكن عليك فعل هذا».

«لِمَ لا؟ إنه صديقنا، أليس كذلك؟ لماذا يجب ألا يعرف؟».

ترددت لعدة ثوان قبل أن تجيب عن سؤالي. «لأنه سر خاص بنا»، قال في النهاية: «ولم نقرر بعد ما الذي سنفعله فيما يتعلق بخصوصه. إنني حتى لم أخبر والديّ. لو تحدث جون إلى أبي، فمن الممكن أن تتعقد الأمور إلى حد بغيض».

«لن يفعل. إن قلقه الشديد عليك سيمنعه من هذا».

«قلقه؟».

«نعم. قلقه. وأنا أيضا قلق مثله. إنك لم تعودي نفسك، يا جريس. أي شخص يحبك ملزم بأن يقلق عليك».

كانت جريس تصبح أقل غموضا بعض الشيء كلما استمرت المحادثة، فقصدت الاستمرار في وخزها أو حثها حتى اتضحت القصة كاملة، وإلى أن فهمت ما الذي دفعها إلى الهرب بطريقة غامضة لمدة أربع وعشرين ساعة متعاقبة. شعرت بأن الأمر كان شديد الخطورة، وأنها إن لم تعترف وتخبرني بالحقيقية، فكيف سأقدر على الثقة بها بعد ذلك؟ كانت الثقة هي الشيء الوحيد الذي طلبته مني، حتى الآن ومنذ انهيارها في السيارة الأجرة ليلة السبت، أصبح من المستحيل ألاّ أشعر بأن ثمة شيئا كان على غير ما يرام، وأن جريس كانت تنهار ببطء تحت ضغط أحمال رفضت أن تشاركني فيها. لفترة قصيرة، بدا أن موضوع الحمل هو المبرر لهذا، لكنني لم أعد متأكدا من ذلك الآن. كان شيئا آخر، شيئا ما بالإضافة إلى موضوع الطفل، وقبل أن أبدأ في تعذيب نفسي بأفكار

عن رجال آخرين وعلاقات سرية وخيانات بشعة، كنت في حاجة إلى أن تخبرني هي ما الذي يحدث. للأسف، قطعت المحادثة فجأة عند تلك النقطة، ولم أعد في وضع يسمح لي بمتابعة اتجاه تفكيري. حدث هذا مباشرة بعد أن قلت لجريس كم كنت قلقا عليها. أمسكت بيدها، وبينما كنت أجذبها نحوي لأقبلها على خدّها، لاحظت هي أخيرا أن المصباح الطويل لم يكن موجودا حيث يفترض أن يكون، وأن المنطقة الواقعة على يسار الأريكة كانت خالية. اضطررت إلى أن أخبرها عن السطو، وهكذا بالضبط تغيّرت الحال، وبدلا من أن أتحدث إليها عن شيء واحد، لم يكن لديّ أي خيار سوى أن أحدثها عن الآخر.

في البداية. بدا أن جريس تتلقى الأخبار بهدوء. أريتها الفجوة التي في رف الكتب، حيث كانت كتب الطبعات الأولى موجودة، وأشرت إلى المنضدة الصغيرة التي كان يستقر عليها التلفزيون المحمول، ثم مضيت بها إلى المطبخ وأعلمتها أننا سنضطر إلى شراء توستر جديد. فتحت جريس مجموعة من الأدراج أسفل الكاونتر (وهو ما أهملت عمله) واكتشفت أن أفضل مجموعة لدينا من الفضيات، التي أعطانا إياها والداها هدية في الذكرى السنوية الأولى لزواجنا، كانت مفقودة أيضا. وقتذاك تملك منها الغضب مبلغا. ركلت الدرج الأسفل بقدمها اليمنى وبدأت تكيل اللعنات. نادرا ما تستخدم جريس كلمات بهذه البذاءة، لكن لمدة دقيقة أو دقيقتين ذلك الصباح كانت خارجة على طورها، وأطلقت العنان لوابل من القذف فاق أي شيء سمعته من شفتيها من قبل. ثم دخلنا إلى حجرة النوم، وانسكب غضبها دموعا. بدأت شفتها السفلية في الارتعاش عندما أخبرتها عن صندوق المجوهرات، لكن عندما

رأت أن العمل الليثوجرافي قد اختفى أيضا، جلســت على السرير واندفعت في البكاء. بذلت أقصى ما في جهدي لمواساتها، ووعدتها بالبحــث عن لوحة أخرى لفان فيلد في أســرع وقت ممكن، لكنني أعــرف أنه من غير الممكن أن يحل شــيء محل تلــك الصورة التي اشترتها عندما كانت في الثانية والعشرين من عمرها في أول رحلة لها إلى باريس: طوفان غامر كاســح لتشكيل متعدد من ألوان زرقاء مشــرقة يتوســطها فراغ دائري في المركز وخط بلــون أحمر غير مكتمــل. كنت أعيش معها حتى ذلك الوقت منذ عدة ســنوات، ولم أشــبع أبدا من النظر إليها. كانت واحدة من تلك الأعمال التي تظل تعطيك ما يبدو أنه لن ينفد أبدا[٢٥].

احتاج الأمر منها نحو خمس عشرة أو عشرين دقيقة لاستجماع قواها، ثم دخلت إلى الحمّام لإزالة خطوط «المســكرة»، ولاســتعادة تهيئة وجهها. انتظرتها في حجرة النوم، معتقدا أننا سنكون قادرين على اســتكمال محادثتنا هناك، لكن عندمــا عادت كان ذلك فقط لتعلــن أنها قد تأخــرت، وأنها يجب أن تذهب إلــى العمل. حاولت ثنيها عن هذا، لكنها لم تلن. فقد وعدت جريس أنها ســتكون هناك صباح اليوم، قالت، وبعد أن كان لطيفا معها إلى حد كاف لإعطائها يــوم أمس إجازة، لم ترغب في اســتغلال صداقتــه لأكثر من هذا. الوعد وعد، قالت، فأجبت أنا أننا لدينا أشــياء لنناقشها معا. ربما لدينــا، أجابت، لكن بإمكان هذه الأشــياء أن تنتظر حتى ترجع إلى البيت من عملها. ولإثبات نواياها الحسنة، جلست على السرير قبل أن تتصــرف، وألقت بذراعيها حولي، وعانقتني بإحكام، بينما بدت لــي أنها فترة طويلة. «لا تقلق علــيّ»، قالت. «أنا بخير فعلا. أمس جعلني جيدة جدا».

تناولت أقراص الدواء الصباحية، وعدت إلى حجرة النوم، ونمت حتـى منتصف ما بعد الظهر. لم تكن لـديّ أي خطط لليوم، وكان العمـل الوحيد على جدول أعمالي هو قضاء اليوم بأكبر قدر ممكن من الهدوء حتى تعود جريس إلى البيت. وعدتني بمواصلة التحدث معي هذا المسـاء، وإذا كان الوعد وعدا، فقد قصدت أن ألزمها به، وقصدت أن أبذل كل ما في وسـعي لانتـزاع الحقيقة منها. لم أكن متفائلا على الإطلاق، لكن سـواء فشلت في هذا أم لا، فلن أمضي إلى أي نتيجة إلاّ إذا انكببت على الأمر وبذلت مجهودا.

كانت السماء مشرقة وصافية بعد ظهر ذلك اليوم، لكن الحرارة انخفضت إلـى الأربعينيات، ولأول مرة منذ هـذا اليوم الذي نحن بصدد التحدث عنه، تمكنت من الشعور بلمسة شتاء في الجو، دلالة تنذر بوقوع أشـياء. مرة أخرى، اضطرب نمط نومي العادي، وكنت في مظهر أسـوأ من المعتاد - ليس هناك ثبات في حركاتي، وهناك عدم انتظام في التنفس، أترنح بشكل خطير في كل خطوة أخطوها. كما لو كنت قد انتكست إلى مرحلة مبكرة من بدايات شفائي وعدت إلى فتـرة التحرك الدائري الدوّامي للألوان والإدراكات المتكسـرة وغير المتزنة. شـعرت بهشاشـتي المفرطة للغايـة، كما لو أن الهواء الحقيقـي كان مصـدر تهديد، كما لو أن بإمـكان هبة ريح مفاجأة أن تعصف بي تماما وتترك جسـدي متناثرا على هيئة شظايا فوق الأرضية.

اشتريت توستر جديدا من محل أدوات منزلية في كورت ستريت، وقد استنفدت هذه الصفقة البسيطة كل طاقاتي الجسمانية تقريبا. في الوقت الذي اخترت فيه واحدا بإمكاننا تحمل تكاليفه وأخرجت المال مـن محفظتي، وناولتـه للبائعة خلف الكاونتـر، كنت أرتعش

وشـــعرت بما يشبه الدموع. ســـألتني البائعة إن كان هناك شيء ما ليس على ما يرام. قلـــت لا، لكن يبدو أن إجابتي كانت غير مقنعة، لأن الشـــيء التالي الذي فهمته أنها سألتني إن كنت أريد أن أجلس وأشـــرب كوبا من الماء. كانت امرأة بدينة في أوائل الستينيات بأثر غير واضح لشارب فوق شفتها العليا، وكان المحل الذي تديره فتحة معتمة ومغبرة في الحائط، مشروع تجارة صغيرة أسرية متهالك مع تقريبا نصف الأرفف فارغة من البضاعة. كان عرضها كريما مثلها، لـــم أرد البقاء هناك دقيقة أخرى. شـــكرتها وتحركـــت، وأنا أترنح باتجـــاه الخروج، ثم اســـتندت إلى الباب لدفعه فاتحـــا إياه بكتفي، وقفت على الرصيف بعد ذلك للحظات قليلة، أتنفس بعمق نشـــقات مـــن الهواء البـــارد بينما انتظر لفترة كي أعبر. أثناء اســـتعادتي لما مضى، أدركت أنني كنت على وشك فقدان الوعي.

اشـــتريت شـــريحة بيتزا وكولا كبيرة من محـــل «فيني» على بعد بنايتـــين، وفـــي الوقت الذي نهضت وغادرت فيه كنت أشـــعر بأنني أفضـــل قليلا. كانت نحو الثالثة والنصـــف وقتها، ولن تكون جريس إلى البيت حتى السادسة على الأقل. لم أكن قادرا على التجوال في إجهاد في أنحاء المنطقة وشـــراء أصناف البقالة، وكنت أعرف أنني لست في كامل لياقتي لإعداد العشاء. كان الأكل في الخارج نوعا من التســـاهل بالنسبة إلينا وقتها، لكنني اعتقدت أن بإمكاننا أن نطلب بعض الطعام الســـريع من «سيام جاردن»، وهو مطعم تايلاندي فتح أبوابـــه للتو بالقرب من «أتلانتيك أفنيو». أعرف أن جريس ســـوف تتفهـــم الأمر. أيا كانت الصعوبات التي ربما كنا نواجهها، فقد كانت قلقة على صحتي بشـــكل كاف، حتى أنها لن ترى بأســـا من جانبي في ذلك.

بمجرد أن انتهيت بســـرعة من آخر قطعة بيتزا، قررت أن أمشي إلى فرع المكتبة العامة في «كلينتون ســـتريت»، لأرى إن كانت لديهم أي كتب بقلم الروائية ســـيلفيا مونرو التي كان تروس قد ذكرها قبل يومين. كان هناك عنوانان مدرجان في كتالوج البطاقات. «الليل في مدريد» و«احتفال الخريف»، لكن لم تحدث استعارة لأيّ من الكتابين خلال ما يزيد على الســـنوات العشـــر الماضيـــة. تفحصت الكتابين ســـريعا، وأنا جالس إلى واحدة من المناضد الخشـــبية الطويلة في حجرة المطالعة، واكتشـــفت بسرعة أن سيلفيا مونرو لا تشبه عموما ســـيلفيا ماكسويل في شيء. كتابا مونرو هما قصتان بوليسيتان من قصص الغموض التقليدية، مكتوبتان بأسلوب أجاثا كريستي، وبينما كنت أتصفح عبر نثر الروايتين المختلق ببراعة ومكر، شـــعرت بشكل متزايد بالإحباط والغضب من نفســـي لافتراضي أنه من الممكن أن يكون هناك تشـــابه بين السيلفياتين. على الأقل جدا، اعتقدت أنني ربما أكون قد قرأت كتابا لســـيلفيا مونرو وأنا صبي، ونسيت كل ما يتعلـــق بها منذ ذلك الحين، وأنني فقـــط اجتررت ما كان في ذاكرة اللاوعي عندي عنها في شخصية سيلفيا ماكسويل، المؤلفة المزعومة لرواية ليلة التنبؤ المزعومة. لكن بدا لي أنني قد التقطت ماكســـويل من العدم، وأن ليلة التنبؤ كانت قصة أصلية، وليست لها علاقة بأي رواية أخرى غيرها. ربما كان ينبغي عليّ أن أشعر بالارتياح، لكنني لم أستطع.

عندما عدت إلى الشقة في الخامسة والنصف، كانت هناك رسالة من جريس على جهاز الرد التلقائي. ببلادة وهدوء، وفي سلسلة من الجمل البســـيطة المباشرة، فككت هذه الرسالة بنيان التعاسة الذي كان قد ارتفع، وعلا من حولنا خلال الأيام الماضية. كانت تتصل من

مكتبها، قالت، وكانت مضطرة للتحدث بصوت منخفض، «أتمنى لو كان بإمكانك أن تسمعني، يا سد». هكذا بدأت، «هناك أربعة أشياء أريـــدك أن تعرفها. أولا، أنني لم أتوقف عـــن التفكير فيك منذ أن غـــادرت البيت هذا الصباح. ثانيا، لقد قـــررت أن يكون لديّ طفل، ولن نســـتخدم أبدا كلمة إجهاض مرة ثانية. ثالثا، لا تزعج نفســـك بإعداد العشـــاء. ســـأترك المكتب في تمام الخامســـة، وسأنزل من هناك إلى محل «بالدوتشـــي» لشراء بعض الأشياء الجاهزة الجيدة التي يمكننا تســـخينها في الفرن. لو لـــم يتعطل المترو، المفروض أن أكون في البيت في السادســـة والنصف. رابعا، تأكد من أن الســـيد جونســـون جاهز للعمل. فسأهاجمك في اللحظة التي سأدخل فيها من الباب، حبيبي، كن جاهزا وعلى أتم الاستعداد. الآنسة فرجينيا متحرقة لأن تصبح مع زوجها».

كان «الآنســـة فرجينيا» واحدا من أســـماء التدليل التي أطلقتها عليها، لكنني لم أســـتخدمه منذ السنة الثانية أو الأولى من زواجنا، ولا بالطبـــع منذ أن عدت من المستشـــفى. كانت تلـــك العبارة تثير جريس في أوقات مناسبة بعينها قبل ذلك، وقد تأثرت الآن لمعرفتي أنها تذكرته.

الآن، على الفور بعد إعلان أنها لن تتخلص من الحمل، قد أحيت الأسطورة الشـــخصية عن الآنسة فرجينيا، وبمقابلة ذلك التصريح بالآخر، كانـــت تخبرني أنها أصبحت لي مرة ثانية، ملكي كما كانت في الســـابق، بل وفوق ذلك ملكي بشكل مختلف أيضا، وهي عندما تقـــول بدقة (وليس بإمكان جريـــس أن تكون غير ذلك) فإنها بذلك تعلن اســـتعدادها للدخول في المرحلة المقبلة من زواجنا، وأن عهدا جديدا من حياتنا معا كان على وشك أن يبدأ.

ألغيت المكاشفة التي كنت أخطط لها في ذلك المساء ولم أسألها سؤالا واحدا عن غيابها ليلة الأربعاء. قمنا بكل الأشياء التي أخبرتني بها علـى جهاز الرد التلقائي، سـخّنا الطعام في الفرن وجلسـنا نتناول العشاء إلى وقت متأخر. أطلعتها على جهاز التوستر الجديد العريض الفتحات والمناسـب أيضا للبقسـماط المسـتدير، والذي اشـتريته بعد ظهر ذلـك اليوم، وعلى الرغم مـن أن ذلك أدى إلى بعض الحديث الحزين عن السـرقة، إلا أن ذلك الحديث قد انقطع علـى الفور عندمـا بدأ أنفي ينزف فجأة، خرجـت الدماء متدفقة بقوة على فطيرة المشمش التي كانت جريس قد وضعتها للتو أمامي للتحلية. وقفت خلفي على الحوض بينما أملت أنا رأسي إلى الوراء وانتظرت توقف التدفق، كانـت ذراعاها ملتفتين حولي، وهي تقبل كتفي ورقبتي، وطوال تلك الفترة كانت تقترح علينا أسماء مضحكة لإطلاقها على الطفل. لو كانت بنتا، قررنا، أن نسميها جولدي أور. ولو كان ولدا، فسنسميه باسم أحد كتب كيركيجارد، إيرا أور[٢٦]. كنا سـعيدين بشكل أخرق تلك الليلة، ولا أستطيع تذكر وقت كانت فيه جريس أكثر طيشـا أو فيضانا في عواطفها نحوي مثل هذا اليوم. عندما توقف الدم عن الانسـياب من أنفي أخيرا، جعلتني أستدير وغسـلت لي وجهي بقماشـة مبللة، كانت تنظر في عينيّ بثبات في حـين راحت تمس برفق فمي وذقني بالقماشـة، حتـى اختفت كل آثار للنزيف. «سـننظف المطبخ في الصباح»، قالت. ثم، من دون أن تضيف كلمة أخرى، أخذتني من يدي وقادتني إلى حجرة النوم.

نمـت حتى وقت متأخر من صبـاح اليوم التالي، وعندما نهضت أخيرا من السرير كانت الساعة العاشرة والنصف. كانت جريس قد ذهبـت منذ فترة طويلة. دخلت المطبخ لتناول أقراصي وتهيئة إبريق

القهوة، ثم قمت ببطء بمعالجة الفوضى التي انصرفنا عنها ليلة أمس. بعد عشر دقائق من وضعي لآخر طبق في دولاب المطبخ، اتصلت ماري سكلار حاملة أنباء سيئة. قرأ معاونو بوبي هانتر معالجتي، وقرروا صرف النظر عنها.

«أنا آسفة»، قالت ماري، «لكنني لن أتظاهر بأنني صُدمتُ».

«لا بأس»، قلت، وأنا أشعر بكدر أقل مما اعتقدت أنني سأشعر به. «فالفكرة كانت سيئة جدا. أنا سعيد لأنهم لا يريدونها».

«يقولون إن حبكتك كانت ذهنية جدا».

«أنا مندهش لأنهم يعرفون ما تعنيه الكلمة».

«وأنا سعيدة لأنك لست متضايقا. المسألة لا تستحق الضيق».

«كنت أريد المال، هذا كل شيء. مسألة جشع لا أكثر. حتى أنني لم أكن شديد الحرفية في ما يتعلق بهذا، أليس كذلك؟ فليس من المفترض أن تكتب أي شيء من دون عقد. إنها القاعدة الأولى للأعمال».

«بالفعل، وقد أصابهم الذهول إلى حد ما. السرعة الفائقة في الإنجاز. إنهم غير معتادين هذا النهج من التعاون الحاسم في العمل. فهم يميلون إلى القيام بكثير من المناقشات مع المحامين والوكلاء أولا. لأن هذا يجعلهم يشعرون كما لو أنهم يقومون بعمل مهم».

«لا أفهم حتى الآن لماذا فكروا فيّ أنا».

«شخص ما هناك يحب عملك. ربما بوبي هانتر، ربما الفتى الذي يعمل في حجرة البريد في السكرتارية. من يعرف؟ على أي حال، فسوف يرسلون لك شيكا. تعبيرا عن المودة وحسن النية. فأنت كتب صفحات المعالجة من دون تعاقد، لكنهم يريدون تعويضك عن وقتك».

«شيك؟».

«مجرد شيء رمزي».

«وكم يبلغ هذا الرمزي؟».

«ألف دولار».

«حسنا، على الأقل هذا يعني شيئا. إنها أول نقود أكسبها منذ فترة طويلة».

«لقد نسيت نقود البرتغال».

«آه، البرتغال. كيف يمكنني أن أنسى البرتغال؟».

«هل هناك أخبار عن الرواية التي من المحتمل أن تنتهي من كتابتها أو لا تنتهي؟».

«ليس كثيرا. ربما يكون هناك حل وحيد لإنقاذها، لكني لست متأكدا. رواية داخل رواية. إنني أواصل التفكير في هذا، ربما تكون هذه علامة جيدة».

«أعطني خمسين صفحة، وسأحضر لك عقدا، يا سد».

«لن أتلقى أموالا أبدا عن كتاب لم أنته منه. ماذا لو لم أتمكن من كتابة الصفحة الرقم واحد وخمسين؟».

«إنها فترات يأس، يا صديقي. إذا احتجت إلى نقود، فسأحاول أن أحصل لك على نقود. هذا هو عملي».

«دعيني أفكر في هذا».

«أنت تفكر، وأنا سأنتظر. وعندما تكون جاهزا اتصل، فسوف تجدني».

بعدما أنهينا المكالمة، دخلت إلى حجرة النوم لأحضر معطفي من الخزانة. الآن بعد أن انتهي رسميا العمل الخاص بآلة الزمن، كان عليّ أن أبدأ بالانغماس في خطة جديدة، واعتقدت أن

المشـــي في الهواء البارد قد يفيدني. لكـــن، بالضبط وبينما كنت أهـــم بمغادرة الشـــقة، رن جرس التليفون مـــرة ثانية. كنت تحت إغراء عدم الرد، لكنني غيرت رأيي والتقطت السماعة في الرنة الرابعـــة، وأنا آمل أن تكون جْريـــس. اتضح أنه تروس، ربما آخر شخص على وجه الأرض كنت أرغب في التحدث معه آنذاك. حتى الآن لم أخبره عن ضياع القصة، وبينما أعددت نفســـي للتصريح بعفوية بالاعتراف الذي كنت أؤجله خلال اليومين الماضيين، كنت مســـتغرقا بشـــدة في أفكاري لدرجة أنني كنت أجد صعوبة في متابعته. عثرت إليانور وزوجها على جاكوب، قال. وقاما وأودعاه بالفعـــل في مركز طبي للعلاج من إدمان المخدرات - مكان يدعى سميثرز في «أبر أيست سايد».

«هل تســـمعني؟» ســـأل جون. «أخضعـــوه لبرنامج علاجي لمدة ثمانية وعشرين يوما. ربما لن تكون هذه الفترة كافية، لكنها بداية على الأقل».

«آه»، قلت، بصوت غير واضح. «متى عثرا عليه؟».

«ليل الأربعاء، ليس بعد وقت طويل من مغادرتك. كان عليهما أن يقوما بكثير من الخدع لإدخاله إلى هناك. ولحسن الحظ أن «دون» يعرف شخصا يعرف بدوره شخصا آخر، وقد تمكنوا من التقليل من الإجراءات الرسمية الرتيبة».

«دون؟».

«زوج إليانور».

«بالطبع. زوج إليانور».

«هل أنت على ما يرام، يا سد؟ تبدو على غير ما يرام تماما».

«كلا، كلا، أنا بخير. دون. زوج إليانور الجديد».

«أريد منك معروفا، وهذا هو سبب اتصالي بك. آمل ألاّ تمانع».
«لن أمانع. مهما كان ما تريده. فقط أطلب وسألبي».
«غدا يوافق يوم السبت، ولديهم وقت للزيارة في العيادة من الظهر وحتى الساعة الخامسة. كنت أتساءل إن كان بإمكانك الذهاب إلى هناك لأجلي والاطمئنان عليه. ليس عليك أن تبقى هناك طويلا. ولن تتمكن إليانور ودون من القيام بهذا. فقد عادا إلى لونج إيلاند، وقد قاما بالفعل بالكثير كما قلت لك. أريدك منك فقط أن تعرف إن كان على ما يرام. إنهم لا يقفلون الأبواب هناك. إنه برنامج علاجي تطوعي، وأنا أريد التأكد من أنه لم يغيّر رأيه. على الرغم من كل شيء فقد بذلنا ما في وسعنا، وسيكون الأمر مثيرا ومؤسفا ومثيرا للشفقة لو قرر الهرب».
«ألا تعتقد أنه يجب عليك أن تذهب بنفسك؟ في النهاية أنت والده. وأنا بالكاد أعرف الولد».
«إنه لا يريد التحدث معي بعد الآن. وعندما ينسى أنه في خصومة معي، لا يذيقني سوى الأكاذيب. لو كنت أظن أن ذهابي إلى هناك من الممكن أن يؤدي إلى أي خير، لعرجت إلى هناك على عكازيّ لأراه. لكن لن يكون هناك خير».
«وما الذي يجعلك تعتقد أنه سيتحدث إليّ؟».
«إنه يحبك. ولا تسألني لماذا، لكنه يعتقد أنك شخص ممتاز. وهذا على حد تعبيره بالضبط. «سد، شخص ممتاز». ربما لأنك تبدو صغيرا جدا في السن، لا أعرف. ربما لأنك تحدثت معه ذات مرة عن فرقة روك كان مهتما بها».
«بيين سبازمز»، مجموعة غلمان من شيكاغو. ذات مرة عزف صديق قديم لي أغنيتين من أغنياتهم. ليست جيدة جدا. أظن أنهم

قد اختفوا في الوقت الراهن».

«إنك على الأقل تعرف من كانوا».

«كانت هذه هي أطول محادثة لي مع جاكوب في أي وقت. استمرت نحو أربع دقائق».

«حسنا، أربع دقائق ليست سيئة. لو أمكنك أن تحصل منه على أربع دقائق أخرى غدا، فسيكون هذا إنجازا».

«ألا تعتقد أنه سيكون من الأفضل أن تصطحب جريس معي؟ إنها تعرفه فترة أطول قليلا من فترة معرفتي به».

«مستحيل».

«ما الذي تعنيه؟».

«جاكوب يحتقرها. إنه لا يقوى على البقاء في الحجرة نفسها الموجودة فيها».

«ليس هناك أحد يحتقر جريس. يجب أن تكون شخصا مضطربا ومشوشا لتشعر بهذا نحوها».

«هذا لا ينطبق على ابني».

«إنها لا تذكر شيئا عن هذا أبدا».

«يرجع هذا كله إلى أول مرة التقيا فيها. كانت جريس في الثالثة عشرة، وجاكوب في الثالثة. وكنا، إليانور وأنا، قد انفصلنا لتّونا، وقد دعاني بيل تيبيتس للذهاب إلى بيته الريفي في فيرجينيا لقضاء أسبوعين مع عائلته. كان ذلك في الصيف، وقد اصطحبت جاكوب معي. وبدا أنه متواصل مع أولاد تيبيتس الآخرين، لكن كلما كانت جريس تدخل إلى حجرتي، كان يلكمها أو يقذفها بأي شيء. وفي إحدى المرات، التقط شاحنة لعبة وهشمها على ركبتها. كانت الطفلة المسكينة تنزف في كل أرجاء المنزل. أسرعنا بها إلى

الطبيب، وأخذت عشر غرز لخياطة الجرح».

«أعرف هــذا الجرح. أخبرتني جريس عنــه ذات مرة، لكنها لم تــأت على ذكر جاكوب. قالت بالضبــط إنه كان ولدا صغيرا، وهذا كل شيء».

«بــدا لي منــذ البداية أنه يكرهها، مــن أول لحظة وقعت عليها عيناه فيها».

«ربما شــعر بأنــك أحببتها كثيــرا جدا، ولذا صارت منافســا. فالأطفال في ســن ثلاث سنوات ليسوا كائنات منطـقية جدا. إنهم لا يعرفون كلمات كثيرة، وعندما يغضبون، فإن طريقتهم الوحيدة في التعبير تكون باستخدام قبضاتهم».

«ربما. لكنه اســتمر على هذا الأمر، حتى بعدما كبر أكثر. كانت أســوأ مرة فــي البرتغال، بعد ســنتين تقريبا من وفــاة تينا. وقتها بالضبــط كنت قد اشــتريت بيتــي الصغير الواقع على الســاحل الشــمالي، وأرسلته إليانور إليّ للإقامة معي شهرا. كان في الرابعة عشــرة، وقد عرف كثيرا من الكلمات مثلي. وتصادف وجود جريس هناك عندما جاء. كانت قد تخرجت في الكلية وقتها، وعلى وشــك أن تبدأ العمل في هويســت وماك ديرموت في ســبتمبر. في شهر يوليو، جاءت إلى أوروبا لتشــاهد اللوحات الفنية - أمستردام أولا، ثم باريس، وبعد ذلك مدريد. بعد ذلك، أخذت القطار إلى البرتغال. لــم أكن قد رأيتها منذ ســنتين، وكان لدينا كثير مــن العمل للقيام بــه، لكن عندما وصل جاكــوب إلى هناك لم يرغب في وجودها في المكان. كان يتمتم لها بالإهانات همســا، ويتظاهر بأنه لم يســمعها عندما كانت توجه إليه أي ســؤال، حتى أنه مرة أو مرتين وهو رجل ناضج سكب عليها الطعام. ظللت أحذره بأن يتوقف. قلت له، حركة

واحدة أخرى دنيئة، وسوف أضعه على متن طائرة وأرسله إلى حيث جـاء، إلى والدته وزوج والدتـه في أمريكا، فلما عبر الخط الأحمر وضعته في طائرة العودة إلى أمريكا».

«وما الذي فعله؟».

«بصق في وجهها».

«يا إلهي».

«كنا نحن الثلاثة في المطبخ، نقطع الخضراوات للعشاء. وعلقت جريس تعليقا حميدا على شـيء ما - لا أستطيع حتى أن أتذكر ما هو - وفهمها جاكوب على أنها إسـاءة. مشى إليها وهو يلوّح بسكين فـي يده ووصفهـا بأنها غبية، وفي النهاية ثـارت جريس. وقتذاك بصق عليها. عندما أتذكر هذا الأمر الآن، أظن أنها كانت محظوظة إذ لم يأخذ السكين ويغرسه في صدرها».

«وهذا الشـخص تريد مني أن أتحدث إليه غدا؟ إن ما يستحقه هو رفسة سريعة توجه إليه».

«أخشى أن يحدث هذا إذا ذهبت إلى هناك بنفسي. سيكون من الأفضل جدا للجميع لو ذهبت إلى هناك بدلا مني».

«هل حدث أي شيء منذ موضوع البرتغال؟».

«أبعدتهما أحدهما عن الآخر. لم تتقاطع بهما الطرق سـنوات، وفي رأيي، سـيكون العالم مكانا أكثـر أمنا لو لم ير أحدهما الآخر أبدا»[٢٧].

لم يكن على جريس الذهاب إلى عملها في الصباح التالي، وكانت لا تـزال نائمة عندما غادرت الشـقة. كنت قـد قررت بعد تحدثي مـع تروس يوم الجمعة، ألا أخبرها بالوعـد الذي قطعته بالذهاب إلى سـميثرز بعد ظهر ذلك اليوم. فسـيجبرني هذا على ذكر اسم

جاكوب، وأنا لم أرغب في مواجهة خطر إثارة ذكريات سيئة بالنسبة إليهـا. فقد تحملنا صعوبات امتدت على مدار أيام، وكنت كارها أن أتحدث عن أي شيء من الممكن أن يسبب لها أقل قدر من الانفعال - وربما يسـبب أيضا تدمير التوازن الهش الذي نجحنا في إيجاده مرة ثانية في السـاعات الثمانية والأربعين السابقة. تركت ملحوظة علـى مائدة المطبخ، أخبرتها فيها بأنني ذاهـب إلى مانهاتن لزيارة عدد من محلات بيع الكتب، وأنني سـأعود إلى البيت في السادسة على الأكثر. كذبة أخرى، تضاف إلى كل الأكاذيب الصغيرة الأخرى التي قالها أحدنا للآخر على مدار الأسـبوع الماضي. لكن خداعها لم يكن في نيتي. أردت ببسـاطة أن أحميها مـن أكثر الأمور إثارة للبغضاء، لإبقاء المساحة التي نتقاسمها أكثر محدودية وخصوصية قدر الإمكان، دون إرباك أنفسنا في أمور مؤلمة من الماضي.

كان مركز إعادة التأهيل والإصلاح يحتل قصرا كبيرا كان من قبل يخص منتج برودواي بيلي روز. لا أعرف متى أو كيف تم تحويل المكان إلى «سـميثرز»، لكنه ظل مثالا راسخا على الطراز المعماري القديم لنيويورك، قصـر من الحجر الجيري يرجع إلـى عصر كان الثري فيه يتباهى بالماس، والقبعات الرسـمية والقفازات البيضاء. كم كان غريبا أن يصبح قاطنوه الآن من القاع الفاسـد في المجتمع، وأعداد متزايدة بشـكل لا نهائي من مدمني المخدرات، والخمور، والمجرمين السابقين. لقد أصبح محطة في الطريق للتائهين، وعندما أزّ الباب منفتحا ومضيت إلى الداخل، لاحظت أن ثمة رداءة بعينها قد بدأت تحل وتسـتوطن المكان. كانت أساسات وقوائم المبنى لا تزال سليمة (قاعة المدخل الكبيرة ببلاط أرضيتها الأبيض والأسـود، والسـلم الملتـوي بدرابزينه البني المحمر)، لكن الطلاء بدا قاتما ومتسـخا،

تساقط على مدار سنوات من الرشح والتقادم والاستخدام الزائد.

سألت عن جاكوب في المكتب الأمامي، وقدمت عن نفسي كصديق للعائلة. بدت المرأة المسؤولة مرتابة في شخصي، وكان يجب عليّ أن أفرغ جيوبي لأثبت أنني لا أحاول تهريب مخدرات أو أسلحة. وعلى الرغم من أنني اجتزت الاختبار، فقد شعرت بشكل يقيني بأنها كانت على وشك أن ترفض دخولي، لكن قبل أن أتمكن من مناقشة حقي في الدخول، تصادف ظهور جاكوب في الصالة الأمامية الخارجية، يمشي مع اثنين أو ثلاثة من النزلاء الآخرين إلى حجرة الطعام لتناول الغداء. بدا لي أطول منه آخر مرة رأيته فيها، لكن بملابسه السوداء وشعره الأخضر وجسده النحيف بشكل مفرط، كان هناك شيء ما غريب وأحمق في ما يتعلق به، بدا كما لو كان مهرجا متخفيا في طريقه لأداء رقصة لأمير الموت. صحت باسمه، وعندما التفت ورآني، بدا مصدوما - تعيسا أو غير سعيد، ببساطة مصدوما. «سد»، تمتم، «ما الذي تفعله هنا؟». انفصل عن المجموعة ومشى إلى حيث كنت أقف، وهو ما دفع المرأة الجالسة خلف المكتب إلى أن تسأل سؤالا لا داعي له: «هل تعرف هذا الرجل؟». فقال جاكوب «نعم». «أعرفه، إنه صديق أبي». كان ذلك التصريح كافيا للسماح لي بالدخول. دفعت المرأة إليّ بكشف من الورق على لوح مقوى، وبمجرد تدويني لاسمي في كشف الزوار، اصطحبت جاكوب في ممر طويل إلى حجرة الطعام.

«لم يخبرني أحد بأنك قادم»، قال. «أظن أن الرجل العجوز قد كلفك بهذا، هاه؟»

«ليس صحيحا. تصادف أن كنت في الجوار، وفكرت في المرور لأعرف كيف حالك».

أصدر جاكوب صوت شخير، دون أن يكلف نفسه حتى التعليق الدقيق على عدم تصديقه لي. كانت كذبة واضحة، لكنني قلتها لأجعل جون خارجا على المناقشة، معتقدا أنني سأحصل على المزيد من جاكوب لو تجنبت التحدث عن أسرته. بقينا في صمت استمر عدة دقائق ثم، ومن دون توقع، وضع يده على كتفي. «سمعت أنك كنت مريضا فعلا»، قال.

«كنت. وقد أصبحت أفضل الآن».

«اعتقدوا أنك كنت على وشك أن تموت، أليس كذلك؟».

«وهذا ما قيل لي. لكنني ضللتهم وخرجت، انسحبت من هناك منذ أربعة أشهر تقريبا».

«هذا يعني أنك خالد، يا سد. إنك لن تموت حتى تبلغ المائة والعشر سنوات».

كانت قاعة الطعام حجرة كبيرة مشمسة بأبواب من الزجاج تؤدي إلى حديقة صغيرة، اتجهت إليها مجموعة من النزلاء وأسرهم للتدخين وشرب القهوة. كان الطعام يقدَّم على طريقة الكافيتيريات، وبعدما وضع جاكوب وأنا شرائح من اللحم على صحّفتينا، وبطاطس مهروسة، وسلطة، رحنا نبحث عن مائدة شاغرة. لابد أن القاعة كان بها خمسون أو ستون شخصا، وكان علينا أن نلف في شكل دائري دقيقتين قبل أن نعثر على واحدة. بدا أن هذا التأخير قد أغضبه، كما لو كان إهانة شخصية. عندما جلسنا أخيرا، سألته كيف تسير الأمور معه، فشرع في إطلاق شكاوى موجعة، وهو يهز ساقه اليسرى بتوتر بينما كان يتكلم.

«هذا المكان خراء»، قال. «كل ما نفعله هو الذهاب إلى الاجتماعات والتحدث عن أنفسنا. أقصد، كم يبعث هذا على الملل؟ كما لو

كنت أرغب في الاستماع إلى هؤلاء الداعرين الشواذ وهم يحكون قصصهم الغبية عن مدى فساد طفولتهم، وكيف تعثروا وخرجوا على الطريق الصحيح وسقطوا في قبضة الشيطان».

«وما الذي يحدث عندما يجيء دورك؟ هل تقف وتتحدث؟».

«أضطر إلى ذلك. إذا لم أقل شيئا، يشيرون إليّ بأصابعهم ويبدأون في وصفي بالجبان. لذا فقد اخترعت شيئا ما بحيث يبدو مماثلا لما يقوله الآخرون جميعا، ثم أبدأ في البكاء. هذا ينطلي عليهم دائما. إنني ممثل جيد جدا، أنت تعرف. أخبرهم كم أنا غير سوي، ثم أنهار ولا أقوى على المضي أكثر من هذا، ويكون الجميع سعداء بهذا».

«لماذا تحتال عليهم؟ إنك بالضبط تهدر وقتك هنا إذا فعلت ذلك».

«لأنني لست مدمنا، هذا هو السبب. إنني أضيع الوقت بالعبث متناولا القليل جدا من المخدرات، لكن هذا ليس أمرا خطيرا بالنسبة إلي. بإمكاني الاستمرار فيه أو التوقف عنه».

«هذا ما اعتاد زميلي في الكلية أن يقوله. ثم ذات ليلة لقي حتفه بسبب جرعة زائدة».

«نعم، حسنا، من المحتمل أنه كان غبيا. إنني أعرف ما أفعله، ولن أموت بسبب أي جرعة زائدة. أنا لست مدمنا على المخدرات. أمي تعتقد هذا، لكنها لا تعرف شيئا وما تعرفه عديم القيمة».

«لماذا إذن وافقت على المجيء إلى هنا؟».

«لأنها قالت إنها ستقاطعني إن لم أفعل. وقد سبق لي بالفعل إغضاب صديقك، السير جون المبجل، ولا أريد أن تكون لدى الليدي إليانور أي أفكار غبية عن قطع مصروفي».

«بإمكانك دائما أن تحصل على عمل».

«نعم، بإمكاني، لكنني لم أعد أرغب في هذا. لديّ خطط أخرى، وأنا في حاجة إلى مزيد من الوقت لتنفيذها».

«إذن فأنت تجلس هنا فقط، في انتظار انقضاء الثمانية والعشرين يوما».

«لن يكون الأمر سيئا جدا لو كفوا عن جعلنا مشغولين طوال الوقت. عندما لا ننهك مؤخراتنا في تلك الاجتماعات اللعينة، إنهم يجعلوننا ندرس هذه الكتب الفظيعة. إنك لم تقرأ أبدا في حياتك زبالة مثل هذه».

«أي كتب؟».

«دليل أيه إيه، برنامج الاثنتي عشرة خطوة، كل ذلك الهراء».

«ربما تكون هراء، لكنها ساعدت كثيرين من الناس».

«إنها للمعتوهين والمأفونين، يا سد».

كنا معا دقائق قليلة فقط، وقد شعرت فعلا بالإنهاك، واستنزفني الحديث المضجر والساخر للولد. أردت الخروج من هناك بأسرع ما في وسعي، لكنني لأجل الشكليات قررت الانتظار حتى انتهاء الوجبة. بدا أن الشهية الضعيفة لابن تروس الذي يعاني الشحوب والهزال لا تتفق وطريقة الطهي في سميثرز. لم يكمل تناول البطاطس المهروسة، وأخذ عينة واحدة من شرائح اللحم المفروم، ثم ترك شوكته. بعد لحظة، قام من مقعده وسألني إن كنت أرغب في التحلية. هززت رأسي بالرفض، فمضى مباشرة إلى طابور الطعام مرة ثانية. عندما عاد، كان يحمل كأسين من بودنج الشيكولاتة، وضعهما أمامه وتناول واحدة تلو الأخرى، مظهرا اهتماما أكبر إلى حد بعيد بالحلويات مما كان في طبقه الرئيسي. في ظل عدم وجود

مخدرات في المكان، كانت السكريات هي البديل الوحيد المتاح، كان يلتهم كأسي البودنج ببهجة طفل صغير، آخذا بالملعقة كل نقطة في كلتا الكأسين. في فترة ما بين مقدار الكأس الأولى والثانية، توقف رجل عند المائدة لإلقاء التحية عليه. بدا الرجل في منتصف الثلاثينيات، له وجه مليء ببثور بشعة وشعره ملموم إلى الوراء على هيئة ذيل حصان. عرّفني جاكوب على فريدي، وبدفء وجدية لمتمرس محنك حقيقي في إعادة التأهيل، مدّ الرجل يده إليّ وقال إنه كان مسرورا لمقابلة أحد أصدقاء جاك.

«سد روائي مشهور»، أعلن جاكوب، من دون مناسبة تستدعي ذلك. «لقد نشر نحو خمسين كتابا».

«لا تستمع إلى ما يقوله»، أخبرت فريدي. «إنه يميل إلى المبالغة».

«نعم، أعرف»، أجاب فريدي. «إنه مشاغب فعلا. وأضطر إلى مراقبته من قرب. أليس كذلك، أيها الصبي؟».

نظر جاكوب إلى المائدة، ثم ربّت فريدي على رأسه ومشى بعيدا. بينما كان جاكوب يبتلع ويزيح كأس بودينج الشيكولاتة الثاني، أخبرني أن فريدي كان قائد مجموعته وليس بالشخص السيئ، مع أخذ بقية الأشياء في الاعتبار.

«اعتاد سرقة الأشياء»، قال. «تعرف، سارق معروضات محترف. بل ولديه حيل ذكية، لذلك لم يضبط أبدا. بدلا من أن يدخل إلى المحلات مرتديا معطفا كبيرا، وهي الطريقة التي يسلكها معظمهم، يتنكر في هيئة قسيس. لم يشتبه فيه أحد أبدا. الأب فريدي، الكاهن رجل الله. ومع ذلك، ذات مرة، تورط في ازدحام مروري غريب. كان في مكان في وسط المدينة، على وشك الدخول إلى صيدلية بغرض

السرقة منها، عندما وقع هذا الحادث المروري الكبير. شخص يعبر الطريق ضربته إحدى السيارات. جره شخص ما إلى الرصيف، حيث كان يقف بالضبط. كان هناك دم في كل مكان، كان المصاب قد فقد الوعي، وبدا أنه على وشـك الموت. تجمع حشـد من حوله، وفجأة لمحت إحدى النساء فريدي المرتدي زي القسيس فطلبت منه أن يتلو شعائر قداس الموت. الأب فريدي مزيف. لا يعرف كلمات أي صلاة من الصلـوات، لكنه إذا فر هاربا، سـيعرفون أنه مزيف ويقبضون عليه لانتحال شـخصية قسيس. لذلك انحنى على الشخص، وضم يديه معا لتبدوا كأنه يصلي، وغمغم ببعض هراء مقدس سمعه مرة في أحد الأفلام. ثم نهض، وأشـار بعلامة الصليب، وانطلق بسرعة خاطفة. مضحك جدا، هاه؟».

«يبدو أنك تحصل على تعليم جيد في تلك الاجتماعات».

«هذا ليس بشيء. أقصد، كان فريدي مجرد مدمن يحاول الإنفاق علـى إدمانه. كثير من الناس الآخرين فـي المكان هنا قاموا ببعض أفعال دنيئة مجنونة ملعونة تماما. هل ترى هذا الرجل الجالس في ركن المائدة، الشـخص الضخم المرتدي القميـص الأزرق؟ جيروم. قضى اثنتا عشـرة سنة في أتيكا بسـبب جريمة قتل. وتلك الفتاة الشـقراء في المائدة المجاورة الجالسـة مع والدتها؟ سالي. نشأت في شـارع «الجادة الثانية» وتتحدر من إحدى الأسر الغنية جدا في نيويـورك. أخبرتنا أمس أنها كانـت تمارس الخدع في «تنث أفنيو» بالقـرب من «لينكولن تانل»، تضاجع الرجال في السـيارات مقابل عشـرين دولارا للمرة. وهذا الرجل الإسـباني الأصل في الجانب الآخر من الحجرة، ذلك المرتدي القميص الأصفر؟ ألفونسـو. دخل السـجن لاغتصابه ابنته البالغة من العمر عشر سنوات. أقـول لك،

يا سـد، إنني، مقارنـة بمعظم هذه الشـخصيات، أنا مجرد صبي لطيف من الطبقة الوسطى».

بدا أن كأسـي البودينج قد أمدتاه بالطاقة قليلا، وعندما حمل كل منا صينيته المتسـخة إلى المطبخ، كان يتحرك بقفزات معينة في خطواته، بخلاف المسـرنمين الذين لاحظتهم وهم يجرّون أقدامهم في الصالة الأمامية قبل الغداء. بشكل عام، سأخمن أنني كنت معه ثلاثين أو خمسا وثلاثين دقيقة – مدة طويلة بقدر كاف لأشعر بأنني أديـت واجبي نحو جـون. أثناء خروجنا من قاعة الطعام، سـألني جاكـوب إن كنت أحـب أن أصعد إلى الطابق العلـوي وأرى حجرة نومه. مـن المفترض أن يكـون هناك اجتماع كبيـر للمجموعة في الواحدة والنصف، قال، أفراد العائلة والضيوف مدعوون للحضور. كان سيتم الترحيب بحضوري إذا أنا أردت، وكان بإمكاننا في الوقت نفسـه أن نسـتريح في حجرته في الطابق الرابع. كان هناك شيء ما مثير للشـفقة أو الحزن في طريقة تعلقه وتمسـكه بي، وقد بدا أنه كاره لفكرة أن أتركه وأرحل. كنا بالكاد مجرد معارف، ومع ذلك لا بد أنه كان يشـعر بالوحدة تماما في ذلك المكان بحيث يفكر فيّ كصديق، علـى الرغم من أنه يعرف أنني جئت كعميل سـري نيابة عن أبيه. حاولت أن أشعر ببعض الشفقة تجاهه، لكنني لم أستطع. فهو الشـخص الذي بصق فـي وجه زوجتي، وعلـى الرغم من أن الحادث قد وقع منذ سـت سـنوات، فلم يكن ممكنا أن أجبر نفسي على مسـامحته على هذا. نظرت إلى سـاعتي وأخبرته أنني كنت من المفترض أن أقابل شـخصا ما في «الجادة الثانية» خلال عشر دقائـق. رأيـت ومضة خيبة أمل في عينيه، ثم، علـى الفور تقريبا، اكتسـى وجهه بقناع صلب من اللامبـالاة. «المشكلة ليسـت كبيـرة،

يا رجل»، قال. «إذا كنت مضطرا للذهاب، فعليك أن تذهب».

«سأحاول العودة في الأسبوع المقبل»، قلت، وأنا أعرف جيدا جدا أنني لن أفعل.

«أيا كان، وفق رغبتك، يا سد. الأمر متروك لك».

أعطاني تربيتة على كتفي بطريقة لطيفة، لكن فيها اعتدادا بالنفس، وقبل أن أتمكن من مصافحته مودعا، استدار على عقبيه وبدأ السير نحو السلالم. وقفت في الردهة لحظات قليلة، في انتظار أن أرى إن كان سينظر وراءه من فوق كتفيه ويومئ لي مودعا، لكنه لم يفعل. استمر في صعود السلم، وعندما انعطف في المنحنى واختفى عن النظر، اقتربت من المرأة الجالسة إلى المكتب الأمامي ووقعت بالانصراف.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بقليل. نادرا ما كنت أذهب إلى «أبر أيست سايد»، ونظرا إلى أن الجو قد تحسّن خلال الساعة الماضية، سخن بشكل سريع لدرجة أن سترتي الآن بدت عائقا لي، اتخذت من سيري اليومي ذريعة للتجوال في أرجاء المنطقة. كان سيصبح من الصعب أن أخبر جون كم كانت الزيارة محبطة بالنسبة إلي، وبدلا من أن أتصل به على الفور، قررت تأجيل الأمر حتى أعود إلى بروكلين. لم أتمكن من القيام بهذا من الشقة (على الأقل ليس في وجود جريس في البيت)، لكن كانت هناك كابينة تليفون قديمة عند الناصية الخلفية من لاندولفي، بباب أكورديون يغلق بشكل كامل، وتصورت أنه ستكون هناك خصوصية كافية لي لإجراء الاتصال من هناك.

بعد عشرين دقيقة من مغادرتي سميثرز، كنت في «ليكسنجتون أفنيو» في درجة حرارة أقل من ٩٠، وبينما أمضي في الطريق بين حشد

صغير من المارة وأنا أفكر في التوجه إلى البيت. احتك بي شخص ما، مسني بشكل عابر في كتفي اليسرى بينما كان يمرّ بجواري، وعندما التفت لأرى من كان، حدث شيء رائع جدير بالملاحظة، شيء ما شديد البعد عن عالم الاحتمال لدرجة أنني في البداية حسبته هلوسة. عبر الطريق مباشرة، وبالضبط بمقدار زاوية تسعين درجة من حيث كنت أقف، رأيت محلا صغيرا بلافتة موضوعة فوق الباب كان مكتوبا عليها «قصر الورق». هل من الممكن أن يكون تشانج قد تمكن من نقل تجارته إلى هنا؟ صدمني الأمر على نحو لا يمكن تصديقه، ومع ذلك وفي ضوء السرعة التي يدير بها أموره - يوقف نشاط محله في مدة ليلة واحدة، ويجوب المدينة بسيارته الحمراء، ويستثمر في المؤسسات المشبوهة، يقترض الأموال، وينفقها - فلماذا ينبغي أن أشك في هذا؟ بدا أن تشانج يعيش في ضباب أو عدم وضوح متسارع الحركة، كما لو أن ساعات العالم تمضي ببطء أكبر بالنسبة إليه عنها بالنسبة إلى الآخرين جميعا. لابد أن الدقيقة بالنسبة إليه هي ساعة، وفي ضوء كثير من الوقت الإضافي المتاح له، لماذا إذن لا يستطع النجاح في الانتقال إلى طريق ليكسنجتون في غضون أيام فقط منذ آخر مرة التقيته فيها؟

من ناحية أخرى، ربما يكون هذا أيضا مصادفة. أن يكون قصر الورق ما هو إلاّ اسم شائع لمحلات الأدوات المكتبية، ومن السهل أن يكون هناك أكثر من واحد في المدينة. عبرت الشارع لأتبين الأمر، شيئا فشيئا تأكدت من أن هذا كان هو نسخة من محل منهاتن ويملكه شخص آخر غير تشانج. فالأشياء المعروضة في النافذة أثبتت أنها مختلفة عن تلك التي استحوذت على انتباهي في بروكلين يوم السبت الماضي. لم تكن هناك أبراج أو أعمدة من الورق

توحـــي بنـاطحـات ســحاب نيويـورك، لكنــي شــعرت بـأن ما حل محلها كان أكثر براعة في أسلوب عرضه عن العرض السابق. تمثال رجل بحجم دمية صغيرة جالس إلى منضدة صغيرة عليها آلة كاتبة مصغـرة. كانت يداه علـى المفاتيح، وقد تدلى فـرخ من الورق إلى خارج الأسطوانة، وإذا قربت وجهك جدا من النافذة ونظرت بعناية شـديدة، يمكنك أن تقرأ الكلمات التي تمـت طباعتها على الورقة: كان أفضـل الأزمان، كان أسـوأ الأزمان، كان عصـر الحكمة، كان عصر الحماقة، كانت حقبة الإيمان، كانت حقبة التشكك، كان عهد النور، كان عهد الظلام، كان ربيع الأمل، كان شـتاء اليأس، كان كل شيء أمامنا، ولم يعد هناك شيء أمامنا...

فتحت الباب ودخلت، وبينما كنت أعبر العتبة سمعت نفس رنين الأجراس التي سمعتها في قصر الورق الآخر في الثامن عشر. كان محـل بروكلين صغيرا، لكن هذا المحل كان أكثر صغرا، وفيه معظم البضاعة مكدسـة على الأرفف الخشـبية الممتدة بطول المحل فوق بعضها حتى السـقف. مرة أخـرى، لم يكن هناك عملاء في المحل. فـي البداية، لم أر أحدا على الإطلاق، بـل همهمة خفيضة ناعمة كانـت تنبعث من مكان ما علـى مقربة من الكاونتر الأمامي، كما لو أن شـخصا ما كان يجلس القرفصاء خلفه - يربط حذاءه، ربما، أو يلتقط قلما جافا أو قلم رصاص سقط منه. أصدرت صوت نحنحة، وبعد ذلك بثانيتين نهض تشانج من الأرضية ووضع كفيه على سطح الكاونتر، كما لو كان هذا للحفاظ على توازنه. كان هذه المرة يرتدي الجاكيت البني، وكان شـعره غير ممشط. بدا أكثر نحافة مما كان من قبل، وثمـة تجعدات عميقة حول فمه وكانـت عيناه محتقنتين بالدم قليلا.

«تهانّي»، قلت. «عاد قصر الورق للوقوف على قدميه».

حدّق تشـــانج فيّ بتعبير خال من المعنى، إمّـــا غير قادر على أو كارها للتعرّف عليّ.

«آسف»، قال. «لا أعتقد أنني أعرفك».

«بالطبع تعرفني. أنا سدني أور. قضينا معا طيلة بعد الظهر في أحد الأيام القليلة الماضية مباشرة».

«سدني أور ليس صديقا لي. اعتدت الاعتقاد أنه رجل جيد، لكن لن يحدث هذا بعد الآن».

«ما الذي تتحدث عنه؟».

«لقد خذلتني، يا ســيد سد. وضعتني في موقــف محــرج جدا. لا أريد أن أعرفك بعد الآن. الصداقة انتهت».

«أنا لا أفهم. ما الذي فعلته؟».

«تتركني في مصنع الملابس. مــن دون حتى أن تقول إلى اللقاء. أي نوع من الصداقة هذا؟».

«بحثت عنك في كل مكان. مشيت حول البار، وعندما لم أستطع العثور عليك خمنت أنك في أحد الأكشاك ولم أرغب في إزعاجك. لذلـــك غـــادرت. كنت قد تأخـــرت، وكان يجب علـــيّ أن أذهب إلى البيت».

«البيت إلى زوجتك الحبيبة. بعد حصولك مباشرة على إثارة من الأميرة الأفريقية. كم هذا مضحك، يا ســـيد ســـد؟ لو كانت مارتين موجودة هنا الآن، فستفعل هذا ثانية. هنا تماما على أرضية محلي. تلاطفها ككلب وتحب كل دقيقة معها».

« كنت ثملا. وكانت جميلة جدا، وفقدت الســـيطرة على نفسي. لكن هذا لا يعني أنني سأفعل هذا ثانية».

«لـم تكن ثملا. أنـت منافق فـظ، بالضبط مثـل كل الأنانيين الآخرين».

«قلت إنه ليس بإمكان أحد مقاومتها، وكنت محقا. يجب أن تكون فخورا بنفسك، يا تشانج. سبرت غوري واكتشفت ضعفي».

«لأنني عرفت أنك تفكر في أفكار سـيئة عني، هذا هو السبب. أفهم ما في ذهنك».

«نعم؟ وما الذي كنت أفكر فيه ذلك اليوم؟».

«تفـكر في تجـارة تشـانج الفظـيعة. رجل قذر بلا قلـب. رجل لا يحلم إلا بالمال».

«هذا ليس صحيحا».

«كلا، يا سـيد سـد. هذا صحيح. لنتوقف عـن التحدث الآن. جرحـت روحي جرحا كبيرا، والآن كفى. تطلـع حولك إذا أحببت. سـأرحب بك كعميل لمحل قصر الورق الخاص بي، لكن لا مزيد من الصداقة. الصداقة ماتت. الصداقة ماتت وهي الآن مدفونة. انتهى كل شيء».

لا أعتقد أن شخصا ما قد أهانني من قبل تماما وبمعنى الكلمة أكثـر مما فعل تشـانج بعد ظهـر ذلك اليوم. لقد سـببت له حزنا كبيرا، من دون قصد جرحت هيبته وإحساسـه بكرامته، وبينما كان يجلدني بتلك الصلابة، والجمـل الموزونة من جانبه، بدا لي كما لو أنه يشـعر بأنني أستحق أن أُسحَل وأُقطَّع إلى أربعة أجزاء على ما ارتكبتـه من جرائم. ما جعل الهجوم أكثر إثارة للضيق إلى حد بعيد هـو أن معظم اتهاماته كانت صحيحة. تركته في مصنع الملابس من دون أن أقول وداعا، وسـمحت لنفسي بالسقوط بين ذراعي الأميرة الأفريقية، ووجهت الاتهام إلى استقامته الأخلاقية بخصوص رغبته

في الاستثمار في النادي. كان هناك القليل مما يمكنني أن أقول دفاعا عن نفسي. أي نوع من الإنكار كان من الممكن أن يكون غير مجد، وحتى لو كانت انتهاكاتي هذه متعلقة بأمور صغيرة نسبيا، فمازلت أشعر بما يكفي من الذنب بخصوص الوقت الذي قضيته مع مارتين خلف الستارة، وهو ما لا أرغب في استعراضه مرة ثانية. كان يجب عليّ أن أقول وداعا لتشانج وأغادر «قصر الورق» على الفور، لكنني لم أفعل. فالدفاتر البرتغالية أصبحت محل تركيزي الشديد وقتها، ولم يكن بإمكاني أن أذهب من دون أن أرى وأتأكد أولا إن كانت لديه أيّ بقية منها. كنت أدرك كم كان من غير الحكمة أن أبقى في مكان لم يكن وجودي فيه مرغوبا، لكنني لم يكن بيدي حيلة. كان يجب عليّ ببساطة أن أتبين الأمر.

كان هناك واحد باق، موجود وسط دفاتر ألمانية وكندية معروضة على الرف الأسفل في نهاية المحل. كان الدفتر الأحمر، وهو بلا شك الدفتر الأحمر نفسه الذي كان في بروكلين يوم السبت الماضي، وكان السعر هو السعر نفسه الذي كان عليه هناك، أي خمسة دولارات. عندما حملته إلى الكاونتر وناولته لتشانج، اعتذرت عما سببته له من معاناة أو إحراج. وقلت له إنه لا يزال بإمكانه الاعتماد عليّ بصفتي صديقا، وأنني سأستمر في شراء احتياجاتي من الأدوات المكتبية منه، حتى لو كان ذلك معناه الذهاب إليه بعيدا من وجهتي للقيام بهذا. ومع الرغم من كل الندم الذي حاولت التعبير عنه، هزّ تشانج رأسه فقط وربّت على الدفتر بيده اليمنى. «آسف»، قال. «هذا الدفتر ليس للبيع».

«ما الذي تعنيه؟ هذا محل. وكل شيء فيه معروض للبيع».
أخرجت ورقة مالية من فئة عشرة دولارات من محفظتي وبسطتها

أمامه على الكاونتر. «ها هي نقودي»، قلت. «تقول البطاقة الملصقة خمسة دولارات. الآن من فضلك أعطني الباقي والدفتر».

«مستحيل. الدفتر البرتغالي الأحمر هذا هو الأخير في المحل. وهو محجوز لعميل آخر».

«لو كنت تحجزه لشخص آخر، كان يجب عليك أن تضعه خلف الكاونتر بحيث لا يمكن لأحد أن يراه. وبما أنه معروض على الرف، فمعنى هذا أن بإمكان أي شخص شراءه».

«ليس أنت، يا سيد سد».

«كم كان سيدفع لك العميل الآخر؟».

«خمسة دولارات، بالضبط كما يفيد الشريط اللاصق».

«سأعطيك عشرة مقابله، ولنعتبر هذا اتفاقا. ما رأيك؟».

«ليس عشرة دولارات. عشرة آلاف دولار».

«عشرة آلاف دولار؟ هل فقدت عقلك؟».

«هذا الدفتر ليس لك، يا سدني أور. اشتر دفترا آخر، ليرتاح الجميع. موافق؟».

قلت أخيرا وقد نفد صبري، «انظر، تكلفة الدفتر خمسة دولارات، وأنا أرغب في إعطائك عشرة. لكن هذا هو كل ما سأدفعه».

«أدفع خمسة آلاف الآن وخمسة آلاف يوم الاثنين. هذا هو الاتفاق. وإلا ...».

«من فضلك اشتر دفترا آخر».

دخلنا في مجال من الجنون التام. في النهاية جعلتني طلبات تشانج الساخرة والحمقاء أخرج عن هدوئي، وبدلا من الاستمرار في مساومته، خطفت الدفتر من تحت كفه واتجهت نحو الباب. «هذا كل شيء»، قلت. «خذ عشرة دولارات واذهب إلى الجحيم. أنا ذاهب».

قبل أن أخطو خطوتين كان تشـانج قد قفـز من خلف الكاونتر واعترضني وسد طريقي إلى الباب. حاولت الانسلال متجاوزا إياه، مسـتخدما كتفي لدفعه جانبا، لكن تشـانج رفـض التراجع، وبعد لحظـة كانت يداه على الدفتر وراح ينتزعه مني. سـحبته منه مرة ثانية وتشبثت به وأنا أضمه إلى صدري، مواصلا الإمساك به بشكل محكم، لكن مالك قصر الورق كان كيانا شرسـا يتمتع بطاقة زائدة بعض الشيء في الأوتار والأعصاب وبعضلات قوية، فانتزع الدفتر من قبضتي في غضون عشر ثوانٍ تقريبا. كنت أعرف أنني لن أقدر على اسـترداده منه أبدا، لكنني كنت مغتاظا جدا، ثائرا جدا بسبب الإحباط، لدرجة أنني أمسـكت ذراعه بيدي اليسرى وسددت إليه ضربة بيدي اليمنى. كانت هذه هي اللكمة الأولى التي أسددها إلى شخص منذ المدرسة الابتدائية، وقد أخطأت الضربة. وفي المقابل، سـدد تشـانج ضربة كاراتيه إلى كتفي اليسرى. نزلت عليّ الضربة كالسكين، وكان الألم شـديدا جدا لدرجة اعتقدت معها أن ذراعي كانت على وشـك أن تنفصل عن مكانها. سقطت على ركبتيّ، وقبل أن أتمكن من النهوض ثانية، بدأ تشانج في ركل ظهري. صحت فيه ليتوقف، لكنه اسـتمر في تسديد ضربات طرف حذائه إلى قفصي الصدري وعمـودي الفقري - ضربات قصيرة وحشـية واحدة تلو الأخرى حتى تدحرجت نحو المخرج، محاولا بشكل يبعث على اليأس الخروج من هناك. عندما كان جسدي بمحاذاة اللوح المعدني الموجود أسـفل الباب، أدار تشانج المقبض، فانضغط الترباس الهيدروليكي، وشعرت بنفسي ملقى على الرصيف.

«ابق بعيدا عن هنا!» صاح تشانج. «لو عدت ثانية، سأقتلك! هل تسمعني، يا سدني أور؟ سأنتزع قلبك وأطعمه للخنازير!».

لـم أخبر جريس أبدا عن تشـانج أو الضرب أو أي شـيء آخر حدث في«آبر إيست سايد» بعد ظهر ذلك اليوم. كانت كل عضلة في جسـمي تؤلمني، لكن على الرغم من قوة قدم تشانج الانتقامية، فقد نجوت من كل ضرباته وركلاته ورجعت فقط بكدمات ورضوض غير خطيرة بطول الجزء السـفلي من ظهري. لابد أن السترة والجاكيت اللذين كنت ارتديهما قد سـاعدا في حمايتي، وعندما أتذكر كيف أنني كنت على وشك آن أخلع الجاكيت بينما كنت آتجول في المنطقة، أشعر بحسن الحظ لأنني كنت أرتديه عندما دخلت إلى قصر الورق - علـى الرغم من آن كلمة الحظ ربما تكون غريبة الاسـتخدام في مثل هذا السـياق. في الليالـي الدافئة دائما ما كنـا ننام من دون ملابس، لكن نظرا إلى آن الجو الآن قد أصبح باردا مرة ثانية، فقد بـدأت انام في الفـراش وأنا مرتديا قميصـي، وكانت حجرة النوم مظلمة بقدر كاف لئلا تقع عيناه جريس على الكدمات.

اتصلت بتروس من لاندولفي عندما خرجت لشراء التايمز صباح الأحد. أخبرته بكل شـيء كان بإمكاني تذكره عن زيارتي لجاكوب، بما في ذلك حقيقة أن دبابيس الأمان التي كان يتزين بها قد اختفت من آذني ابنه (كإجراء وقائي بلا شـك)، ولخصت كل رأي من الآراء التي استعرضناها منذ اللحظة التي وصلت فيها وحتى اللحظة التي رأيته يختفي فيها عند منحنى السـلم. أراد جون أن يعرف إذا كنت أعتقد أنه سيبقى الشهر كله أم سيفر قبل انتهاء الوقت، وأجـبت بأنني لا أعرف. صدرت عنه تعليقات أو ملاحظات مشـؤومة عن خطط لديه، قلت لتروس، وهو ما يعني أنه كانت هناك أشـياء في حياته لا يعرف عنها آحد في عائلته شـيئا، أسرار لم يرغب في أن نشـاركه فيها. ظن جون أنه ربما يكون في الأمر شـيء ما مرتبط

بتوزيع المخدرات. سـألته لماذا يشـك في هذا الاتجاه، وبدلا من أن يشـير إشارة سـريعة إلى نقود مصاريف الدراسـة المسروقة، ظل صامتـا. توقفت المحادثة قليلا عند هذه النقطة، وفي أثناء الصمت القصير الذي تلا ذلك، استجمعت شجاعتي أخيرا لإخباره عن بليتي في مترو الأنفاق في وقت سـابق من الأسـبوع، وكيف أنني فقدت «إمبراطورية العظام». لم يكن من الممكن أن أختار لحظة أكثر ارتباكا لإثـارة الموضوع، وفي البداية لـم يفهم تروس ما الذي كنت أتحدث عنـه. أعدت عليه القصة مرة ثانية. عندما أدرك أن مخطوطته من المحتمل أنها سافرت على طول الطريق إلى «كوني إيلاند»، ضحك. «لا تعذّب نفسك»، قال، «مازالت عندي نسختان كربونيتان منها. لم تكن لدينا في تلك الأيام ماكينات تصوير للمستندات، وكان الجميع دائمـا ما يكتبون نسـختين على الأقل من كل ما يكتبونه. سـأضع نسخة منهما في مظروف وأجعل مدام دوماس ترسله إليك بالبريد هذا الأسبوع».

في الصباح التالي، الاثنين، رجعت إلى الدفتر الأزرق لآخر مرة. كانت أربعون صفحة من ست وتسعين ممتلئة بالفعل، لكن كان هناك كثيـر من الفراغـات الكافية لمواصلة العمل لسـاعات قليلة. بدأت تقريبـا من منتصف صفحة جديدة، تركـت كارثة فلتكرافت ورائي إلى الأبد. وسـيظل بوين محبوسـا في الغرفة إلـى الأبد، وقررت أن اللحظـة قد حانت أخيرا للكفّ عـن مجهوداتي لإنقاذه. لو كنت قد تعلمت شـيئا من لقائي الوحشي مع تشانج يوم السبت، فهو أن الدفتر قد صار مصدرا للمشاكل بالنسبة إلي، ومهما حاولت الكتابة فيه فسينتهي ما أكتبه إلى الفشل. ستتوقف كل قصة في منتصفها، وكل مشروع سيحملني إلى الأمام لمسافة بعيدة، وعندئذ أتأمل الأمر

لأكتشــف أنني أصبحت ضائعا. ومع ذلك، كنت غاضبا من تشــانج بقدر كاف لأن أنكر عليه ارتياحه بأن كانت له الكلمة النهائية. كنت أعــرف أنه كان علي أن أودّع الدفتر البرتغالي، لكن لو لم أفعل هذا بشــروطي أنا، فسوف يستمر في مطاردتي كهزيمة أخلاقية. إذا لم يكن لأجل شــيء آخر، فقد كان عليّ أن أشــعر بأنني أثبت لنفسي أنني لم أكن جبانا.

تقدمت فيه بصعوبة، بحذر، مدفوعا بإحساس من التحدي أكثر منــه حاجة ملحة للكتابــة. لكن، قبل انقضاء فتــرة طويلة، وجدت نفســي أفكر في جريــس، والدفتر الأزرق لا يــزال مفتوحا أمامي على المكتب، دخلت حجرة المعيشة واستخرجت أحد ألبومات الصور التي كنا نحتفظ بها في درج ســفلي من خزانة من خشــب البلوط متعــددة الأغراض. على نحو رحيم، كان الســارق قد تركه من دون مســاس في أثناء عملية الاقتحام التي قام بهــا بعد ظهر الأربعاء. كان ألبوما خاصا، قُدِّم إلينا كهدية عرس من أصغر أخوات جريس، فلو، وكان يحتوي علــى ما يزيد على مئة صورة، تاريخ بصري لأول ســبع وعشرين ســنة من عمر جريس - جريس قبل أن ألتقي بها. لم أشــاهد هذا الألبوم منذ عودتي إلى البيت من المستشفى، وبينما كنت أقلب الصفحات في حجــرة مكتبي ذلك الصباح، تذكرت مرة ثانية القصة التي حكاها تروس عن أخي زوجته وعن المشغل الثلاثي الأبعاد، وجربت نوعا مشابها من الوقوع في الفخ، لأن الصور جذبتني وأعادتني إلى الماضي.

كانــت هناك جريــس وهي طفلة صغيرة حديثــة الولادة ممددة فــي مهدها. كانت فــي صورة أخرى وهي فــي الثانية من عمرها، تقف عارية في حقل من العشــب الطويل، ذراعاها مرفوعتان نحو

السماء، وتضحك. وكانت في صور أخرى وهي في الرابعة والسادسة والتاسعة - جالسة إلى منضدة ترسم صورة بيت، تبتسم ابتسامة عريضة في عدسة كاميرا مصور المدرسة بالعديد من الأسنان المفقودة، وأخرى وهي جالسة فوق صهوة فرس لونها بني مع شيء من الاحمرار، تهرول بها خلال ريف فيرجينيا. وجريس وهي في الثانية عشرة بذيل حصان، محرجة، تبدو مضحكة، غير مرتاحة في مظهرها الخارجي، ثم جريس وهي في الخامسة عشرة، جميلة فجأة، واضحة، في تجسيدها المبكر للمرأة التي ستصبح عليها في النهاية. كانت هناك أيضا الصور الجماعية: بورتريهات لعائلة تيبيتس. جريس مع مجموعة متنوعة من الأصدقاء غير المعروفين من المدرسة الثانوية والكلية. جريس وهي جالسة على حجر تروس في الرابعة من عمرها، مع والديها الجالسين على الجانبين، تروس وقد انحنى إلى الأمام ويقبلها على خدها في حفل عيد ميلادها العاشر أو الحادي عشر. جريس وجريج فيتزجيرالد في وجهين مضحكين في حفلة عيد الميلاد المجيد في هويست وماك ديرموت.

جريس في ثوب خاص بحفلة راقصة في السابعة عشرة. جريس وهي طالبة جامعية في العشرين من عمرها في باريس بشعر طويل وسترة سوداء ذات ياقة واقفة، جالسة في مقهى عام وتدخن سيجارة. جريس مع تروس في البرتغال في الرابعة والعشرين، وشعرها مقصوص ويظهر قصيرا، تبدو كما كانت هي عليه كفتاة بالغة، تنضح بثقة سامية مهيبة، وقد صارت متأكدة من ذاتها وقتها. جريس في محيطها أو مجال حياتها.

لابد أنني ظللت أشاهد الصور لما يزيد على ساعة قبل أن ألتقط القلم وأشرع في الكتابة. الاضطراب الذي حدث في الأيام السابقة

كان لسبب أو لغرض، ومن دون حقائق واقعية لدعم تفسير أو آخر، لم يكن لديّ أي شيء يرشدني غير غرائزي وشكوكي. كان يجب أن تكون هناك قصة وراء التبدلات الصاعقة أو المذهلة لمزاج جريس، دموعها وتعبيراتها الغامضة المبهمة، اختفاءها ليلة الأربعاء، صراعها ليقر قرارها في ما يتعلق بموضوع الطفل، وعندما جلست لكتابة هذه القصة، بدأت وانتهت مع تروس. كان من الممكن أن أكون مخطئا، بالطبع، لكن بعد أن بدا الآن أن الأزمة قد مرت، شعرت بما يكفي من قوة للتفكير في الاحتمالات المظلمة والأكثر اضطرابا. تخيل هذا، قلت لنفسي. تخيل هذا، ثم انتظر وشاهد ما سينتج عنه.

بعد سنتين من وفاة تينا، تذهب جريس الشابة البالغة الجذابة بصورة لا تقاوم إلى البرتغال لزيارة تروس. إنه في الخمسين، لا يزال في قوة وحيوية الخمسينيات، ولسنوات عديدة حتى الآن يبدي اهتماما فعالا ونشيطا لتطويرها - يرسل إليها الكتب لتقرأها، ويرشح لها لوحات لدراستها، حتى أنه يساعدها على اقتناء ليثوجراف ستصبح أعظم ما تقتنيه من كنوز. ربما كان لديها سر في تعلقها به منذ الطفولة، وتروس، الذي عرفها طوال حياتها، كان مغرما بها دائما وبشدة. إنه رجل وحيد الآن، ومع ذلك يجاهد لتحقيق توازنه الخاص بعد وفاة زوجته، وهي مُتيّمة، امرأة صغيرة في أوج جمالها، ودافئة جدا ورحيمة دائما، ومتاحة، ونافعة جدا. من يمكنه أن يلومه إن وقع في حبها؟ ومثلما أحببتها أنا فإن أي رجل في كامل قواه العقلية من الممكن أن يقع في حبها.

يقيمان علاقة في ما بينهما. عندما ينضم إليهما ابن تروس البالغ من العمر أربعا وعشرين سنة في البيت، يثور الولد وتشمئز

نفسه من حماقتهما. إنه لم يحب جريس أبدا، والآن بعدما اغتصبت منزلته وسرقت منه أباه، يبدأ في تخريب وتدمير سعادتهما. يمران بمعاناة لفترة فظيعة. أخيرا، يصبح جاكوب مصدر تعاسة لنفسه حتى أنه يطرد من البيت ويُعاد إلى والدته.

تروس يحب جريس، لكن جريس تصغره بستة وعشرين عاما، ابنة صديقه الحميم، وببطء لكن في ثقة وثبات يتغلب الذنب على الرغبة. إنه ينام مع فتاة اعتاد أن يغني لها أغنيات أطفال لتنام عندما كانت طفلة. لو كانت أي امرأة أخرى تبلغ من العمر أربعة وعشرين عاما، فلن تكون هناك مشكلة. لكن كيف يمكنه الذهاب إلى أقدم صديق له ويخبره أنه يحب ابنته؟ سيدعوه بيل تيبيتس بالمنحرف ويطرده من البيت. سيتسبب هذا في فضيحة، وإذا رفض تروس التراجع وقرر الزواج منها بأي حال، ستكون جريس هي الشخص الذي يعاني. تنقلب عائلتها عليها، ولن يقوى على مسامحة نفسه على ذلك أبدا. يطلب منها أن ترتبط بشخص من سنها. لو ظلّت ملازمة له، يقول تروس، فسوف يجعل منها أرملة قبل تصل إلى سن الخمسين.

تنتهي الحكاية الغرامية، وتعود جريس إلى نيويورك، محطمة، غير مصدقة، قلبها مجروح. تنقضي سنة ونصف السنة، ثم يعود تروس أيضا إلى نيويورك. ينتقل إلى شقة في شارع بارو وتبدأ الحكاية الغرامية من جديد، لكن بقدر حب تروس الكبير لها، تظل الشكوك والصراعات القديمة باقية. يبقي علاقتهما سرية (لمنع الأخبار من أن تصل إلى أبيها)، وجريس تستمر وتتمادى في هذا، غير مهتمة الآن بما يتعلق بمسألة الزواج نظرا إلى أنها استردت حبيبها مرة ثانية. عندما يطلب منها زملاؤها الرجال في هويست

وماك ديرموت الخـــروج معهم، ترفض دعواتهـــم. حياتها الخاصة عبارة عن لغز، وجريس المتحفظة لا تخبر أيّ شخص بشيء أبدا.

في البداية، تمضي الأمور على أحســـن ما يكون، لكن بعد شهر أو شـــهرين يبدأ نموذج جديد في الظهـــور، وتدرك جريس أنها بين فكي آلة. إن تروس يريدها ولا يريدها. يعرف أنه يجب أن ينساها، لكنه لا يستطيع الابتعاد عنها. يختفي ويعود، ينسحب ويتراجع، وفي كل مرة يطلبها، تطير لتصبح بين ذراعيه. يحبها لمدة يوم أو أســـبوع أو شـــهر، ثم تعود إليه شكوكه فينسحب ثانية. تدور الماكينة بصورة متقطعة، بين بين ... وجريس غير مســـموح لها بالاقتراب من مفتاح التحكم. لا يوجد شيء بإمكانها أن تفعله لتغيير النموذج.

بعد تسعة أشهر على بداية هذه الحماقة، أظهر أنا في الصورة. أحـــب جريس، على الرغم مـــن علاقتها بتروس، إنهـــا لا تبالي بي على الإطلاق. أســـعى وراءها مـــن دون هوادة، وأنا أعرف أن هناك شخصا آخر، أعرف أن هناك غريما مجهولا ينافس على عواطفها، لكن حتى بعد أن تقدمني هي إلى تروس (جون تروس، كاتب شـــهير وصديـــق العائلة منذ وقت طويل جدا)، لا يخطر لي أبدا أنه الرجل الآخر في حياتها. تظل لعدة أشـــهر متأرجحة بيننا، غير قادرة على الاســـتقرار علـــى قرار. عندمـــا يتراجع تروس أو يزهـــد، أكون مع جريس، وعندما يريد تروس اســـتعادتها، تتعذر عليّ رؤيتها. أتعذّب خلال هذه الإحباطات، أواصل التمسك بالأمل في أن تتحول الأمور لمصلحتـــي، لكنها تنصرف عني، وأفترض أننـــي فقدتها إلى الأبد. ربمـــا تندم على قرارها فـــي اللحظة التي تعود فيهـــا إلى الماكينة، أو ربمـــا حب تروس الشـــديد لها يدفعه إلى أن يبـــدأ في إبعادها، وهو يعلم أنني أمثل مســـتقبلا واعدا أكثر بالنسبة إليها عن الحياة

السرية التي لا مستقبل لها، التي تشاركه إياها. حتى أنه من الممكن أن يقنعها بالزواج بي. سيكون هذا سببا أو تعليلا لتغيّر موقفها المفاجئ والغامض. إنها لا تريد فقط استعادتي، لكن في الوقت نفسه تصرّح لي بأنها تريد أن تصبح زوجتي، وكلما كان زواجنا أسرع كان أفضل.

نعيش معا عصرا ذهبيا لمدة سنتين. أنا متزوج من المرأة التي أحبها، ويصبح تروس صديقا لي. يحترم عملي ككاتب، يشعر بمتعة في الوجود معي، وعندما نكون نحن الثلاثة معا، لا أكتشف أي علامات على تورطه السابق في حب جريس. حوّل نفسه إلى شخص عاشق لكن شبه أب، لدرجة أنه يعتبر جريس ابنة متخيلة له، ويعتبرني ابنا متخيلا له. فهو، في نهاية الأمر، مسؤول بشكل جزئي عن زواجنا، وهو ليس في سبيله إلى القيام بشيء يمكن أن يعرِّض هذا الزواج للخطر.

تحل الكارثة. في الثاني عشر من يناير ١٩٨٢، أصاب بانهيار في محطة مترو الشارع الرابع عشر وأسقط على مجموعة من السلالم. هناك كسور في العظام. هناك تمزق في الأعضاء الداخلية. هناك إصابتان منفصلتان في الرأس وتلف عصبي. أُخذت إلى مستشفى القديس فينسنت وبقيت هناك لأربعة أشهر. في الأسابيع القليلة الأولى، كان الأطباء متشائمين. ذات صباح. ينتحي الدكتور جوستين بيرج بجريس جانبا ويخبرها بأنه وزملاءه قد فقدوا الأمل. ويشكون في أنني سأعيش لأكثر من بضعة أيام، وأنه يجب عليها أن تعد نفسها لما هو أسوأ. لو كنت أنا في مكانك، يقول لها، كنت سأبدأ التفكير في التبرع بأعضائه التي من الممكن التبرع بها، وفي دكاكين الحانوتية، والمقابر. جريس مرتعبة من طريقته الخشنة والباردة في

الكلام، لكن الحكم يبدو نهائيا، وليس لها من خيار سوى الاستسلام لتوقع موتي الوشيك. تخرج مندفعة من المستشفى، في حالة دمار كلي بسبب كل كلمة قالها الطبيب، وتتجه مباشرة إلى بارو ستريت، الذي كان بالضبط على بعد شوارع قليلة. من، وهل لها من أحد آخر تلجأ إليه في لحظة كهذه سوى تروس؟ لدى جون زجاجة سكوش في شقته، وتبدأ في معاقرة الشراب في اللحظة التي تجلس فيها. تشرب كثيرا جدا، وخلال نصف ساعة تبكي بطريقة لا تستطيع التحكم فيها. يقترب منها تروس لمواساتها، يلف ذراعيه من حولها ويربت على رأسها. الماضي يغزو الحاضر، وفي الوقت الحاضر لم يكن للمستقبل وجود. تركت جريس نفسها، ولا تكون لدى تروس القوة كي لا يسايرها.

إنها تحبني. ليس هناك شك في أنها تحبني، لكنني رجل ميت الآن، وجريس تتهاوى قطعا صغيرة، إنها في غير كامل عقلها بسبب البؤس، تحتاج إلى تروس ليلمّ شتاتها. مستحيل لومها، مستحيل لوم أيّ منهما، لكن بينما كنت مستمرا في الذبول والوهن في سانت فينسنت طوال الأسابيع القليلة التالية، لم أمت بعد، لكنني مع ذلك لست حيا فعلا. تستمر جريس في زيارتها لشقة تروس، وشيئا فشيئا تقع في حبه مرة ثانية. إنها تحب رجلين الآن، وحتى بعدما أتحدى خبرة الأطباء وأبدأ في التعافي بمعجزة، تستمر في حبها لي ولتروس. وعندما أترك المستشفى في شهر مايو، أدرك فقط. بصعوبة شديدة. من أنا. لا ألاحظ أمورا، أترنح في غيبوبة نصفية، ولأن الحبة الخامسة هي جزء من نظامي الدوائي اليومي خلال الأشهر الثلاثة الأولى، فأنا في هيئة لا تسمح لي بأداء واجباتي الزوجية. جريس جيدة بالنسبة إلي. إنها نموذج للرحمة والصبر،

إنها دافئة وحنون، إنها مشـجعة، لكنني لا أسـتطيع أن أعطيها أي شـيء في المقابل. تواصل علاقتها مع تروس، تكره نفسـها لكذبها عليّ، تكره نفسها لعيشـها حياة مزدوجة، وكلما أتقدم في شفائي، تصبـح معاناتها أكثـر هولا. في وقت مبكر من أغسـطس، يحدث شـيئان يمنعان زواجنا من الانهيار والتحول إلـى أنقاض. يحدثان بتتابع سـريع، لكن ليـس لأيّ منهما صلة بالآخـر. وجدت جريس الشـجاعة للانفصال عن جون، وتوقفت عن تناول الحبة الخامسة. يعود نصفي الأسـفل إلى الحياة مرة ثانية، ولأول مرة منذ أن تركت المستشـفى، لم تعد جريس تنام في فراش منفصل. انقشعت غمائم السـماء، ولأنني لا أعرف شيئا عن كل خدع الأشهر السابقة، فإنني سـعيد في جهل وحبور، ديّوث سابق يعشق زوجته ويهيم بها ويبقي على صداقته مع الرجل الذي تقريبا سرقها منه.

يجب أن تكون هذه هي نهاية القصة، لكنها ليسـت كذلك. يتلو هذا نتيجة لشـهر من التناغم، أن تبقي جريس مسـتقرة معي مرة ثانية، وبالضبط عندما يبدو أن مشكلاتنا في سبيلها إلى الانتهاء، تندلـع عاصفة أخرى. تقـع الكارثة في اليوم قيـد التحدث عنه، الثامن عشر من سبتمبر ١٩٨٢، بعد أن تمر ساعة أو ساعتان على اكتشـافي للدفتر الأزرق في محل تشـانج، ربما في اللحظة عينها التـي أجلس فيها إلى مكتبي وأكتب فـي الدفتر الأزرق لأول مرة. في السابع والعشـرين، أفتح الدفتر الأزرق لآخر مرة وأسجل هذه التأملات بجهد وعناء لفهم أحداث الأيام التسـعة الماضية. سـواء كانت هذه التخمينات سليمة أم لا، سواء أكان من الممكن تحقـقها أم لا، تسـتمر القصة عندما تذهب جريس إلى الطبيب وتكتشف أنها حامل. أخبار عظيمة، ربما، لكنها ليست كذلك إن لم تكـن تعـرف

مـــن الأب. تظـــل تراجــع التـــواريـــخ فـــــــي رأسـها، لكــن لا يمكنها التأكد إن كان الطفل لي أم لجون. تؤجل إخباري بالأمر قدر الإمكان، لكنها تتعذب، تشعر كما لو أن آثامها قد عادت لتطاردها، تشـــعر كما لو أنها تنال العقوبة التي تســـتحقها. لهذا السبب تنهار في الســـيارة الأجرة في ليلة الثامن عشر وتهاجمني عندما أستعيد ذكرياتي عن الفريق الأزرق. ليســـت هنـــاك رفقة طيبة، تقول، لأن حتى أفضل الناس يقومون بعمل أشـــياء ســـيئة. لهذا السبب تأخذ في الحديث عن الثقة والنجاة من الأوقات العصيبة، لهذا الســـبب تناشـــدني أن أســـتمر في حبها. ولذلك، عندما تخبرني أخيرا عن الطفـــل، تتحدث على الفور عن القيـــام بالإجهاض. لم يكن للأمر علاقة بافتقارنا إلى المال - إنه خاص بعدم المعرفة. تدمرها تقريبا فكرة عدم المعرفة. لا ترغب في إنجاب الطفل الأول بهذه الطريقة، لكنهـــا لا تقوى على إخباري بالحقيقة، ولأنني لســـت على بينة من أمـــري أهاجمها وأحدثها عن الاحتفاظ بالطفـــل. وإذا كان لي أن أفعل شـــيئا صائبا، فهو أن أتراجع في الصباح التالي وأخبرها أن القرار لها. للمرة الأولى خلال أيام، تبدأ تشـــعر بأن هناك إمكانية للحرية. تهرب لتكـــون وحيدة، تخاف الحياة من دوني عندما تبقى بالخـــارج طوال الليل، لكن عندما تعود في صباح اليوم التالي تبدو أكثر هدوءا، وأكثر قدرة على التفكير في وضوح، وأقل خوفا. فقط عدة ساعات إضافية يستغرقها اكتشاف ما تريد القيام به، ثم تترك لي تلك الرســـالة غير العادية على جهاز الـــرد التلقائي. تقرر أنها مدينة لي بإشـــارة إخلاص. إنها تمنّي نفســـها بأن الطفل ملك لي وتضع شـــكوكها وراء ظهرها. إنهـــا قفزة يقين نقي، وأنا الآن أدرك مقدار الشجاعة التي اســـتجمعتها للوصول إلى ذلك القرار. تريد

أن تبقـــى زوجة لـي. مرحلة تروس قد انتهــت، ومادامت راغبة في أن تبقـــى زوجة لي، فلن أنطق لها أبدا بكلمة عن هذه القصة التي أكتبها الآن مباشــرة فــي الدفتر الأزرق. إننـــي لا أعرف إن كانت حقيقة أم خيــالا، لكنني في النهاية لن أهتم بهذا. مادامت جريس تريدني، فإن الماضي لا أهمية له.

كان هذا هو ما توقفت عنده. وضعت الغطاء على قلمي، ونهضت عــن مكتبي، وحملــت ألبوم الصور عائدا إلى حجرة المعيشـــة. كان الوقـــت لا يزال مبكــرا - الواحدة، أو ربما الواحـــدة والنصف بعد الظهر. أعددت بعض الغداء لنفسي في المطبخ، وعندما انتهيت من تناول ساندويتشي، عدت إلى حجرة مكتبي بكيس قمامة بلاستيكي صغير. وشــيئا فشــيئا، انتزعت صفحـــات الدفتـــر الأزرق وقمت بتمزيقهـــا إلى قطع صغيرة. فلتكرافت وبوين، الحديث الحماســـي المنمق عن الطفل الميت في برونكس، نســـخة مسلســـلي التافه عن حيـــاة جريس العاطفية - كل شـــيء ألقيت به في كيـــس القمامة. بعـــد توقف قصير، قررت تمزيق الصفحـــات البيضاء ثم دفعت بها أيضا إلى داخل الكيس. أغلقت الكيس بإحكام بعقدتين مزدوجتين، وبعـــد دقائق قليلة حملت الحزمة إلى أســـفل عندما خرجت للقيام بتمشـــيتي. اتجهت إلى كورت ستريت، وواصلت المشي حتى بعد أن اجتزت محل تشـــانج الفارغ والمغلق بعدة شـــوارع، ثم، وليس لسبب آخـــر إلا أنني كنت بعيدا عن البيت، أســـقطت الكيس في صندوق مهمـــلات على الناصية، ودفنته تحت مجموعـــة من الزهور الذابلة وصفحات ساخرة من الديلي نيوز.

أخبرني تروس، في وقت مبكر من صداقتنا، عن كاتب فرنســـي كـــان على معرفـــة به عنـــدما كان في باريـــس أوائل الخمســـينيات.

لا يمكنني تذكر اسمه، لكن جون قال إنه قد نشر روايتين ومجموعة قصص قصيرة وكان يعتبر واحدا من ألمع النجوم بين الأجيال الشابة. كتب أيضا بعض الشعر، وقبل وقت ليس بالطويل من عودة جون إلى أمريكا في عام ١٩٥٨ (عاش في باريس ست سنوات)، نشر هذا الكاتب. الذي يعرفه. ديوانا عبارة عن قصيدة سردية دارت حول طفل صغير يموت غرقا. وبعد شهر من نشر الكتاب، ذهب الشاعر وأسرته في إجازة إلى شاطئ نورماندي، وفي آخر يوم في رحلتهم خاضت ابنته البالغة من العمر خمس سنوات في مياه القنال الإنجليزي المتلاطمة وغرقت. كان الكاتب رجلا عقلانيا، قال جون، رجلا معروفا ببعد نظره وتوقد ذهنه، لكنه لام القصيدة على موت ابنته. وفي غمرة ضياعه في الحزن، أقنع نفسه بأن الكلمات التي كتبها عن حادثة الغرق التي تخيلها قد تسببت في غرق حقيقي، وأن مأساة من صنع الخيال قد حرّضت على إثارة مأساة حقيقية في العالم الواقعي. وبسبب ذلك، أخذ هذا الكاتب الموهوب على نحو ممتاز، هذا الرجل الذي ولد لتأليف الكتب، عهدا على نفسه ألاّ يكتب أبدا. يمكن للكلمات أن تقتل، هذا ما اكتشفه. الكلمات قد تغيّر الواقع، ولذلك فقد كانت شديدة الخطورة عندما تكون موضع ثقة رجل أحبها دون سواها. عندما أخبرني جون بالقصة، كانت الابنة قد ماتت منذ واحد وعشرين سنة، ومع ذلك كان لا يزال على وعده. وقد حوله هذا الصمت، في الحلقات الأدبية الفرنسية، إلى شخصية أسطورية. كان يحتل مكانة عالية جدا احتراما لمعاناته، ويشفق عليه كل من كان يعرفه، وينظر إليه برهبة.

تحدثت وجون عن هذه القصة لفترة من الوقت، وأتذكر أنني كنت متمسكا تماما باستبعاد قرار الكاتب لأنه خاطئ، ولأنه قراءة

مشـــوهة للعالم. لم تكن هناك علاقة بين الخـيال، والواقـع، قلت، ولا يوجد سبب ونتيجة بين الكلمات المكتوبة في قصيدة وبين أحداث حياتنــا. ربما بدا الأمر بهذه الطريقة بالنسـبة إلى الكاتب، لكن ما حدث لــه ليس أكثر من مصادفة بشـعة، مظهر من مظاهر الحظ السـيئ في أوقح أشكاله وآكثرها سـفورا. لم يكن ذلك يعني أنني ألومه على ما شـعر بــه، لكن على الرغم مــن التعاطف مع الرجل لخسارته الفظيعة، فقد رأيت صمته رفضا لقبول سلطة العشوائية فــي الوجود، والقوى العارضة التي لا يمكن أن نتوقعها والتي تصوغ أقدارنا، وقلت لتروس إن اعتقادي أنه كان يعاقب نفسه بلا سبب.

كان نقاشــا لطيفا عقلانيا إنســانيا، دفاعا عن البراجماتية أو التفكير العـملي والعلـم ضـد ظـلام التفـكير البدائي السـحـري. ما أدهشــني هو تبني تروس لوجهة النظر المعاكسة. لم أكن متأكدا إن كان يسحب رجلي أو يحاول ببساطة أن يلعب معي لعبة مخادعة، لكنه قال إن قرار الكاتب كان له معنى رائع بالنسبة إليه، وإنه معجب بصديقــه لأنه ظل محافظا علــى وعده. «الأفــكار حقيقية»، قال، «الكلمــات حقيقية. وكل ما هو بشــري حقيقي، وفي بعض الأحيان نعرف أشياء قبل أن تحدث، حتى لو لم نكن مدركين لها. إننا نعيش في الحاضر، إلاّ أن المسـتقبل موجود داخلنــا في كل لحظة. ربما يكون هذا هو كل مناط الكتابة، يا سد. ليست الكتابة مجرد تسجيل لأحداث من الماضي، بل جعل أشياء تحدث في المستقبل».

بعد ثلاث سنوات تقريبا على محادثتنا أنا وتروس، مزقت الدفتر الأزرق وألقـيـت به في صنـدوق القمـامــة الموجـود في ناصـية ثيــرد بليس وكورت ســتريت في كارول جاردنز، فــي بروكلين. في الوقت نفسه، شعرت بأن ما فعلته هو الشـيء الصحيح، وبينما كنت

أمضي عائدا إلى شقتي بعد ظهر يوم ذلك الاثنين من شهر سبتمبر، بعد تسعة أيام من اليوم الذي أتحدث عنه، كنت مقتنعا تقريبا بأن حالات الإحباط والفشل التي كنت أعاني منها الأسبوع الفائت قد انتهت أخيرا. لكنها لم تنته. كانت القصة قد بدأت لتوها - عندئذ فقط بدأت القصة الحقيقية، بعد أن قمت بتدمير الدفتر الأزرق - وكل ما كتبته حتى الآن ما إلا هو مقدمة بسيطة للأهوال التي توشك أن تحل بي الآن. هل هناك رابط بين ما قبل وما بعد؟ لا أعرف. هل قتل الكاتب الفرنسي البائس طفلته بقصيدته، أم أن كلماته تنبأت فقط بموتها؟ لا أعرف. ما أعرفه اليوم هو أنني لن أجادل بعد الآن معارضا قراره. احترم الصمت الذي فرضه على نفسه، وأتفهم الاشمئزاز الذي لابد أنه كان يشعر به كلما فكر في الكتابة ثانية. بعد أكثر من عشرين سنة على الحقيقة، أصدق الآن أن تروس كان يقول الحق بشأنها. نعرف أحيانا أشياء قبل حدوثها، حتى قبل أن نعرف أننا نعرف بها. كنت أتخبط خلال تلك الأيام التسعة من شهر سبتمبر ١٩٨٢، كشخص محبوس داخل سحابة. حاولت كتابة قصة ولكن وصلت إلى طريق مسدود. حاولت بيع فكرة فيلم ورُفِضت. أضعت مخطوطة صديقي. تقريبا فقدت زوجتي، ورغم أنني أحببتها بحرارة، إلا إنني كنت رجلا ضائعا، رجلا مريضا، رجلا يجاهد كي يقف على قدميه من جديد، لكن تحت كل العثرات والحماقات التي اقترفتها ذلك الأسبوع، عرفت شيئا لم أكن على دراية بمعرفته. في لحظات بعينها خلال هذه الأيام، شعرت كما لو أن جسدي قد أصبح شفافا، غشاء مساميا بإمكان كل قوى العالم غير المرئية أن تعبر من خلاله، مجموعة من الشحنات الكهربائية المحمولة جوا والمنقولة بأفكار ومشاعر الآخرين. أشك في أن تلك

الحالة هي ما ساقت إليّ ميلاد لومويل فلاج، البطل الأعمى في ليلة التنبؤ، رجل حساس جدا للاهتزازات المحيطة به، لدرجة أنه كان يعرف ما الذي سيحدث قبل أن تقع الأحداث نفسها. لم أكن أعرف إلا أن كل فكرة أو خاطرة كانت تمر برأسي كانت توجهني إلى هذا الاتجاه. أطفال يولدون ميتين، فظائع المعتقلات الجماعية، اغتيالات الرؤساء، أزواج يختفون، ذهاب وإياب مستحيلان داخل الزمن. كان المستقبل داخلي بالفعل، وكنت أهيئ نفسي للكوارث التي كانت على وشك أن تحدث.

كنت قد رأيت تروس على الغداء يوم الأربعاء، لكن باستثناء المحادثتين التلفونيتين اللتين أجريناهما في وقت لاحق من ذلك الأسبوع، لم يكن لي معه أي اتصال آخر قبل أن أتخلص من الدفتر الأزرق في اليوم السابع والعشرين. تحدثنا عن جاكوب والمخطوطة الضائعة الخاصة بقصته القديمة، لكن هذا كان كل ما تحدثنا عنه، ولم تكن لديّ أي فكرة عما كان يفعله بنفسه خلال تلك الأيام، باستثناء الاستلقاء على الأريكة والاعتناء بساقه. لكن جهلي هذا لم يستمر بعد عام ١٩٩٤، عندما نشر جيمس جيليسبي «متاهة الأحلام: حياة جون تروس»، فعرفت أخيرا تفاصيل ما كان يفعله جون منذ اليوم الثاني والعشرين وحتى السابع والعشرين. وكتاب جيليسبي الضخم، الذي يقع في ستمائة صفحة، لا يركز على التحليل الأدبي ويعطي اهتماما أقل للسياق التاريخي لإنتاج جون، لكنه متكامل ودقيق جدا عندما يتعلق الأمر بحقائق متعلقة بالسيرة الذاتية، وإذا سلمنا بأنه قد قضى عشر سنوات في العمل على المشروع، وبدا أنه قد تحدث إلى كل شخص على قيد الحياة كان على معرفة بتروس (بما في ذلك أنا)، فإنه لا يكون لديّ أي سبب للشك في دقة تأريخه.

بعدما غادرت شـــقة تـــروس يوم الأربعاء، ظـــل يعمل حتى وقت الغداء، يقوم بتصحيحات وتعديلات طفيفة في نسخة روايته «المصير الغريـــب» لجيرالد فيوكس، التي في ما يبدو أنه قد انتهى منها قبل أيـــام من ابتداء الالتهاب الوريدي في مهاجمته. كان هذا هو الكتاب الـــذي شـــككت أنا في أن يكون قد انتهى مـــن كتابته، لكنني لم أكن موقنا من هذا أبدا: مخطوطة تقل بالضبط عن خمسمائة صفحة، يقول جيليســـبي إن تروس قد شـــرع فيها في أثناء الشهور الأخيرة التي قضاها في البرتغال، وهو ما يعني أنها قد استغرقت منه أكثر من أربع سنوات ليكملها. وهذا بعيد تماما عن الشائعة التي تتوقلت عن أن جون قد توقف عن الكتابة بعد وفاة تينا. ولا صحة للشـــائعة التي روجت مرة أن روائيا كبيرا قد ترك مهنته، وأنه كان يعيش على مجد إنجازاته السابقة ولم يعد لديه شيء أكثر ليقال.

ذلك المساء، اتصلت إليانور لتنقل أخبار العثور على جاكوب، وفي وقت مبكر مـــن الصباح التالي، الخميـــس، اتصل تروس بمحاميه، فرنســـيس دبليو. بيرد. ونادرا ما يذهب المحامون إلى البيوت، لكن بيرد كان وكيلا عن تروس لما يزيد على عشر سنوات، وعندما يقول عميل في مكانة تروس لمحاميه إنه ممدد على الأريكة وساقه مصابة وفـــي حاجة لرؤيته في مســـألة عاجلة في تمام الثانية، فســـيترك المحامي خططه الأخرى ويصل في الســـاعة المحددة للموعد، ومعه كل الأوراق والوثائـــق الضرورية، التي يكون قد ســـحبها من ملفات مكتبه قبل أن يتجه إلى وســـط البلد. عندما وصل بيرد إلى شـــقة بارو ســـتريت، عرض عليه جون شـــرابا، وبمجرد انتهاء الاثنين من احتســـاء الإســـكوتش والصودا، جلســـا يعملان على إعادة صياغة وصية تروس. كانت الوصية القديمة قد حُررت قبل أكثر من ســـبع

سنوات، ولم تعد تعبر عن رغبات تروس في ما يتعلق بنقل ممتلكاته. في أعقاب وفاة تينا، كان قد ذكر جاكوب كمستفيد ووريث وحيد له، وحدد أخاه جيلبرت للعمل كوصي حتى يصل الصبي إلى سن الخامسة والعشرين. والآن، بالمعنى البسيط لتمزيق كل نسخ هذه الوثيقة، يكون تروس قد حرم ابنه من الميراث أمام عيني محاميه. بعد ذلك كتب بيرد وصية جديدة ورث فيها جيلبرت كل ما امتلكه جون. كل النقد السائل، والأسهم والسندات، جميع الممتلكات العينية، وجميع عوائد حقوق النشر المستقبلية عن أعمال تروس الأدبية من تلك اللحظة فصاعدا سيرثها أخوه الأصغر. انتهيا في الخامسة والنصف. صافح جون بيرد، وشكره على مساعدته، وغادر المحامي الشقة ومعه ثلاث نسخ موقعة من الوصية الجديدة. بعد عشرين دقيقة، عاد جون لتصحيح روايته. قدمت له مدام دوماس العشاء في الثامنة، وفي التاسعة والنصف اتصلت إليانور ثانية، وأخبرته بأن جاكوب قد قُبل في برنامج مصحة سميثرز، وأنه موجود هناك منذ الرابعة من بعد ظهر ذلك اليوم.

يوم الجمعة كان اليوم الذي من المفترض أن يذهب فيه تروس لإجراء فحص على ساقه في مستشفى القديس فينسنت، لكنه أهمل النظر إلى مفكرته ونسي الذهاب إلى المستشفى. في غمرة الاضطراب المتعلق بموضوع جاكوب، تناسى عقله الموعد، وفي اللحظة عينها التي كان عليه أن يلتقي فيها بطبيبه (جرّاح أوعية دموية يدعى ويلارد دونمور)، كان معي على الهاتف، يتحدث عن الكراهية التي يشعر بها ابنه تجاه جريس على مدار حياته، ويطلب مني أن أنوب عنه في الذهاب إليه في سميثرز يوم السبت. وفقا لجيليسبي، اتصل الطبيب بشقة تروس في الحادية

عشرة والنصف ليسأل عن عدم حضور تروس إلى المستشفى. وعندما شرح له تروس أنه كانت هناك طوارئ عائلية، ألقى عليه دونمور محاضرة غاضبة عن أهمية الفحص، وأخبر مريضه بأن مثل هذا الموقف المتعالي تجاه صحته كان خاليا من المسؤولية، ومن الممكن أن يؤدي إلى عواقب وخيمة. سأله تروس إن كان بالإمكان الذهاب بعد ظهر ذلك اليوم، لكن دونمور قال إن الوقت كان متأخرا وأن عليهما تأجيله إلى يوم الإثنين في الرابعة تماما. وحثّ تروس على تذكر أخذ دوائه، وعلى أن يبقى ساكنا قدر الإمكان طوال عطلة نهاية الأسبوع. عندما وصلت مدام دوماس في الواحدة، وجدت جون في مكانه المعتاد فوق الأريكة، يصحح صفحات كتابه.

يوم السبت، بينما كنت أزور جاكوب في سيمترز وأتعارك على الدفتر الأحمر في محل تشانج، كان تروس يواصل العمل في روايته. أشارت تسجيلات تلفونه إلى أنه أيضا قد أجرى ثلاث مكالمات تلفونية طويلة: واحدة لإليانور في إيست هامبتون، والثانية لأخيه جيلبرت في آن آربور (حيث يعمل كأستاذ لعلم الموسيقى في جامعة ميتشغان)، والثالثة لوكيلته الأدبية، أليس لازار، في بيتها المخصص لقضاء عطلات نهاية الأسبوع بضاحية في بيركشير. أبلغها أنه كان يتقدم في عمله في الكتاب بشكل جيد، وأنه لو لم تصادفه أي مشكلات غير متوقعة خلال الأيام القادمة، فبإمكانها أن تتوقع منه الحصول على المخطوطة منتهية بحلول نهاية الأسبوع.

صباح الأحد، اتصلت به من لاندولفي وأعطيته خلاصة زيارتي القصيرة إلى جاكوب. ثم أدليت باعترافي عن إضاعة مخطوطته، فضحك جون. إن لم أكن مخطئا، كانت هذه ضحكة ارتياح وليست

ضحكة مرح. من الصعب أن تعرف هذا بشـــكل مؤكد، لكنني أعتقد أن تـــروس قـــد أعطاني تلك القصة لأســـباب غاية فـــي التعقيد - والتحدث عـــن إمدادها لي بموضوع فيلم لم يكـــن أكثر من ذريعة، دافع ثانوي في أفضل الأحوال. كانت القصة عن المكائد الوحشـــية لمؤامرة سياسية، لكنها كانت أيضا عن المثلث الزواجي (زوجة تهرب مـــع أعز أصدقاء زوجها)، وإذا كانت هنـــاك أي حقيقة للتخمينات التـــي دونتها في الدفتر في الســـابع والعشـــرين، عندئذ ربما يكون جون قد أعطاني القصـــة للتعليق على حالة زواجي - بطريقة غير مباشرة، في صياغات رمزية واستعارات أدبية متفاوتة بشكل دقيق. ليـــس مهما أن القصة قد كتبت في عام ١٩٥٢، الســـنة التي ولدت فيها جريس. «إمبراطورية العظام» كانت هاجســـا ســـابقا لأشـــياء قادمة. كانت قد وضعت في صنـــدوق وتركت لتتطور في الحاضنة لمدة ثلاثين ســـنة، وشيئا فشـــيئا تطورت إلى قصة عن امرأة أحبها كلانا - زوجتي، زوجتي الشجاعة المكافحة.

أقول إنـــه ضحك بارتياح لأنني أعتقد أنه أســـف على ما فعله. عندما كنا نتنـــاول الغداء يوم الأربعاء، تأثـــر بانفعال كبير للأخبار المتعلقة بحمل جريس، وبعد ذلك على الفور وجدنا أنفسنا على وشك شجار كريه. مرّت الأزمة، لكنني أتساءل الآن إذا لم يكن تروس أكثر غضبا جدا تجاهي بحيث يكشـــف مكنونات نفســـه. كان صديقي، لكن كان من المرجح أيضا أن يســـتاء مني لاســـتردادي جريس. كان قـــرار قطع علاقتهما قرارها وحدها، وبعدما حملت الآن، فليســـت هنـــاك فرصة لأن يكون معهـــا أبدا مرة ثانية. لو كان هذا صحيحا، فإن إعطاءه القصة لي كان يمكن أن يخدم كشكل غامض وخفي من الانتقام، نوع فظ من كســـب ســـباق - إن جاز التعبير، أنت لا تعرف

شيئا يا سدني. لم تعرف أي شيء أبدا، لكنني كنت محيطا بالأمر إلى حد كبير أكثر منك، ربما. من المستحيل إثبات أي شيء من هذا، لكن لو كنت أسأت فهم أفعاله، فكيف إذن نفسر حقيقة أن جون لم يرسل لي القصة أبدا؟ فقد وعد بأن ترسل لي مدام دوماس نسخة كربونية من المخطوطة بالبريد، لكن الأمر انتهى به إلى أن يرســل لي شــيئا آخر بدلا مــن المخطوطة، وتلقيت أنا هذا التصرف ليس فقط كعمل يدل على الكــرم الزائد، بل كعمل يدل على النــدم أيضا. وبفقداني للمظــروف في مترو الأنفــاق، فقد وفرت عليه إحراج نوبة اســتياء مــن جرح كرامته حينها. كان آســفا لتركه عواطفه تفر منه، وبعد أن أخرجته بلاهتي مــن تلك المحنة، فقد كان مصمما على أن يعوضني ببادرة مدهشة وغير ضرورية بالمرة من الطيبة والمودة وحسن النية.

كنا قد تحدثنا يوم الأحد في الفترة ما بين العاشرة والنصف والحادية عشــرة تماما. وعند الظهر وصلت مدام دوماس، وبعد عشر دقائق من وصولها أعطاها تروس بطاقة الإيه تي إم الخاصة به، وأمرها بالذهاب إلى فرع ســيتي بنك في المنطقة المجاورة بالقرب من ميدان شــريدان وتحويل أربعين ألف دولار من حســاب التوفير الخاص به إلى الحساب الجاري. يخبرنا جيليســبي أنه قضى بقية اليوم في العمل على روايته، وفي ذلك المســاء، بعدما قدمت له مدام دوماس العشــاء، سحب نفسه إلى خــارج الأريكة وعرج إلى حجرة مكتبه، حيــث جلس إلى منضدته وحرّر لي شــيكا بســتة وثلاثين ألف دولار - بالضبــط مبلغ فواتيري الطبية غير المدفوعة. ثم كتب لي الخطاب القصير التالي:

عزيزي سد،

أعــرف أنني وعدتك بنســخة كربونية من المخطوطــة، لكن ما الغرض من هذا؟ كانت الفكرة كلها أن تكســب بعض المال، لذا فقد

اختصـــرت لك الطريق وحرّرت لك شـــيكا وضعتـــه في ظرف. إنه هدية، خالصة. من دون شـــروط أو قيود، ومن دون حاجة إلى إعادة المـــال إليّ مرة ثانية. أعـــرف أنك مفلس، لذلك من فضلك لا تجعل الأمر يصل بك إلى المكابرة وتقوم بتمزيق الشـــيك. أنفقه. عش به، قف على قدميك مرة ثانية. لا أريدك أن تضطر إلى أن تهدر وقتك في القلق والغيظ في ما يتعلق بالأفلام. التصق بالكتب. فمستقبلك في ذلك، وأنا أتوقع منك أشياء عظيمة.

أشـــكرك على متاعب زيارة الطفل المزعج امس. إنني أقدر هذا كثيرا - بل، كثيرا جدا، نظرا لأنني أعرف كم يكون هذا الأمر كريها بالنسبة إليك.

هل سـيكون هناك عشاء السـبت المقبل؟ لا أسـتطيع أن أقول حتـى الآن، نظرا إلى أن هذا كله يتوقف على هذه السـاق اللعينة. حقيقـة غريبة: كانت الجلطة قد حدثت مـن جراء اختياري لما هو أرخص. قبل عشـرة أيام من بداية الألم، قمت برحلة سـريعة إلى باريس - ذهابا وإيابا في سـت وثلاثين ساعة - للتحدث في جنازة صديقي القديم ومترجمي، فيليب جوبرت. سافرت بالحافلة، نمت ذهابا وإيابا، ويقول الطبيب إن هذا هو السبب في الألم، فقد ظللت محشورا طوال الطريق في تلك المقاعد الصغيرة. من الآن فصاعدا، سأسـافر فقط في الدرجة الأولى. قبّل لـي جريس، ولا تتخلَّ عن فيلتكرافت. كل ما تحتاجه هو دفتر مختلف، وسـتبدأ الكلمات في التدفق مرة ثانية. (ج. ت)

وضع الخطاب والشـيك فـي مظروف وأحكـم إغلاقه ثم كتب اسـمي وعنواني بحروف كبيـرة على واجهته، لكن لـم تكن هناك طوابـع بريد كافية في البيت، وعندما غادرت مدام دوماس شـارع

بارو في تمام العاشـــرة للعودة إلى شــقتها فـــي برونكس، أعطاها تروس ورقة بنكنوت بقيمة عشـــرين دولارا وطلب منها أن تمرّ على مكتـــب البريد في الصباح لشـــراء كمية جديدة مـــن طوابع الدرجة الأولـــى. تولت المدام دوماس الكفؤة الاهتمام بالمهمة، وعندما جاءت إلى العمل يوم الاثنين في الحادية عشـــرة صباحا، كان بإمكان جون أخيـــرا أن يضع الطابع على الرســـالة. قدمت لـــه وجبة خفيفة في تمام الواحدة. بعـــد الوجبة، واصل جون تصحيـــح روايته، وعندما غادرت مدام دوماس الشقة في الثانية والنصف للتسوق من محلات البقالـــة، أعطاها تروس الخطاب وطلب منها أن ترســـله نيابة عنه وهي فـــي الخارج. وعدته هي بأن تعود فـــي الثالثة والنصف، وهو التوقيت الذي ستســـاعده فيه على نزول السلم وركوب سيارة أجرة إلـــى المدينة كان قد طلبها لتوصله إلى موعـــده مع الدكتور دونمور في المستشـــفى. بعد مغادرة المدام دوماس، يخبرنا جيليســـبي بأنه بإمكاننـــا التأكد من شـــيء واحد فقط. اتصلـــت إليانور في الثانية وخمس وأربعين دقيقة وأبلغت تروس أن جاكوب قد اختفى. تســـلل إلى خارج ســـميثرز في وقت ما في منتصف الليل، ولم يســـمع أحد شيئا عنه منذ ذلك الحين. يستشهد جيليبسي بقول إليانور أن جون أصبـــح «منزعجا جدا» وظل يتحدث معها لخمس عشـــرة دقيقة أو عشـــرين. «إنه بمفرده الآن»، قال جون فـــي النهاية. «لم يعد هناك شيء بإمكاننا أن نفعله له بعد الآن».

كانت تلك هي آخر كلمات جون. ليست لدينا أي فكرة عما حدث له بعدما أغلـــق التلفون، لكن عندما عادت مدام دوماس في الثالثة والنصف، وجدته ممددا على الأرضية عند مؤخرة سريره. يبدو أن هـــذا يقترح أنه قد دخل إلى حجرة النوم لتبديل ملابســـه للذهاب

إلى موعده مع الطبيب، لكن ذلك فقط مجرد تخمين. كل ما نعرفه على وجه اليقين أنه قد مات في الفترة ما بين الثالثة تماما والثالثة والنصف في السابع والعشرين من سبتمبر ١٩٨٢، بعد أقل من ساعتين من إلقائي لبقايا الدفتر الأزرق في صندوق القمامة عند ناصية شارع في جنوب بروكلين.

كان السبب المبدئي أو الأولي للوفاة هو افتراض إصابته بأزمة قلبية، لكن وفقا للتحقيق الإضافي للطبيب الشرعي فإن ذلك التشخيص تغيّر إلى جلطة رئوية. الجلطة الدموية التي كانت موجودة في ساق جون خلال الأسبوعين الماضيين أفلتت، وانجرفت صاعدة خلال جهازه الدوري، ووجدت هدفها. انفجرت القنبلة الصغيرة أخيرا بداخله، ومات صديقي في السادسة والخمسين من عمره. بسرعة شديدة. بسرعة شديدة وقبل ثلاثين عاما. بسرعة شديدة بحيث لم أشكره على إرسال المال لي ومحاولته إنقاذ حياتي.

أذيع خبر وفاة جون في نشرة متأخرة في نهاية برامج الأخبار المحلية في الساعة السادسة. في الظروف العادية، كنا نفتح أنا وجريس التلفزيون بينما نقوم بتجهيز المائدة وإعداد عشائنا، لكن لم يعد لدينا تلفزيون، لذلك قضينا المساء من دون أن نعرف أن جون كان ممددا في مشرحة المدينة، ومن دون معرفة أن أخاه جيلبرت كان بالفعل على متن طائرة قادمة إلى نيويورك من ديترويت، ومن دون معرفة أن جاكوب قد صار حرا. بعد العشاء، دخلنا إلى حجرة المعيشة وتمددنا معا على الأريكة، نتحدث عن موعد جريس القادم مع الدكتورة فيتيل، طبيبة النساء والتوليد التي زكتها بيتي ستولوويتز، التي رزقت مولودها الأول في شهر مارس. كان مخططا للزيارة أن تكون يوم الجمعة بعد الظهر، وقلت

لجريس إنني أرغب في أن أكون معها هناك، وإنني سأحضر إليها في المكتب في ويست نينث ستريت في تمام الرابعة. بينما كنا نتناول هذه الترتيبات، تذكرت جريس فجأة أن «بيتي» قد أعطتها كتابا عن الحمل ذلك الصباح - إحدى هذه الخلاصات الكبيرة بورق غير سميك والمزودة بالرسوم البيانية والصور التوضيحية - فوثبت بسرعة عن الأريكة ودخلت إلى حجرة النوم لإخراجه من حقيبة كتفها. في أثناء ذهابها، طرق شخص ما الباب. افترضت أنه كان أحد جيراننا، أتى لاستعارة كشاف ضوئي أو مشط كبريت. لم يكن من الممكن أن يكون شخصا آخر، نظرا إلى أن الباب الرئيسي للمبنى كان يغلق بشكل دائم، وأنه يجب على الشخص الذي ليس بحوزته مفتاح أن يضغط على جرس كهربائي ويعلن عن نفسه عبر نظام الاتصال الداخلي (الإنتركم) قبل أن يتمكن من الدخول. أتذكر أنني لم أكن أنتعل شيئا، وعندما نهضت عن الأريكة وذهبت لأفتح الباب، التقط باطن قدمي اليسرى شظية صغيرة. أتذكر أيضا أنني نظرت إلى ساعتي ورأيت أنها كانت الثامنة والنصف. لم أزعج نفسي بالسؤال عن الطارق. فتحت الباب ببساطة، وبمجرد أن فعلت هذا، أصبح العالم عالما مختلفا. لا أعرف طريقة أخرى لوصف هذا. فتحت الباب، والشيء الذي كان يعتمل في داخلي على مدار الأيام السابقة صار فجأة حقيقة، كان المستقبل واقفا أمامي.

كان جاكوب، صبغ شعره باللون الأسود، وكان يرتدي معطفا طويلا أسود تدلى حتى كاحليه. يداه مدسوستان في جيبيه، يثب بلا صبر على عقبيه، بدا مثل حانوتي له علاقة بالمستقبل جاء ليحمل جثة بعيدا. المهرج ذو الرأس الأخضر الذي تحدثت إليه يوم السبت

كان منزعجا تماما، لكن هذا المخلوق الجديد أخافني، ولم أرغب في إدخاله. «يجب عليك أن تساعدني»، قال. «أنا في مشكلة حقيقية، يا سد، وليس هناك أحد آخر غيرك ألجأ إليه». قبل أن أطلب منه الانصراف، دفع بنفسه إلى داخل الشقة وأغلق الباب خلفه.

«ارجع إلى سميثرز»، قلت. «ليس هناك ما يمكنني عمله لك».

«لا يمكنني الرجوع. اكتشفا أنني كنت هناك، لو رجعت إلى ذلك المكان، فأنا ميت».

«من هما؟ عمّن تتكلم؟».

«هذان الرجلان، ريتشي وفيل يعتقدان أنني مدين لهم بالمال. لو لم أحصل لهما على خمسة آلاف دولار، فسوف يقتلانني».

«أنا لا أصدقك، يا جاكوب».

«إنهما سبب دخولي إلى سميثرز. لم يكن هذا بسبب والدتي. كان ذهابي بغرض الاختباء منهما».

«مازلت لا أستطيع تصديقك. لكن حتى لو صدقتك، فلن أقوى على مساعدتك. فأنا لا أمتلك خمسة آلاف دولار. ليس لديّ حتى خمسة دولارات. اتصل بأمك، لو خذلتك اتصل بأبيك. لكن أخرجنا أنا وجريس من هذا الموضوع».

سمعت صوت مياه المرحاض عبر الصالة، وهي إشارة إلى أن جريس ستعود إلى الحجرة في أي لحظة. مشتتا بسبب الضوضاء، أدار جاكوب رأسه باتجاه تلك المنطقة من الشقة، وعندما رآها تدخل إلى حجرة المعيشة حاملة كتاب الحمل في يدها، افتعل ابتسامة عريضة. «مرحبا يا جريس»، قال. «لم نلتق منذ فترة طويلة».

توقفت جريس في مكانها. «ما الذي يفعله هنا؟»، قالت، موجهة كلماتها إليّ. بدت مذهولة، وتحدثت بنوع من الغضب المكبوت،

رافضة إعادة عينيها في اتجاه جاكوب.

«يريد اقتراض نقود»، قلت.

«كيف حالك يا جريس»، قال جاكوب، بنبرة صوت متكدّرة، وساخرة في الوقت نفسه. «ألن تقولي حتى مرحبا لي؟ أقصد، لن يكلفك الأمر شيئا أن تكوني مهذبة، أليس كذلك؟».

بينما كنت واقفا هناك أراقبهما، لم أتمكن من التوقف عن التفكير في الصورة الفوتوغرافية التي تمزقت وتركت على الأريكة عقب الاقتحام. كان الإطار قد سرق، لكن شخصا واحدا فقط لديه ضغينة قديمة وعميقة ضد الشخص الذي في الصورة كان بوسعه أن يقدم على تمزيقها إلى قطع صغيرة. اللص المحترف كان سيتركها سليمة. لكن جاكوب لم يكن محترفا، كان طفلا صغيرا مشوشا وشديد الاهتياج بسبب المخدرات، ومستمرا في طريقه لكي يلحق بنا الضرر، أو ليلحق الضرر بأبيه عن طريق الذهاب إلى اثنين من أقرب أصدقائه.

«ذلك كاف»، قلت له. «إنها لا تريد التحدث معك ولا أنا أيضا. أنت الشخص الذي سرقنا في الأسبوع الماضي. تسللت إلى هنا عبر نافذة المطبخ وهشمت المكان، ثم سرقت كل ما هو ذو قيمة أمكنك العثور عليه. هل تريدني أن ألتقط سماعة التليفون وأتصل بالشرطة، أم تغادر؟ هذان خياران لك. ثق بما أقول، سوف أجري هذه المكالمة بمتعة كبيرة. سأوجه لك تهما كثيرة، وسينتهي الأمر بك إلى الذهاب إلى السجن».

كنت أتوقع منه أن ينكر الاتهام، أن يتظاهر بأنه أهين بسبب تجرّئي على التفكير في شيء كهذا عنه، لكن الصبي كان أكثر مهارة من هذا بكثير. أطلق بشكل جميل تنهيدة ندم متدرجة، ثم جلس

على الكرسي، وهزّ رأسه ببطء يمنة ويسرة، كان يتصرف كما لو أن سلوكه قد صدمه. كان شبيها بأداء المشمئز من نفسه الذي ذكره لي يوم السبت عندما تفاخر بمواهبه المسرحية. «أنا آسف»، قال. «لكن ما قلته لك عن ريتشي وفيل صحيح. إنهما في أثري، وإذا لم أعطهما الخمسة آلاف دولار، فسوف يطلقان الرصاص على رأسي. جئت إلى هنا في المرة السابقة معتقدا أنني سأستعير دفتر الشيكات الخاص بك، لكنني لم أتمكن من العثور عليه. لذلك أخذت بعض الأشياء بدلا منه. كانت حركة غبية. أنا آسف فعلا. فالأشياء لم تكن ذات قيمة كبيرة تستحق ما فعلته، وكان من المفروض ألاّ أفعل هذا. إذا أردت، سوف أعيدها إليك كلها غدا. مازلت أحتفظ بها في شقتي، وأول ما سأفعله في الصباح سيكون إعادتها كلها».

«هراء»، قالت جريس. «لقد بعت بالفعل ما استطعت بيعه، ثم تخلصت من البقية. لا تلعب دور الولد الصغير الآسف يا جاكوب. فقد كبرت الآن على هذا الدور المبتذل بما فيه الكفاية. لقد سرقتنا الأسبوع الماضي، وتعود الآن طلبا للمزيد».

«هذان الرجلان مستعدان للقضاء على حياتي». قال، « وهما بحاجة إلى أموالهما غدا. أعرف أن كليكما ليست لديه أموال، لكن والدك، القاضي الفيدرالي، لن يخذلك إذا طلبت منه قرضا. أقصد، ما الذي تعنيه خمسة آلاف دولار لعجوز شهم من الجنوب؟».

«انس هذا»، قلت. «لا سبيل إلى أن نجر بيل تيبيتس إلى هذا».

«أخرجه من هنا، يا سد»، قالت لي جريس، وصوتها محمل بالغضب. «لا يمكنني أن أتحمل أكثر من هذا».

«اعتقدت أننا عائلة»، أجاب جاكوب، وهو يحدق بقوة إلى جريس، مجبرا إياها تقريبا على النظر إليه. كان قد بدأ في التجهم، لكن

بطريقة خبيثة بشـــكل غريب، كما لو أنه يحاول السخرية منها، وأن يجعل من كراهيتها له ميزة لصالحه. «على الرغم من كل شيء، أنت بمنزلة الأم البديلة غير الرســمية بالنسبة إلي، ألست كذلك؟ على الأقل اعتدت أن تكوني كذلك. ألا يساوي هذا شيئا؟».

في ذلك الوقت، كانـــت جريس تتحرك بالفعل عبر الحجرة، في طريقها إلى المطبخ. «سأتصل بالشرطة»، قالت. «إذا لم تفعل هذا، يا سد، فسوف أتصل. أريد أن تخرج كتلة القذارة هذه من هنا». لكنها لكـــي تتمكن من الوصول إلى التليفون الموجود في المطبخ، كان يجب عليها أن تمر أمام الكرسي الذي كان يجلس عليه جاكوب، وقبل أن تتمكن من الوصول إلى هناك، كان قد نهض بالفعل وأعاق طريقها. حتى ذلك الحـــين، كانت المواجهة بالكامل من خلال الكلمات فقط. فنحـــن الثلاثة كنا نتحدث، وبغض النظر عن كم كانت هذه المحادثة كريهة، فلم أكن مســتعدا لأن تنفجر هـــذه الكلمات على هيئة عنف جسدي. كنت واقفا قرب الأريكة، على مسافة ملائمة، نحو ثمان أو عشـــر أقدام من الكرسي، وعندما حاولت جريس أن تنسل متجاوزة جاكوب، أمسك بذراعها وقال، «لا داعي للشرطة، يا غبية. والدك، القاضي، هو الشخص الوحيد الذي يجب أن تتصلي به لتطلبي منه المـــال». حاولت جريس التملص من قبضتـــه، وهي تثب مثل حيوان ثائر، لكن جاكوب كان أطول منها بخمس أو ســـت بوصات، وهو ما منحه تأثيرا أفضل وســـمح له بالانقضاض عليها من فوق. أسرعت نحوه، ببطء بســـبب عضلاتي المتألمة والشظية التي في قدمي، لكن قبـــل أن أتمكن من الوصول إلى هنـــاك، كان جاكوب قد أحكم يديه بالفعـــل على كتفيها، وكان يضربهـــا بعنف في الحائط. قفزت عليه من الخلف، محاولا لفّ ذراعيّ حول جذعه وجذبه بعيدا عنها، لكن

الولد الصغير كان قويا، أقوى بكثير مما كنت أتوقع، ومن دون حتى أن يزعج نفسه بالالتفاف إلى الوراء، سدد مرفقه بشكل مباشر إلى معدتـــي. أفقدتني الضربة قواي وطرحتنـــي أرضا، وقبل أن أتمكن من هجوم آخر عليه، كان يلكم جريس في فمها، ويركلها في بطنها بحذائـــه الجلدي الســميك. حاولت هي المقاومـــة، لكن في كل مرّة كانـــت تنهض فيها، كان يلكمها في وجههـــا، ويضربها في الحائط، ثم يلقـــي بها على الأرضية. كان الدم يتدفق مـــن أنفها، بينما كنت على اســتعداد لمهاجمته مرة ثانيـــة، لكنني كنت أعرف أنني ضعيف جدا لإحداث أيّ تأثير، وأنني شـديد الوهن، فلن أتمكن من إيقافه عن طريق قبضتيّ العاجزتين، المأسوف عليهما. كانت جريس تتأوه، وقد فقدت الوعي تقريبا في ذلك الوقت، وشـــعرت بأنه كان هناك خطر حقيقي لدرجة أنه ســيضربها حتى الموت. بدلا من أن أذهب إليه مباشرة، أسرعت إلى داخل المطبخ وسحبت سكينة تقطيع لحم كبيرة مـــن الدرج العلوي المجاور للحوض. «توقف عن هذا!» صحت فيـــه. «توقف عن هذا، يا جاكـــوب، وإلاّ ســـأقتلك!» لا أعتقد أنه سمعني في البداية. كان غارقا تماما في غضبه، كمقاتل فقد رشده وقد بدا أنه لم يعد يدرك ما كان يفعله بعد ذلك، لكن عندما تقدمت نحوه ومعي السكينة، لمحني بجانب عينيه، فأدار رأسه جهة اليسار، وعندما رآني هناك والســكينة مرفوعة فـــي يدي، توقف فجأة عن ضربها. كانت لعينيه نظرة وحشية فاقدة التركيز، وكان العرق ينزلق عن أنفه ويسقط على ذقنه الدقيقة المرتعشة. شعرت على نحو أكيد بأنه كان على وشك اللحاق بي بعد ذلك. ولم أكن أنا لأتردد في غرز الســكينة في جسمه، لكن عندما لمح جريس المشلولة الحركة تنزف، خفــض يديه إلى جنبيه وقال. «شــكرا جزيلا، يا ســد. إنني رجل

ميت الآن». ثم استدار وغادر الشقة، مختفيا في شوارع بروكلين قبل دقائق قليلة من توقف سيارات الشرطة وعربة الإسعاف أمام البيت.

فقدت جريس الطفل. فقد مزقت ضربات حذاء جاكوب ما بداخلها، وبمجرد أن بدأ النزيف كان الجنين الصغير قد انفصل عن جدار رحمها، ونزل إلى الخارج مع تيار متدفق من الدم المثير للشفقة. إجهاض تلقائي، كالمخاض عندما يأتي في أوانه الطبيعي، سقوط للحمل، حياة لم تكتب لها الولادة. نقلوها بسيارة الإسعاف عبر قناة جاوانس إلى مستشفى ميثوديست في بارك سلوب، وبينما كنت جالسا بجانبها في خلفية سيارة الإسعاف، محشورا بين أسطوانات الأوكسجين ومساعدين طبيين، ظللت أنظر إلى وجهها المسكين المهشم، غير قادر على أن أوقف نفسي عن الارتعاش، وقد تملكتني تشنجات متواصلة، ارتعش خلالها صدري والجزء السفلي بأكمله من جسمي. كان أنفها قد كسر، وكان الجانب الأيسر من وجهها مغطى بالكدمات، وكان جفنها الأيمن متورما جدا، وقد بدا كما لو أنها لن تتمكن من الرؤية بهذه العين مرة ثانية. في المستشفى، نقلوها على العربة لإجراء تصوير بأشعة إكس في الطابق الأرضي، ثم أخذوها إلى الطابق العلوي إلى حجرة العمليات، وظلت بها أكثر من ساعتين. لا أعرف كيف فعلت هذا، لكن بينما كنت أنتظر أن ينتهي الجراحون من عملهم، تمكنت من استجماع قواي فترة كافية فقط للاتصال بوالدي جريس في تشارلوتسفيل. كان هذا هو الوقت الذي اكتشفت فيه أن جون قد مات. ردت سالي تيبيتس على التليفون، وفي نهاية محادثتنا المنهكة والمطولة، أخبرتني أن جيلبرت قد اتصل في وقت سابق من ذلك المساء ناقلا الخبر. كانت هي

وبيل في صدمة بالفعـــل، والآن كنت أخبرهـا أن ابن جون قد حاول قتل ابنتهما. هـــل أصبح العالم مجنونا؟ ســـألت، ثم اختنق صوتها وبدأت تبكي. أعطت الســـماعة لزوجها، وعندمـــا بدأ بيل تيبيتس في التحدث، دخل في الموضوع مباشـــرة وســـألني السؤال الوحيد الذي يستحق الســـؤال: هل ســـتظل جريس على قيد الحياة؟ نعم، قلت، ســـتعيش. لم أكن على معرفة بهذا بعد، لكنني لم أكن مستعدا لإخباره بأن جريس كانت في حالة حرجة وقد لا تنجو منها. لم يكن لي أن أصادر فرصها بسبب تلفظي بكلمات خاطئة. إذا كان بإمكان الكلمات أن تقتل، فإن الواجب عليّ أن أحذر من لساني، وأتأكد من عدم التعبير عن إشـــارة شك واحدة أو أية فكرة سلبية. لم أعد من الموت لأشاهد زوجتي تموت. كان فقدان جون فظيعا بما يكفي، ولن أقوى على فقدان أي شـــخص آخر. ببســـاطة لم يكن هذا ليحدث. حتى لو لم تكن لي يد في الأمر، فلم أكن لأسمح لهذا بأن يحدث.

خلال الســـاعات الاثنتين والسبعين التي تلت، كنت جالسا بجوار ســـرير جريس، ولم أتزحزح عن مكاني. اغتسلت وحلقت ذقني في الحمّام الملحق. وتناولت وجباتي، بينما كنت أراقب السائل الصافي في أنبوب الجلوكوز وهو يقطر في وريد ذراعها، وعشـــت حتى تلك اللحظات النادرة عندما فتحت عينها غير المصابة وقالت لي كلمات قليلة. مع كثير من المســـكنات المنتشـــرة في دمها، بـــدا أن ما فعله جاكوب بها قد مُسِح من ذاكرتها، وبقي فقط وعي خفيف جدا بأنها كانت في مستشـــفى. ثلاث مرات أو أربع ســـألتني أين كانت، لكنها عندئذ كانت تنساق بعيدا وتتوه مرة ثانية، وتنسى على الفور ما قلته لها. كانت تئن كثيرا في أثناء نومها، تتأوه برفق كلما ارتطمت يدها بالضمـــادات التي في وجهها عن غير قصد، وبمجرد أن تســـتيقظ

والدموع في عينيها تسأل: «لماذا أتألم كثيرا جدا هكذا؟ ماذا دهاني؟ ما الذي حدث لي؟».

حضر أناس وذهبوا في أثناء تلك الأيام، لكن ليس لديّ عنهم أكثر من ذكريات شاحبة للغاية، ولا أستطيع تذكر محادثة واحدة أجريتها مع أحد منهم. حدث الهجوم ليلة الإثنين، وبحلول صباح الثلاثاء كان والدا جريس قد طارا بالفعل من فيرجينيا. وجاءت قريبتها للي بسيارتها من كونيتيكت بعد ظهر ذلك اليوم نفسه. أختاها الأصغر منها، دارسي وفلو، وصلتا في الصباح التالي. وحضرت بيتي ستولوويتز وجريج فيتزجيرالد. وجاءت ماري سكلار. وكذلك السيد كاراميلو وزوجته. تحدثت معهم، وكنت أترك الحجرة بين الحين والآخر، لكنني لا أقوى على تذكر شيء سوى الجلوس مع جريس. لفترة طويلة من يومي الثلاثاء والأربعاء، كانت جريس نصف واعية في حالة سبات، نائمة، تستيقظ بشكل متتابع لدقائق قليلة فقط، لكن بحلول مساء الأربعاء بدا أنها متماسكة بعض الشيء، واستعادت وعيها فترات أطول من الوقت. نامت من دون أنات أو تأوهات في تلك الليلة، وعندما استيقظت صباح الخميس، تعرفت عليّ أخيرا. أمسكت بيدها، وعندما تلامست راحتانا، تمتمت باسمي، ثم أعادته لنفسها أكثر من مرة، كما لو أن تلك الكلمة ذات المقطع الواحد كانت التعويذة التي من الممكن أن تحولها من شبح إلى كائن حي مرة ثانية.

«أنا في مستشفى، أليس كذلك؟» قالت.

«مستشفى ميثوديست في بارك سلوب»، أجبت. «وأنا جالس بجانبك، أمسك بيدك. إنه ليس حلما، يا جريس. إننا حقا هنا، وشيئا فشيئا سوف تتحسنين».

«أنا لم أمت؟».

«لا، لن تموتي».

«ضربني، أليس كذلك؟ لكمني وركلني، وأتذكر اعتقادي بأنني سأموت. أين كنت، يا سد؟ لماذا لم تساعدني؟».

«طوقته بذراعيّ، لكنني لم أتمكن من إبعاده عنك. كان يجب عليّ أن أهدده بالسكين. كنت على استعداد لقتله، يا جريس، لكنه هرب قبل أن يحدث شيء. ثم اتصلت بالطوارئ، وجاءت بك سيارة الإسعاف إلى هنا».

«متى كان ذلك؟».

«منذ ثلاث ليال».

«وما هذا الشيء الموضوع على وجهي؟»

«ضمادات وجبيرة على أنفك».

«هل كسر أنفي؟».

«نعم. وسبب لك بعض ارتجاج في المخ. لكن رأسك بخير الآن، أليس كذلك؟ لقد بدأت تستعيدين الوعي».

«ماذا عن الطفل؟ هناك ألم كبير في أمعائي يا سد، وأظن أنني أعرف ما الذي يعنيه هذا. لا يمكن أن يكون هذا صحيحا، أليس كذلك؟».

«أخشى أنه كذلك. كل شيء سيصبح أفضل، ماعدا هذا».

في اليوم التالي، نُثر رماد رفات تروس في مرج في سنترال بارك. لا بد أنه كان هناك ثلاثون أو أربعون منا في تجمع ذلك الصباح، مجموعة من الأصدقاء، والأقارب، والرفاق من الكتاب، من دون حضور أي مسؤول من أي دين، ولم يأت ذكر واحد لكلمة «الله» من جانب أي فرد من الأفراد الذين تحدثوا. لم تعرف جريس شيئا عن وفاة جون، والداها وأنا قررنا إخفاء الأمر عنها بقدر

ما نستطيع. حضر بيل مراسم الجنازة معي، لكن سالي بقيت في المستشفى إلى جانب جريس، التي قيل لها إنني كنت أرافق والدها إلى المطار ليلحق برحلة العودة إلى فرجينيا. كانت جريس تتحسن بشكل تدريجي، لكنها حتى الآن لم تعاف بقدر يكفي لتحمل صدمة بهذه الضخامة. مأساة واحدة في المرة، قلت لوالديها، لكن ليس أكثر. مثل القطرات المفردة من المحلول الذي يسقط من الكيس البلاستيكي إلى الأنبوب الوريدي الملحق بذراع جريس، يجب أن يقسّم الدواء إلى جرعات صغيرة. كان الطفل المفقود أكثر من كاف في الوقت الراهن. يمكن لخبر جون أن ينتظر حتى تقوى بما يكفي لتحمل هجمة حزن أخرى.

لم يأت أحد على ذكر جاكوب في الطقس الديني، لكنه كان حاضرا في أفكاري بينما كنت أستمع إلى شقيق جون وبيل وأصدقاء آخرين متنوعين، جاءوا لتأدية واجب التأبين تحت الضوء الساطع لذلك الصباح من فصل الخريف. كم يبدو بغيضا أن يموت الإنسان قبل أن تتاح له الفرصة لأن يغدو عجوزا، قلت لنفسي، كم يبدو مزعجا التفكير في العمل الذي لا يزال أمامه لينجزه. لكنني شعرت بأنه لو كان على جون أن يموت الآن، فمن المؤكد أنه كان من الأفضل له أن يموت يوم الإثنين، وليس الثلاثاء أو الأربعاء. لأنه لو كان قد عاش لأربع وعشرين ساعة، لكان من الممكن أن يكتشف ما فعله جاكوب بجريس، وكنت متأكدا من أن معرفة هذا الأمر كانت ستدمره؛ لأنه لو حدث، فلم يكن ليقوى على مواجهة حقيقة أنه قد أنجب وحشا، ولا يمكنه أن يحمل على عاتقه وزر العمل البشع الذي اقترفه ابنه ضد أكثر شخص أحبه في هذا العالم. أصبح جاكوب غير جدير بذكر اسمه، لكنني كنت أتقد بالكراهية ضده،

وكنت أتطلع إلى اللحظة التي تتمكن فيها الشرطة في النهاية من الإمساك به، لأتمكن من الشهادة ضده في المحكمة. ومن عظيم أسفي غير المحدود، أنه لم تتح لي تلك الفرصة قط؛ لأننا عندما كنا واقفين في سنترال بارك نرثي والده، كان جاكوب قد مات بالفعل. لم يكن بإمكان أحد منا أن يعرف وقتها، نظرا إلى أنه كان قد مر شهران آخران قبل العثور على جثته المتحللة، ملفوفة في غلاف من البلاستيك الأسود، ومدفونة في دمبستر في موقع بناء مهجور بالقرب من نهر هارلم في برونكس. أطلق عليه الرصاص مرتين في الرأس. ريتشي وفيل لم يكونا شبحين من نسج خياله، وعندما وضع التقرير الشرعي كدليل في محاكمتهما في السنة التالية، أظهر أن كلتا الرصاصتين أطلقت من مسدسين مختلفين.

في ذلك اليوم نفسه (الأول من شهر أكتوبر)، وصل الخطاب الذي أرسل من مانهاتن بواسطة المدام دوماس إلى وجهته في بروكلين. وجدته في صندوق بريدي بعد عودتي إلى البيت من سنترال بارك، لتغيير ملابسي قبل التوجه إلى المستشفى مرة ثانية، ولأن عنوان المرسل لم يكن على المظروف، فلم أتمكن من معرفة المرسل حتى حملته معي إلى فوق وفتحته. كان تروس قد كتب الخطاب بخط اليد، وكان النص شديد التعرج، شديد الاهتياج في كتابته، لدرجة أنني وجدت صعوبة في فهمه وفك شفرته. كان يجب عليّ أن أقرأ النص عدة مرات قبل أن أنجح في فك ألغاز التعرجات غير المقروءة والشطب الكثير، لكن بمجرد أن بدأت في ترجمة العلامات إلى كلمات، أمكنني سماع صوت جون يتحدث إليّ، صوت حي يتكلم من الجانب الآخر للموت، من الجانب الآخر للامكان. ثم وجدت الشيك داخل المظروف، وشعرت بعيني تغرورقان بالدموع. رأيت

رفـــات جون يتدفق من جرة رماد الموتـــى في المتنزه ذلك الصباح. رأيت جريس مســـتلقية في ســـريرها في المستشفى. رأيت نفسي أمـــزق صفحات الدفتر الأزرق، وبعد فترة - وفق كلمات زوج أخت جون ريتشـــارد - وضعت وجهي بين يديّ وكنت أنشـــج أمعائي إلى الخـــارج. لا أعرف إلى متى بقيت على هذه الحال، لكن بينما كانت الدموع تتدفق مني، كنت سعيدا، لأنني حي أكثر من أي وقت مضى. كانت ســـعادة في ما وراء العزاء والبـــؤس، وكل قبح وجمال العالم. في آخر الأمر، انقطعت الدمـــوع، فدخلت إلى حجرة النوم لأرتدي مجموعة جديدة من الملابس. وبعد عشـــر دقائق، كنت بالخارج في الشارع مرة ثانية، أمشي نحو المستشفى لأرى جريس.

الهوامش

1 أيام الشعرى: أكثر أيام السنة حرارة، وهي في الفترة من أوائل شهر يوليو إلى أوائل شهر سبتمبر، وتتميز بجوها القائظ شديد الرطوبة في نصف الكرة الشمالي (المترجم).

2 إم.آر هذان الحرفان اختصار لكلمة مستر أو سيد، ومن هنا قد ينشأ اللبس.

3 تبدأ كلها في اللغة الإنجليزية بحرفي الإم والآر.

4 مرت حتى الآن عشرون عاما منذ ذلك الصباح، وقدر كبير مما قاله أحدنا إلى الآخر قد ضاع وتبدد. أفتش في ذاكرتي عن الحوار المفقود، لكنني ليس بإمكاني التوصل إلى ما هو أكثر من شذرات متفرقة، أجزاء ضئيلة وقطع مجتزأة ومبتورة من سياقها الأصلي. لكن ثمة شيئا واحدا أجدني متأكدا منه، وهو أنني أخبرته باسمي. لابد أن هذا قد حدث مباشرة بعدما تبين أنني أمارس مهنة الكتابة، نظرا إلى أنني كان بإمكاني سماعه وهو يسألني عن اسمي على أمل أن يكون قد اطلع عن طريق الصدفة على شيء نُشر لي. «أور» هو ما قلته له، مطلعا إياه أولا على لقبي، ثم أضفت «سدني أور». لم تكن إنجليزية تشانج جيدة بقدر كاف ليفهم إجابتي. فقد سمع «أور» على أنها «أو» وعندما هززت رأسي بالنفي، وابتسمت، بدا وجهه مجعدا في حيرة وارتباك محرج. كنت على وشك أن أصحح الخطأ وأتهجى له الكلمة، لكن قبل أن يتسنى لي قول شيء التمعت عيناه مرة ثانية، وبدأ في عمل إشارات تجديف صغيرة غاضبة بيديه، معتقدا أن الكلمة التي قلتها له من المحتمل أن تكون «أوار». مرة ثانية، هززت رأسي بالنفي وابتسمت. أطلق تشانج، الذي كان يشعر في ذلك الوقت بالهزيمة الكاملة، تنهيدة عالية وقال: «لغة فظيعة هذه الإنجليزية. مخادعة جدا لعقلي الفقير». استمر سوء الفهم من جانبه إلى أن رفعت الدفتر من على الكاونتر، وكتبت اسمي بحروف كبيرة منفصلة في داخل الغلاف الأمامي. بدا لي ذلك مؤديا إلى النتيجة المطلوبة. بعد مجهود كبير، لم أزعج نفسي بإخباره بأن أول جد لي جاء إلى أمريكا كان اسمه أورلوفسكي. وأن جدي قد اختصر الاسم ليجعله يبدو أكثر قربا إلى الأسماء الأمريكية، بالضبط مثلما فعل تشانج بإضافة الحرفين اللذين لا معنى لهما «إم وآر» إلى اسمه لمجرد التزيين.

5 كان جون في السادسة والخمسين، ربما ليس صغيرا، لكنه ليس عجوزا لدرجة أن يفكر في نفسه كرجل مسن، خصوصا أنه كان يتقدم في السن دون متاعب، ولا يزال يبدو كرجل في منتصف أو أواخر الأربعينات. كنت قد تعرفت عليه قبل ثلاث سنوات من ذلك الوقت، وكانت صداقتنا نتيجة مباشرة لزواجي من جريس. فقد كان والدها في برنستون مع جون في السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية مباشرة، وعلى الرغم من أن الاثنين كانا يعملان في مجالين مختلفين، كان والد جريس قاضيا فيدراليا في بتشارلوتسفيل، في فرجينيا، ظلا على صلتهما الحميمة منذ ذلك الوقت. وبناء عليه فقد التقيت به في بيت جريس كصديق للعائلة، وليس كروائي مشهور أقرأ له منذ أن كنت في المدرسة الثانوية ومازلت أعتبره واحدا من أفضل كتابنا.

كان قد نشر ستة أعمال أدبية في الفترة ما بين ١٩٥٢ و١٩٧٥، لكنه لم يكتب شيئا لما يزيد على سبع سنوات إلى الآن. لم يكن جون متعجلا أبدا، ولا تعني فترات التوقف، التي كانت أطول نوعا ما من المعتاد بين كتاب وآخر، أنه لم يكن يعمل. قضيت معه الكثير من أوقات بعد الظهر بعد خروجي من المستشفى، وكان يتخلل محادثاتنا التي كانت تدور حول صحتي (التي

كان مهتما بها بشدة، واستمر في قلقه وعنايته المفرطة)، الإتيان على ذكر ابنه جاكوب الذي يبلغ من العمر عشرين سنة (الذي تسبب له في الكثير من الألم والعذاب منذ فترة ليست بالقصيرة)، وصراعات فريق «الميتس» في التعثر والتخبط (هاجس متبادل ثابت ودائم)، كان قد ذكر تلميحات كافية عن نشاطاته الحالية ليوحي لي بأنه كان مشغولا كلية في شيء ما، وأنه كان يكرّس أغلب وقته لمشروع يمضي فيه بشكل جيد، وربما أوشك الآن على الانتهاء منه.

6 حدث أن التقيت بجريس أيضا في دار للنشر، الأمر الذي قد يفسر لماذا أعطيت لبوين العمل نفسه الذي أمتهنه أنا. كان ذلك في يناير ١٩٧٩، بعد فترة ليست بعيدة من انتهائي من روايتي الثانية. صدرت روايتي الأولى ومجموعتي القصصية التي سبقتها عن طريق ناشر صغير في سان فرانسيسكو، لكنني انتقلت الآن إلى ناشر أكبر، دار نشر أكثر تجارية في نيويورك، تدعى هولست وماك ديرموت. بعد حوالي أسبوعين من توقيعي للعقد، ذهبت إلى المكتب لألتقي بالمحرر الخاص بي، وفي وقت ما في أثناء محادثتنا بدأنا في مناقشة الأفكار المتعلقة بغلاف الكتاب. كان ذلك عندما التقطت «بيتي ستولوويتز» سماعة هاتف مكتبها وقالت لي، «لماذا لا نستدعي جريس إلى هنا ونرى ما تفكر فيه؟» اتضح لي أن جريس كانت تعمل في القسم الفني في هولست وماك ديرموت، وأنها قد كلفت بعمل تصميم الغلاف الخارجي الإضافي لغلاف كتابي الذي كان عنوانه «صورة ذاتية مع أخ متخيل»، وهو كتاب صغير عن النزوات وأحلام اليقظة والكوابيس المحزنة.

واصلنا حديثنا، بيتي وأنا، لثلاث أو أربع دقائق إضافية، ثم دخلت جريس تيبيتس إلى الحجرة. ظلت معنا حوالي ربع ساعة، عندما انصرفت وعادت إلى مكتبها مرة ثانية، كنت قد وقعت في حبها. كان ذلك الشيء مفاجئا، وحاسما، وغير متوقع. قرأت عن مثل هذه الأمور في الروايات، لكنني كنت أفترض دائما أن المؤلفين كانوا يبالغون في قوة وتأثير النظرة الأولى، تلك الأعمال التي تحدثت بصورة لا نهائية عن اللحظة التي يحدق فيها الرجل في عيني محبوبته للمرة الأولى. بالنسبة إلى شخص مولود متشائم مثلي، كان الأمر برمته تجربة صادمة. شعرت كما لو أنني قد زُج بي ثانية إلى عالم الشعراء الغنائيين، مستعيدا بعض مقاطع من الفصل الافتتاحي لـ «لا فيتانونا» (... عندما جعلوا السيدة العظيمة التي في أفكاري ظاهرة بوضوح أمام عيني)، هذه الصورة الموجودة في مجازات عفى عليها الزمن لألف قصيدة من قصائد الحب المنسية. لقد احترقت، أنا ولهان. أتحرق شوقا. أفقدتني النطق. وكل هذا حدث لي في أكثر الأماكن بعثا على الملل، تحت الوهج الفلورسنتي القاسي في مكتب أمريكي في أواخر القرن العشرين، آخر مكان في العالم يمكن أن يفكر المرء في أن يعثر فيه مصادفة على حب العمر كله.

ليس هناك تعليل أو تفسير لحدث مثل هذا، ولا سبب موضوعي يشرح لماذا نحب شخصا ما ولا نحب شخصا آخر. كانت جريس امرأة جميلة، لكن حتى في تلك الثواني الأولى المشحونة في أول لقاء لنا، عندما صافحتها وعندما شاهدتها تجلس على كرسي بجانب مكتب «بيتي»، أمكنني أن أتبين أن جمالها لم يكن فائقا، ليس كهذا الذي لنجمات الأفلام الفاتنات، اللاتي يقهرنك بجمالهن المبهر. لم يكن من شك هناك في أنها كانت ستصبح ساحرة، ومبهجة للنظر (إلى آخر ما يختار المرء للتعريف والوصف من مصطلحات مثل هذه)، لكن انجذابي كان قويا، عرفت أيضا أنه كان أكثر من مجرد إعجاب جسدي، وأن الحلم الذي كنت قد بدأت أحلم به كان يتعدى مجرد جيشان لحظي لرغبة حيوانية. كان ذكاء جريس مفاجئا لي، بينما كان الاجتماع ينقضي ببطء وأنا منصت لحديثها عن أفكارها بخصوص الغلاف، فهمت أنها لم تكن شخصية لبقة للغاية، (فقد ترددت كثيرا بين الأفكار، وحصرت كلماتها في أدنى حد من

الكلمات الوظيفية، وبدا أنها لا تتمتع بموهبة في تجريد الأمور)، ولم يكن هناك شيء مما قالته بعد ظهر ذلك اليوم لامعا أو مميزا على وجه الخصوص. بدلا من أن تسدي لي بعض تعليقات ودودة عن كتابي، لم تعط أية علامة توحي بأنها كانت حتى مهتمة بي من بعيد ولو بقدر ضئيل. ومع ذلك فقد كنت في حالة عذاب قصوى، أحترق، وأذوب عشقا، وأتحرق شوقا، كنت رجلا وقع في شباك الحب.

كان طولها خمس أقدام وثماني بوصات، ووزنها مائة وخمسة وعشرين رطلا، ممشوقة العنق، ذات ذراعين طويلتين وأصابع طويلة، شاحبة البشرة، وشعرها أشقر داكنا قصيرا. أدركت في ما بعد أن الشعر يشبه بعض الشيء الشعر الذي وصف في رسومات البطل في «الأمير الصغير»، مهوش تبرز منه النتوءات وتتلاطم مع تكتلات خصل الشعر، هذه الصورة من الترافقات ساعدت على توليد الهالة الغريبة نوعا التي أوحت بها جريس. لا بد أن الملابس التي تليق بالرجال والتي كانت ترتديها بعد ظهر ذلك اليوم قد لعبت دورها في خلق تلك الصورة هي الأخرى؛ جينز أسود، وتي شيرت أبيض، وجاكيت من الكتان الأزرق الفاتح. بعد خمس دقائق تقريبا من قدومها، خلعت الجاكيت وطرحته على ظهر الكرسي، وعندما رأيت ذراعيها، الطويلتين الناعمتين اللتين لامرأة فاتنة من دون شك، أدركت أنني لن أستريح حتى أتمكن من لمسهما، حتى يتاح لي الحق في أن أضع يديّ على جسدها وأمررهما فوق بشرتها.

لكنني أريد أن أذهب إلى ما هو أعمق من جسد جريس، أعمق من الحقائق الظاهرة لجسدها ذاته. الأجساد مهمة، بالطبع لها أهمية أكثر من الأهمية التي نرغب في الاعتراف بها - لكننا لا نقع في حب الأجساد، يحب أحدنا الآخر، وإذا كان الكثير مما نكونه هو اللحم والعظم، فإن هناك الكثير أيضا مما هو ليس بلحم وعظم. كلنا نعرف هذا، لكن في اللحظة التي نمضي فيها إلى ما هو ابعد من كتالوج السمات الظاهرية والملامح الجسدية، تبدأ الكلمات تخذلنا، تتفتت كل على حدة في حيرة غامضة خفية باطنية وصور شاعرية وهمية غير واضحة. يطلق عليها البعض لهب أو بريق الوجود. والبعض الآخر يدعوها الومضة الداخلية أو الضوء الداخلي للشخصية الفردية أو الذات. ومع ذلك يشير إليها البعض الآخر على أنها وهج وحرارة الجوهر. دائما ما تستعين المصطلحات بصور الحرارة والإضاءة، وتلك القوة، وذلك الجوهر الخاص بالحياة الذي نشير إليه في بعض الأحيان على أنه الروح، كل تلك الميتافيزيقا تُنقل دائما إلى الشخص الآخر عن طريق العينين. كان الشعراء على حق بالتأكيد في أن يلحّوا على هذه النقطة. يبدأ لغز الرغبة بالتحديق في عيني المحبوب، حيث هناك فقط يمكن لنا أن نلمح من هو ذلك الشخص.

عينا جريس زرقاوين. زرقة داكنة بآثار رمادية، ربما أيضا بقدر من اللون البني، وربما بأثر من اللون العسلي أيضا. كانت عيناها معقدتين، عينان يتغير لونهما وفقا لشدة وطبيعة الضوء الساقط عليهما في لحظة معينة، وفي المرة الأولى التي رأيتها فيها في ذلك اليوم في مكتب بيتي ستولوويتز، خطر لي أنني لم أقابل امرأة من قبل كانت تشع مثل هذا الاتزان، مثل هذه السكينة وهذا الهدوء في المشي والجلوس، كما لو أن جريس، التي لم تكن قد تجاوزت بعد السابعة والعشرين في ذلك الوقت، قد ارتقت بالفعل درجة أعلى منا جميعا. لا أقصد الإيحاء بأنه كان هناك أي شيء فيها تحاول حجبه أو ستره، بحيث تبدو وهي تطفو فوق ظروفها الصعبة الغامضة عن طريق التصرف بكياسة ولطف أو بنوع من عدم الاكتراث. على العكس، كانت حيوية تماما أثناء الاجتماع، كانت تضحك بسهولة، وتبتسم، وهي تنطق بكل ما هو لائق، وتصدر عنها إشارات لا تتجاوز حدود اللياقة، لكن وراء الانشغال الوظيفي بالأفكار التي كنا

أنا وبيتي نقترحها عليها، أحسست بغياب مذهل للصراع الداخلي، ولمست التوازن العقلي الذي بدا أنه يقيها من الصراعات والعدوانية التي هي سمة الحياة الحديثة، ويقيها من عدم الثقة بالنفس، الحسد، السخرية، الحاجة إلى محاكمة الآخرين والسيطرة عليهم أو الاستخفاف بهم، الألم الحارق غير المحتمل الذي للطموح الشخصي. كانت جريس شابة صغيرة، لكنها كانت تتمتع بروح ناضجة كبيرة وقوية تبحر ضد التيار، وبينما كنت جالسا معها في ذلك اليوم لأول في مكتب هولست وماك ديرموت، انظر إلى عينيها، وأتفحص إحداثيات جسدها الهزيل والنحيل جدا، كان هذا هو ما عشقته: الإحساس الهادئ الذي يغلفها، والصمت المشع الذي يتوهج بداخلها.

7 كان جون هو الشخص الوحيد في العالم الذي لا يزال يناديها جراسي. ولم يعد حتى والداها يناديانها كذلك، ولا أنا نفسي، وكنت مرتبطا بها لما يزيد عن ثلاث سنوات، لم يسبق لي مخاطبتها أبدا بصيغة التصغير والتدليل تلك. لكن جون على معرفة بها طوال حياتها - حرفيا منذ يوم مولدها - وعلى مدار الوقت أصبح من حقه بعض الامتيازات الخاصة، امتيازات ترفعه من مرتبة صديق للعائلة إلى درجة من القرابة غير الرسمية. كان كما لو بلغ مكانة العم المفضل - أو، إذا شئت، العرّاب - من دون أوراق رسمية.

أحب جون جريس، وفي المقابل أحبته جريس، ولأنني كنت الرجل الذي أصبح في حياة جريس، فقد رحّب بي جون داخل الحلقة المقربة لعواطفه. أثناء فترة انهياري الصحي، ضحّى بالكثير من وقته وطاقته لمساعدة جريس أثناء هذه الأزمة، وعندما تعافيت أخيرا من مناوشتي مع الموت، بدأ يحضر إلى المستشفى كل يوم بعد الظهر ويجلس بجوار سريري ويصاحبني - لإبقائي (كما أدركت فيما بعد) في عالم الأحياء. عندما ذهبنا جريس وأنا إلى زيارته على العشاء في تلك الليلة (١٨ سبتمبر ١٩٨٢)، لم ينتبني الشك في أن يكون شخصا ما أقرب إلى جون في نيويورك أكثر منا أنا وجريس. ولا حتى من هو أقرب إلينا من جون. وهذا يوضح لماذا اعتبر ليالي السبت الخاصة بلقائنا مهمة جدا ولم يرد تفويت موعد اللقاء، على رغم مشكلة ساقه. يعيش جون بمفرده، ونظرا إلى أنه نادرا ما يظهر على الملأ، فإن رؤيته لنا أصبحت الصيغة الرئيسية للترفيه الاجتماعي بالنسبة إليه، وفرصته الوحيدة الحقيقية لإطلاق العنان لنفسه لساعات قليلة في محادثة طويلة متواصلة.

8 كانت تينا هي الزوجة الثانية لجون. استمر زواجه الأول لمدة عشر سنوات (من ١٩٥٤ إلى ١٩٦٤) وانتهى بالطلاق. لم يتحدث عن تلك الزيجة في وجودي، لكن جريس أخبرتني أنه لم يكن هناك أحد في عائلتها مغرما على وجه الخصوص بإليانور. رآها آل تيبيت متكبرة من عائلة براين ماور من محتد أرستقراطي عريق ممتد في ماساتشوسيتس، «شخصية متحذلقة ومتكلفة في سلوكها» كانت تنظر دائما بتعال إلى الطبقة العاملة التي ينتمي إليها جون وعائلته في باترسون، في نيوجرسي. لا يهم أن إليانور كانت رسامة محترمة وذات شهرة وأنها كانت تقريبا في شهرة جون نفسها. لم يندهش أحد من عائلته عندما انتهى الزواج، ولم يأسف أحد على رؤيتها وهي ترحل. مثار الأسف الوحيد، قالت جريس، هو أن جون قد أجبر على أن يبقى على اتصال بها. ليس لرغبة من جانبه، بل بسبب الحوادث الغريبة المستمرة لابنهما جاكوب المثير للمشاكل، وحالة عدم توازنه المزعجة إلى حد كبير.

ثم التقى بتينا أوسترو، مصممة رقصات تصغره باثنتي عشرة سنة، وعندما تزوجها عام ١٩٦٦، استحسنت عشيرة تيبيت القرار. وشعروا بالثقة لأن جون قد وجد أخيرا المرأة التي كان يستحقها، وكان الوقت كفيلا بإثبات أنهم كانوا على حق. كانت تينا فتاة صغيرة ذات شخصية جذابة تشع حيوية وتألق. قالت جريس، وقد أحبت جون (وفقا لما قالته جريس) «إلى درجة

العبادة». المشكلة الوحيدة في زواجهما أن تينا لم تعش لفترة طويلة كافية حتى تحتفل بعيد ميلادها السابع والثلاثين. أخذها منه سرطان الرحم ببطء على مدار ثمانية عشر شهرا، وبعد أن دفنها جون. قالت جريس انغلق على نفسه لفترة طويلة، «بالضبط نوع من التجمد والتوقف عن التنفس». انتقل للعيش في باريس لمدة عام، ثم إلى روما، ثم بعد ذلك إلى قرية صغيرة في الساحل الشمالي في البرتغال. عندما عاد إلى نيويورك ١٩٧٨ واستقر في شقته في «بارو ستريت»، كانت قد مرت ثلاث سنوات على نشر آخر رواية كتبها، وكانت الإشاعات تردد أن تروس لم يكتب حرفا منذ وفاة تينا - كانت قد مرت أربع سنوات منذ ذلك الوقت، وحتى الآن لم ينتج جون شيئا - على الأقل لم ينتج شيئا كان يرغب في إطلاع أحد عليه. لكنه كان يعمل. فقد أخبرني بنفسه كثيرا عن ذلك، لكنني لا أعرف أي نوع من العمل هو، لسبب بسيط وهو أنني لم أجد الجراة لأسأله.

9 يتلاعب الكاتب بمعنى آخر للكلمة يعني علقة.

10 كلها معان يعبر عنها اللون الأزرق في الاستخدام الإنجليزي.

11 في أوتاوا.

12 الكلمة في الإنجليزية تعني الحاخام في أشيع معانيها.

13 كان كثير من عملها الجرافيكي مستلهما من خلال مشاهدتها للأعمال الفنية، وقبل انهياري الصحي قبل بداية العام، كنا كثيرا ما نقضي أوقات بعد الظهر من أيام السبت في التجوال، داخل المعارض والمتاحف معا وخارجها. جعل الفن، بمعنى من المعاني، زواجنا ممكنا، ومن دون تدخل الفن أشك أنني كان من الممكن أن أجد الشجاعة لمتابعتها والسعي وراءها. كان من حسن الحظ أننا قد التقينا في بيئة متعادلة أو محايدة تخص هولست وماك ديرموت، ما يسمى ببيئة العمل. لو كنا قد التقينا بأي طريقة أخرى - في حفل عشاء، على سبيل المثال، أو إحدى الحافلات أو على متن طائرة - لكان من غير الممكن أن أقوى على الاتصال بها مرة ثانية أو مقابلتها من دون أن أكشف نواياي، وقد شعرت بشكل غريزي أنه يجب عليّ الاقتراب من جريس بحذر. فقد كنت متأكدا من أنني لو مددت يدي مبكرا جدا، فإنني سأفقد فرصتي معها إلى الأبد تقريبا.

لحسن الحظ، كان لديّ مبرر للاتصال بها. فهي التي كُلّفت بتصميم غلاف كتابي، وبحجة أن لديّ فكرة جديدة لأناقشها معها، اتصلت بها في مكتبها بعد يومين من أول لقاء لنا وسألت إن كان بإمكاني الحضور إلى مكتبها ومقابلتها. «في أي وقت تحب»، قالت. اتضح لي أن أي وقت سيكون صعبا من حيث الترتيب. كان لديّ عمل منتظم في تلك الفترة (تدريس مادة التاريخ في مدرسة جون جاي العليا في بروكلين)، ولم يكن من الممكن أن أحضر إلى مكتبها قبل تمام الرابعة. وكما توقعت، كان جدول أعمال جريس مشحونا ومثقلا بمواعيد في فترة بعد الظهر لبقية الأسبوع. عندما اقترحت هي أن نلتقي في يوم الاثنين أو الثلاثاء من الأسبوع القادم، أخبرتها بأنني سأكون خارج البلدة للقيام بقراءة أحد أعمالي على الجمهور (وهو ما اتفق أن كان صحيحا، لكن ربما كنت سأقول هذا حتى لو لم يكن الأمر كذلك)، ولذلك لانت جريس ورقت وعرضت عليّ أن تضغط لي بعضا من وقتها يوم الجمعة بعد العمل. «يجب عليّ أن أكون في مكان ما في الثامنة»، قالت، «لكن إذا تقابلنا لمدة ساعة أو نحو ذلك في الخامسة والنصف، فلن تكون هناك مشكلة».

كنت قد سرقت اسم كتابي من عمل فني بالقلم الرصاص يعود إلى عام ١٩٣٨ للفنان ويليم دي كوننج. «صورة ذاتية شخصية مع أخ متخيل»، وهو قطعة فنية صغيرة رقيقة الإعداد تصور ولدين يقفان جنبا إلى جنب، أحدهما يكبر الآخر بسنة أو سنتين، يرتدي أحدهما بنطالا

طويلا، ويرتدي الآخر سروالا قصيرا واسعا مزموما عند الركبة. ومع إعجابي باللوحة، كان العنوان هو الذي أثار اهتمامي، وقد استخدمته ليس لأنني أردت الإشارة إلى دي كوننج بل إلى الكلمات نفسها، والتي وجدت أنها مثيرة للذكريات والعواطف بدرجة كبيرة وبدت لي وقتها أنها مناسبة للرواية التي كنت أكتبها. في وقت مبكر من ذلك الأسبوع في مكتب «بيتي» ستولوويتز، اقترحت وضع لوحة دي كوننج على غلاف كتابي. والآن كنت أخطط لإخبار جريس بأنني أعتقد أن الفكرة كانت سيئة - لأن ضربات اللون الرصاصي في اللوحة كانت شاحبة جدا وأنها لن تكون مرئية بقدر كاف، حتى أن أثرها سيكون ضعيفا جدا. لكنني في الحقيقة لم أكن مهتما بهذا. وإذا كنت قد تجادلت بشأن اللوحة في مكتب بيتي، فقد كان ذلك من أجل هذا الغرض. فكل ما كنت أرغب فيه هو فرصة لرؤية جريس مرة ثانية - كان الفن هو وسيلتي لتنفيذ هذا الأمر الذي لن يعرّض غرضي الحقيقي للخطر.

استعدادها لرؤيتي بعد ميعاد عملها الرسمي أعطاني الأمل، لكن في الوقت نفسه معرفتي بأنها كانت ستغادر مكتبها في الثامنة تقريبا دمرت هذا الأمل. كان هناك سؤال صغير فيما يتعلق بما إن كانت على موعد مع رجل(فالنساء الجذابات يكن دائما على موعد مع رجل ليلة الجمعة)، بل كان من المستحيل معرفة مدى عمق علاقتها به. كان من المحتمل أن يكون هذا الموعد هو أول موعد بينهما، ويمكن أن يكون عشاء هادئا منعزلا مع خطيبها أو صديقها الذي تقيم معه.كنت أعرف أنها ليست متزوجة(كانت بيتي قد أخبرتني بشيء كهذا بعدما غادرت جريس مكتبها عقب اجتماعنا الأول)، لكن نطاق علاقاتها الحميمة الأخرى التي كنت أود معرفتها كان غير محدود. وعندما سألت بيتي إن كانت جريس مرتبطة بأي شخص، قالت إنها لا تعرف. فجريس تحتفظ بحياتها الخاصة لنفسها، وليس لدى أحد في المؤسسة أدنى فكرة عما تفعله جريس خارج المكتب. كان اثنان أو ثلاثة من المحررين قد طلبوا منها الخروج منذ أن بدأت عملها في المؤسسة، لكنها رفضتهم جميعا.

تنامى إلى علمي سريعا أن جريس لم تكن بالشخص الذي يتقاسم أو يفشي الأسرار. خلال الأشهر العشرة التي عرفتها فيها قبل أن نتزوج، لم تفش سرا أبدا أو تلمح لأي علاقات سابقة لها مع رجال آخرين. ولا حتى سبق لي أن طلبت منها أن تخبرني بشيء لم تبد راغبة في التحدث عنه. كانت تلك هي قوة صمت جريس. إذا قصدت حبها بالطريقة التي رغبت هي في أن تحب بها، فلابد إذن أن تقبل بالخط الفاصل الذي رسمته بين نفسها وبين الكلمات.

(ذات مرة، في واحدة من محادثاتنا المبكرة عن مرحلة طفولتها، استغرقت في إعادة تذكر عروسة محببة كان والداها قد أعطياها لها عندما كانت في السابعة. أطلقت عليها اسم «لؤلؤة»، وظلت تحملها معها في كل مكان لمدة أربع أو خمس سنوات، واعتبرتها أفضل أصدقائها. كان الشيء الرائع فيما يتعلق بلؤلؤة أنها كانت قادرة على أن تتكلم وتفهم كل شيء كانت تقوله لها. لكن اللؤلؤة لم تلفظ أبدا ولو كلمة واحدة في وجود جريس. ليس لأنه لم يكن بمقدورها التحدث، بل لأنها اختارت ألاّ تفعل).

كان هناك شخص ما في حياتها في ذلك الوقت الذي قابلتها فيه -أنا واثق من هذا- لكنني لم اكتشف أبدا اسمه أو مدى ما تكنه له من مشاعر جدية. على نحو خطير إلى حدا ما، حسبما يمكنني أن أتذكر، فأول ستة أشهر كشفت عن كونها فترة عصيبة بالنسبة إلي، وقد انتهت على نحو سيئ، عندما أخبرتني جريس أنها كانت راغبة في قطع علاقتها بي وأنه يجب ألاّ اتصل بها بعد ذلك. لكن خلال كل إحباطات تلك الأشهر، كل الانتصارات العابرة وطفرات التفاؤل الصغير، مرات الصدود والاستسلام، الليالي التي كانت مشغولة فيها جدا عن رؤيتي والليالي التي سمحت لي فيها بمشاركتها سريرها، خلال كل تلك التقلبات الفاشلة اليائسة لخطب

ودها. كانت جريس دائما مفتونة بي، نقطة واضحة مضيئة من التواصل بين الرغبة والعالم، من الحب الصامد الذي لا يعرف الهدوء. التزمت بكلمتي ولم أتصل بها، لكن بعد ستة أسابيع اتصلت بي على نحو مفاجئ وقالت إنها قد غيّرت رأيها. لم تعرض أي تفسير، لكنني خمّنت أن الرجل الذي كان منافسا لي كان قد أصبح الآن خارج الصورة. لم ترغب فقط في رؤيتي ثانية، قالت، بل أرادت أن نتزوج. كانت كلمة زواج هي الكلمة الوحيدة التي لم آت على ذكرها أبدا في وجودها. كان الزواج في رأسي منذ اللحظة الأولى التي رأيتها فيها، لكنني لم أجرؤ أبدا على التلفظ بذلك، خشية أن أصيبها بالرعب. كانت جريس في ذلك الوقت تعرض عليّ الزواج. كنت قد روضّت نفسي على أن أقضي بقية حياتي بقلب محطم، وبدلا من ذلك كانت تخبرني وقتها أنه بإمكاني أن أعيش معها - في أمان، حياتي بالكامل معها في أمان.

14 منطقة غابات في إنجلترا (المترجم).

15 كانت كانساس سيتي اختيارا تعسفيا لوجهة بوين- أول مكان خطر فجأة في رأسي. من المحتمل لأنها كانت بعيدة جدا عن نيويورك، بلدة مغلقة محصورة في قلب أو مركز ذلك الإقليم: مقدار صغير في كل غرابتها العظيمة الرائعة. لكن، بمجرد وضعي لنيك في الطريق إلى كانساس سيتي، تذكرت الكارثة القديمة لفندق «هيات»، التي كانت حدثا حقيقيا وقع قبل أربعة عشر شهرا (في يوليو ١٩٨١). ما يقرب من ألفي شخص كانوا قد تجمعوا في البهو في ذلك الوقت - ردهة كبيرة واسعة مكشوفة ومفتوحة على مساحة تقترب من سبعة عشر ألف قدم مربع. كانوا ينظرون جميعا إلى أعلى، يشاهدون مسابقة رقص مقامة فوق أحد الممرات العلوية (يشار إليها أيضا كممرات «طافية» أو «ممرات السماء»)، عندما انحلّت عوارض الجناح الكبيرة التي تسند وتحمل الهيكل كله من مرابطها وانهارت، وتحطمت على أرضية البهو أربعة طوابق. بعد واحد وعشرين سنة، لا يزال هذا الحادث يعتبر واحدا من أسوأ كوارث الفنادق في التاريخ الأمريكي.

16 «كشف الغطاء»، بقلم باتريك جوردون- ووكر، لندن، ١٩٤٥. أكثر حداثة أو معاصرة، كانت القصة نفسها قد أعيدت كتابتها بقلم «دوجلاس بوتينج» تحت عنوان «من تحت أطلال الرايخ»: ألمانيا ١٩٤٥-١٩٤٩(نيويورك:منشورات كراون، ١٩٨٥)، صفحة ٤٣ .
فقط للعلم بالشيء، ينبغي عليّ كذلك أن أذكر أنني تصادف أن امتلكت إصدار عام ٣٨/١٩٣٧ من دليل تلفونات وارسو. كان قد أعطاني إياه صديق لي صحافي كان قد ذهب إلى بولندا لتغطية حركة التضامن في ١٩٨١ (أول اجتماع دولي في جدانتسك في بولندا ٥ - ١٠ سبتمبر، المترجم). يبدو أنه قد عثر عليه في أحد أسواق المواد المستعملة في مكان ما، وكان هو على دراية بأن جدي وجدتي من جهة الأب كلاهما قد ولد في وارسو، وقد أعطاه لي كهدية بعد عودته إلى نيويورك. أطلقت عليه كتاب الأشباح الخاص بي. وجدت في نهاية صفحة ٢٢٠، زوجين كان عنوانهما مكتوبا كالآتي: ويجنيرتا ١٩- جانينا وستيفان أورلوسكي. كان هذا هو الهجاء البولندي لاسم عائلتي، وعلى الرغم من أنني كنت غير متأكد إن كان هذان الشخصان تربطهما بي علاقة أم لا، فقد شعرت بأنه كانت هناك فرصة احتمال أنهما كانا كذلك.

17 قبل أربع سنوات، كنت قد أعددت إحدى قصص مجموعتي القصصية الأولى، «تابيولا روزا»، لمخرج شاب يدعى فنسنت فرانك. كان فيلما صغيرا منخفض الميزانية عن موسيقي يتعافى من مرض طويل وبطيء يجمع حياته مرة ثانية (قصة تنبئية، كما اتضح بعد ذلك)، وعندما عُرض الفيلم في يونيو ١٩٨٠، أبلى بلاء حسنا للغاية. عُرض «تابيولا روزا»، في دور عرض قليلة حول مدينتي فقط، لكنه استقبل كنجاح مهم ومثلما كانت ماري مغرمة بتذكيري بذلك - ساعد عرض الفيلم في لفت انتباه جمهور عريض إلى اسمي. بدأت مبيعات كتبي بالتحسن نوعا

ما، هذا حقيقي وعندما قدمت روايتي التالية بعد تسعة أشهر، «قاموس مختصر للعواطف الإنسانية»، كانت ماري تتفاوض في إبرام عقد مع هوريست وماك ديرموت وكانت قيمته أكبر مرتين مما تقاضيته عن كتابي السابق. ذلك التقدم، إلى جانب المبلغ المتواضع الذي تقاضيته عن كتابتي للسيناريو، أتاحا لي أن أترك عملي بالتدريس في المدرسة الثانوية، والذي كان مصدر رزقي الوحيد طوال سبع سنوات مضت. حتى ذلك الحين، كنت واحدا من هؤلاء الكتاب المغمورين المجبرين على الكتابة بين الساعة الخامسة والسابعة صباحا، والكتابة في المساء وفي عطلات نهاية الأسبوع، والذين لا يذهبون إلى أي مكان أبدا في عطلاتهم الصيفية من أجل الجلوس في البيت في شقة شديدة الحرارة في بروكلين، لتعويض ما فات من وقت قد أهُدِر. الآن، بعد سنة ونصف من زواجي بجريس، وجدت نفسي في موقف الرفاهة، لكوني كاتبا صغيرا مستقلا ذا مهنة حرة. كنا، بالكاد، ما يمكن أن نطلق عليه ميسوري الحال، لكن لو استمر إنتاجي لأعمالي بخطى ثابتة، لكانت دخولنا المشتركة معا كافية للإبقاء علينا في حالة طفو ورؤوسنا فوق الماء. عقب عرض فيلم «تابيولا روزا»، جاءتني عروض قليلة لكتابة المزيد من الأفلام، لكن هذه العروض لم تلق اهتماما من جانبي، وقد رفضتها من أجل الاستمرار في كتابة روايتي. لكن عندما نشرت هولست وماك ديرموت الكتاب في فبراير ١٩٨٢، لم أكن على علم بأنه قد نُشِر. ففي ذلك الوقت كنت بالفعل في المستشفى منذ خمسة أسابيع، وكنت غير واع بأي شيء - ولا حتى اعتقاد الأطباء بأنني سأموت في غضون أيام قليلة.

كان فيلم تابيولا روزا من إنتاج نقابة، ولكي يُعطى السيناريو الخاص بي تصديقا أُجبرت على الانضمام إلى نقابة الكتاب. يستلزم الأمر إرسال الرسوم ربع السنوية وتحويل نسبة صغيرة من مكاسبك إليهم، لكن كان من بين الأشياء التي يعطونها لك في المقابل بوليصة تأمين صحي لائقة. لولا ذلك التأمين، لكان من الممكن أن يرسلني مرضي إلى سجن المدينين. تمت تغطية معظم التكاليف، ولكن وكما هي الحال في النظم والتدابير الطبية، كانت هناك حسابات أخرى كثيرة ذات شأن بالغ: خصومات يتحملها المريض، رسوم إضافية للعلاجات التجريبية والاختبارية، نسب مئوية غامضة وسرّية، وحساب المقياس النسبي لأدوية مختلفة وأدوات تستعمل مرة واحدة، تسلسل مذهل للفواتير التي وضعتني في ورطة بمقدار ستة وثلاثين ألف دولار. كان هذا الحمل المُرهِق على عاتق جريس وعاتقي، وكلما كانت صحتي تتحسن وأستعيد قوتي، كان القلق ينتابني أكثر بخصوص كيفية إخراجنا من ربقة هذا الدين. عرض والد جريس مساعدتنا، لكن القاضي لم يكن رجلا غنيا، ومع وجود أختين أصغر سنا من جريس تدرسان في الجامعة، لم يكن من الممكن أن تطاوعنا أنفسنا على الموافقة. بدلا من ذلك، كنا نزيح عن كاهلنا مقدارا صغيرا كل شهر، محاولين نحت الجبل شيئا فشيئا، لكن معدل سدادنا هكذا كان يعني أنه سوف يستمر حتى نحال إلى المعاش عندما نبلغ سن التقاعد. تعمل جريس في مجال النشر، وهو ما يعني أن راتبها في أفضل الأحوال كان ضئيلا، وأنا لم أكسب شيئا حتى الآن لما يقرب من سنة. حقوق تأليف بالغة الصغر ومدفوعات أجنبية ضئيلة للغاية، لكن هذا كان كل مداها. وهذا يفسّر لماذا أجبت مكالمة ماري على الفور بعدما استمعت إلى رسالتها على جهاز الرد التلقائي. كنت قد صرفت النظر عن أي اهتمام بكتابة المزيد من السيناريوهات، لكن إذا كان سعر هذا السيناريو مناسبا، فليست لديّ أي نية لرفض العمل.

18

لم أحرز أي تقدم جاد، لكنني أدركت أن بإمكاني التحسين من حال بوين نوعا ما من دون اضطراري لإقحام تغيير مركزي على السرد. كان الضوء العلوي قد انطفأ، لكن لم يبد من الضروري إبقاء نيك بعد ذلك في ظلام دامس. ممكن أن تكون هناك مصادر إضاءة أخرى في مخبأ إد المجهز ضد الغبار الذري. أعواد ثقاب وشموع، على سبيل المثال، كشاف ضوئي،

مصباح مائدة - شيء ما يحول دون شعور نيك بأنه قد دُفن حيا. فذلك كفيل بدفع أي إنسان عن حافة العقل، وآخر شيء كنت أرغب فيه هو تحويل مأزق بوين إلى بحث في الرعب والجنون. لقد تركت هاميت ورائي، لكن هذا لا يعني أنني اعتزمت استبدال قصة فلتكرافت بقصة جديدة عن «الدفن المبكر». إذن لنعط نيك الضوء، ونسمح له بشذرة أمل. وحتى بعد أن ينفد الثقاب والشموع، وحتى بعدما تفقد بطاريات الكشاف طاقتها، بإمكانه أن يفتح باب الثلاجة ويبعث ببعض الضوء إلى داخل الحجرة عن طريق اللمبة الصغيرة التي تضيء العلبة البيضاء المصقولة المطلية بالمينا. ما هو أكثر أهمية، كانت المسألة المتعلقة بحلم جريس. الاستماع إلى حديثها هذا الصباح، جعلني فزعا جدا بسبب التشابه مع القصة التي كنت أكتبها وأيضا لأضع يدي على كمّ الاختلافات التي كانت هناك. كانت حجرتها مأوى ليشترك فيه شخصان، جنّة صغيرة. كانت حجرتي زنزانة كئيبة، سكنها شخص واحد، طموحه الوحيد هو الهرب. لكن ماذا لو تمكنت من إدخال روزا ليتمان معه هناك؟ كان نيك قد أحبها بالفعل، ولو حُبسا معا في الحجرة لفترة ما من الزمن، فربما كانت ستبدأ هي في مبادلته المشاعر نفسها. روزا هي البديلة الجسدية والروحية لجريس، ولذلك ستكون لها التهور نفسه، الافتقار إلى التحفظ نفسه. يمكن لروزا ونيك أن يقضيا الوقت معا في قراءة مقتطفات من ليلة التنبؤ بصوت عال، يبوح أحدهما إلى لآخر بأسراره، يقيمان علاقة. مادام هناك ما يكفي من الطعام ليقيم أودهما، لماذا سيرغبان ولو أقل رغبة في المغادرة؟
كانت هذه هي الفانتازيا أو النزوة الصغيرة التي حملتها معي عبر شارع «فيليج». لكن، بينما كنت أديرها في رأسي، أدركت أنها كانت خاطئة بشدة. أثارتني جريس بحلمها، لكن على الرغم من الإغراءات التي بدت متاحة فيه، فلم يكن سوى طريق آخر مسدود. لو كان بإمكان روزا دخول الحجرة، فبإمكان نيك إذن أن يخرج، وبمجرد أن تسنح له هذه الفرصة فإنه لن يتردد في المغادرة. لكن العقدة هي أنه ليس بإمكانه المغادرة. أعطيته بعض الضوء، لكنه لا يزال محبوسا داخل الحجرة المرعبة، ومن دون أدوات مناسبة ليحفر بها مخرجا له، فإنه سيموت هناك في النهاية.

19 عندما ذكر لي تشانج هذه القصة منذ عشرين سنة، كنت متأكدا من أنه يقول الحقيقة. كان هناك الكثير من الإقناع الشديد في صوته بالنسبة إلي بدرجة لا تجعلني أشك في صدقه. لكن، منذ عدة أشهر، بينما كنت أعد لعمل آخر، قرأت بعض الكتابات عن الصين أثناء فترة الثورة الثقافية، وفي كتاب من هذه الكتب، صادفت تقريرا عن الحادث نفسه بقلم ليو يان، الذي كان طالبا في مدرسة بكين المتوسطة رقم ١١ في الوقت الذي أُحرقت فيه الكتب وقد شهد الحادث. لم يأت ذكر مدرس باسم تشانج. ثمة إشارة إلى معلمة اللغات، ليو تشانجيانج، التي انهارت وبكت عند رؤيتها للكتب المحترقة. «أثارت دموعها الحرس الأحمر فجلدوها جلدات إضافية، وقد تركت الأحزمة ندوبا قبيحة على جلدها». (ثورة الصين الثقافية)، (١٩٦٦ - ١٩٦٩)، حرره ميشيل سكوينهالز، أرمونك، نيويورك: إم. إ شارب، (١٩٩٦). لا أقول إن هذا يثبت أن تشانج كان يكذب عليّ، لكنه يضفي بالفعل بعض الشك على قصته. من الممكن، أنه كان هناك مدرسان ينتحبان،ووليو يان لم يلاحظ الآخر. لكن تتعين الإشارة إلى أن حرق الكتب كان حدثا ذائعا في بكين بدرجة كبيرة في ذلك الوقت، ووفقا لكلمات ليو يان، «سبّب إثارة كبيرة في كل أنحاء المدينة». كان بوسع تشانج أن يسمع به، حتى لو لم يكن والده هناك. ربما حكى لي هذه القصة غير المشهورة لإبهاري. لا يمكنني أن أقول هذا. من ناحية أخرى، كانت نسخة قصة تشانج مفعمة بالحيوية - أكثر من معظم تقارير الدرجة الثانية - التي يمكن أن تقودني إلى التساؤل إن كان تشانج حاضرا بنفسه أثناء حرق الكتب. وإن

كان الأمر كذلك، فلابد أن ذلك معناه أنه كان موجودا هناك كعضو في الحرس الأحمر. وإلاّ، لكان أخبرني بأنه كان طالبا في المدرسة - وهو ما لم يقله أبدا. من الممكن حتى (هذا مجرد تخمين) أن يكون هو الشخص نفسه الذي قام بجلد المعلمة التي كانت تنتحب.

20 ماس زائف يصنع من الزجاج (المترجم).

21 وردت بالفرنسية.

22 نسبة إلى مواليد جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية المتحدرين من أصل أوروبي، وإسباني بخاصة، مع أصل زنجي.

23 وردت بالفرنسية.

24 لجنة تحقيق شكلها مجلس النواب الأمريكي أصلا في ١٩٣٨ لتبحث في الأنشطة التخريبية في الولايات المتحدة وتأسست كلجنة دائمة في ١٩٤٥ وحملت اسم: «لجنة الأنشطة غير الأمريكية» (المترجم).

25 كانت جريس طالبة في مدرسة رود آيلاند للتصميم، سافرت ضمن برنامج في السنة السابقة على تخرجها إلى باريس. كان تروس هو الشخص الذي كتب لها عن فان فيلد، الذي كان قد التقى به مرة أو مرتين في الخمسينيات، والذي كان معروفا عنه أنه الفنان المفضل لدى صمويل بيكيت (أورد جون في رسالته حوار بيكيت مع جورج دثوت عن فان فيلد. حجتي القوية هي أن فان فيلد... هو أول من اعترف بأن العمل كفنان يعني الفشل، حيث لن يحاول أحد آخر أن يحترف الفشل بشجاعة، وأن الفشل هو عالمه) كانت لوحات فان فيلد غالية ونادرة، لكن أعماله الجرافيكية التي ترجع إلى أوائل الستينيات والسبعينيات كانت معقولة الثمن إلى حد ما في ذلك الوقت، واشترت جريس العمل بالتقسيط من مالها الخاص، اقتصدت في الطعام والاحتياجات الأخرى لكي تظل في حدود المنحة التي ترسل لها كل شهر من والدها. كان العمل الليثوجرافي جزءا مهما من شبابها، شعار عاطفتها المتنامية تجاه الفن بالإضافة إلى أنه علامة على الاستقلال - جسرا بين أيام الطفولة السالفة وأوائل أيامها كبالغة - وكان يعني الكثير بالنسبة إليها أكثر من أيّ شيء آخر كانت تمتلكه.

26 يقصد كتاب كيركجارد الشهير «إما أو».

27 انتهت المحادثة على زيارتي لجاكوب بمفردي. كنت راغبا في إسداء تلك الخدمة الصغيرة لجون، لكنني كنت مرتبيا مما قاله عن كراهيته لجريس. حتى لو كانت بعض الأسباب هي الغيرة من جانبه (الابن المُهمَل المنبوذ في مقابل «الابنة بالمعمودية» المحبوبة)، إلا أنني لم أشعر بأي تعاطف معه - فقط اشمئزاز واحتقار. سأذهب إلى العيادة لأجل والده، لكنني لن أتطلع بفرحة إلى الوقت الذي سأضطر لتمضيته في صحبته.

حسبما يمكنني أن أتذكر، قابلته مرتين فيما مضى. ورغم عدم معرفتي شيئا عن تاريخه مع جريس، لم يخطر ببالي أبدا أن أسأل عن سبب عدم وجوده معنا في المناسبات. كانت المقابلة الأولى يوم نزهة مساء جمعة إلى إستاد شيا لمشاهدة مباراة بين الميتس وسينياتي ريدز. كان أحد الأشخاص، ممن لهم مقصورة خاصة في موسم المباريات، قد أعطى التذاكر لتروس، ولأنه كان يعرف أنني كنت من هواة المباريات، فقد دعاني إلى الذهاب معه. كان ذلك في شهر مايو ١٩٧٩، بعد أشهر قليلة من وقوعي في حب جريس، وكنت قد تقابلت مع جون لأول مرة منذ أسبوعين فقط. كان جاكوب على وشك بلوغ السابعة عشرة من عمره في ذلك الحين، هو وأحد زملاء دراسته استكملا أربعتنا. منذ اللحظة التي دخلنا فيها إلى الإستاد، كان من الواضح أن كلا الولدين لم يكن لديهما أي اهتمام بلعبة البيسبول. حضرا أول ثلاث جولات وتعبيرات السأم والعبوس على وجهيهما، ثم نهضا وغادرا، بحجة شراء بعض السجق و«التجول

هنا وهناك لفترة»، كما أوضح جاكوب. لم يعودا إلاّ في آخر الجولة السابعة - بعيون جاحظة وجامدة، ومعنوياتهما أفضل بكثير مما كانت عليه. لم يكن من الصعب تخمين ما كانا يفعلانه. كنت وقتها لا أزال أعمل في التدريس، وقد رأيت ما يكفي من الأطفال الذين في قمة تدهورهم لأتعرف على الأعراض. كان جون منشغلا تماما في المباراة وبدا أنه لم يلاحظ، ولم أزعج نفسي بذكر الأمر له. كنت أعرفه بالكاد في ذلك الوقت، وتصورت أن ما كان يحدث بينه وبين ابنه ليس من شاني. لا أعتقد أنني وجاكوب قد تبادلنا أكثر من ثماني أو عشر كلمات مرحبا وإلى اللقاء، على مدار الليلة بالكامل.
المرة الثانية التي رأيته فيها كانت بعد حوالي ستة أشهر. كانت في منتصف السنة النهائية له وكان معرضا لخطر الرسوب في مناهجه كلها، وقد اتصل بي جون في آخر لحظة لقضاء المساء في لعب البلياردو. كان هو وجاكوب متوافقين بالكاد في ذلك الوقت، وأعتقد أن جون قد أراد مني أن أتقدم لأسدي خدمة امتصاص الصدمات، كطرف ثالث محايد لمنع اندلاع مشاجرة بينهما في مكان عام. كانت تلك هي الليلة التي تكلمت فيها مع جاكوب عن «البيين سبازمز» وحظيت فيها بلقب شخص لطيف. اندهشت لأنه طفل عدواني وذكي جدا، قرر أن يعبث بحياته بكل ما في استطاعته. إذا كنت قد تبينت أي ظل من أمل، فقد كان في إصراره على هزيمة والده في البلياردو. كنت لاعبا سيئا وأسقط بسرعة في كل جولة، لكن جون كان على دراية بما كان يفعله، وفي ثنايا تاريخه في اللعبة كان بالتأكيد قد قام بتعليم ابنه كيفية اللعب. فتوافرت روح وجراة المنافسة لدى كليهما، وحقيقة أن جاكوب كان يركز على شيء ما كانت هي فقط ما أدهشني كعلامة إيجابية. لم أكن أعرف وقتها أن جون كان من قبل يعمل خبيرا مشهودا له في لعبة البلياردو في الجيش. لو أراد أن يفعل، لكان بإمكانه قلب المائدة وأن يسحق جاكوب، لكنه لم يفعل ذلك. تظاهر بأنه كان يحاول، وفي النهاية سمح للولد بالفوز. وفقا للظروف، ربما كان هذا هو الشيء الصحيح الذي يجب القيام به. ليس لأنه أدى إلى شيء من التحسن بينهما في المدى البعيد، لكن على الأقل لأن جاكوب أطلق ابتسامة عندما انتهيا واتجه صوب أبيه وصافحه. وفقا لكل ما أعرفه، ربما كانت هذه هي المرة الأخيرة على الإطلاق التي حدث فيها ذلك.

المترجم في سطور

محمد هاشم عبدالسلام توفيق

● من مواليد مصر، ١٩٧٥

● حاصل على بكالوريوس علوم الحاسب الآلي، ١٩٩٦

● ترجم ونشر العديد من الروايات منها: «قشرة زائلة» (٢٠٠٠)، «بيت المرايا» (٢٠٠٢)، و«محاورات مع أعلام من السينما الأوروبية» (٢٠٠٦).

● له كتب قيد الطبع أو النشر، مثل: «أشكال الصمت الأمريكي» للكاتب جي إيه ورد، و«السينما الأوروبية» للكاتبة إليزابيث عزرا، و«العقرب» وقصص أخرى للكاتب الأمريكي بول بولز.

● ترجم العديد من المقالات والنصوص الإبداعية، بعضها منشور والآخر قيد النشر، من أهم ما نشر: قصة «كسوف الشمس» للكاتب أوجستو مونتيروسو، قصة «حادث قديم» للكاتب الأميركي بول بولز، «البحر بيضحك ليه» و«بيت المرايا».

المراجع في سطور

د. محمود غضبان محمود رزوقي

● من مواليد الكويت، ١٩٤٧

● حاصل على بكالوريوس فلسفة وعلم النفس، وماجستير علوم عسكرية، ودكتوراه في الفلسفة الاستراتيجية.

● لواء ركن دكتور طيار (متقاعد)، مستشار في وزارة الدفاع.

● له العديد من المؤلفات العسكرية الخاصة، أهمها «الوصف الوظيفي للقوة الجوية»، و«موسوعة الألعاب المائية»، و«علوم وفنون الألعاب المائية»، و«الإرهاب وسقوط الدكتاتورية» (تحت الطبع).

● حاز العديد من الأوسمة والميداليات، مثَّل الكويت في كثير من البطولات الدولية الرياضية، وشارك في العديد من المؤتمرات العسكرية والعلمية والقيادية على المستوى الدولي.

إبداعات عالمية

ليلة التنبؤ

يتميز نص رواية «ليلة التنبؤ» بعنصر الرواية داخل الرواية، حيث يوغل بنا الروائي الأمريكي «بول أوستر» بروايته في دروب السرد المتقاطعة والحكايات المضفرة بخيوط التشويق المستمد من بنية الرواية البوليسية، ويستعمل الكاتب هذا التركيب الفني ليجعل القارئ يتابع من داخل النص وعبره طريقة «صنع» الرواية، التي يحاول كاتب مفترض أن يكتبها بعد تماثله للشفاء من مرض ألمّ به.

تمتلئ الرواية بالدلالات والتساؤلات المعاصرة جدا، التي يتقاسمها العديد من الكتاب اليوم، ومن بينها سؤال عن صعوبة وسحر الكتابة في الوقت ذاته.

ينطلق الكاتب «سدني أور» (بطل الرواية) في كتابته لروايته المزمعة من فكرة وردت في رواية بوليسية بعنوان «الصقر المالطي» للكاتب الأمريكي الشهير «داشيل هاميت»، تتحدث عن بطل نجا من الموت بأعجوبة، فقرر أن يبدأ حياة جديدة لا علاقة لها بحياته السابقة.

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/٠٥٢
ردمك: ٩-٢٣١-٠-٩٩٩٠٦